تاريخ العراق

في عصر العباسيين

المسمى حضارة الإسلام في دار السلام

ألفه

جميل نخلة المدور

دار الآفاق العربية

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار الآفاق العربية

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران ـ مدينة نصر

القاهرة ـ ت : ٢٦١٠١٦٤

رقم الايداع	١٧٠١٧٠ / ٢٠٠٣
I.S.B.N الترقيم الدولي	977- 344-077-x

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصراً من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم . وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحّالة فارسيّ طوّفته معظم البلدان الاسلامية فى المائة الثانية للهجرة . وطوّقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد كما تراه فى موضعه من الكتاب

فكان فى النفس ومن عزم بعض خُلّانى علىّ أن أبقى الحديث على لسانه إلى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجميل الاسلام من علم وحلم وعفاف . غير أنى كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحلّى جيدها صواب . ولا يُرجع باسنادها إلى كتاب . اذا أبقيتُ للفرس مراتبهم بدولة العباسيين بعد نكبة البرامكة . لأنى أوجبت على نفسى أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضت الحال أن تكون . غير واصف الأشياء إلا بصوَرها ولا ممثّل الحوادث والأخبار إلا بما كان معلّقاً فى الخواطر جارياً على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت على الأسباب التى عظّمت المسلمين ونهضت بهم إلى فتوح العالم أعرضتُ عن ذكر ما دعاهم من بعد الى التوانى والانحطاط . كما انى وقفت فيما وصفت من علومهم عند حدّ الخبر المجرّد من غير أن أتتبع فى آدابهم آثار الحكمة التى اقتبسوها من يونان . ولا أن أتقصّى الغاية التى وصلوا اليها من الفنون والصناعات لِمَا لا يخفى من

حدوث ذلك كله بعد الرحلة وما وجب عليّ في تأليفها من النظر الى عصر الرشيد لا الى ما بعده من الأيام

وقد اتخذت في الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ماوقع في حديث الرحّالة من الموافقة لمابين أيدينا من كتب الأقدمين . وإني لأرجو أن ينفع إخواني بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدني واياهم الى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

هذا نص ما كتبته في مقدمة الطبعة الاولى لهذا الكتاب وقد بدالي بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي كنت عوّلت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الاسلامية يرجع عيبه الى السند الذي أخذت عنه فلزم أن أرجع الى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل وإني أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتني في مراجعاتي لما ورد في هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع في هذه الطبعة الجديدة . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفّل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفى عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة

فجاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة للمطالع . وعمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتنى لتنزيه النفس . وقد عقدت النية إجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الاسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها في مثل هذا السمط من درر الآيات البينات . والله يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وهو ولي التوفيق والهادي الى أقوم طريق

جميل مدور

فهرس

كتاب حضارة الاسلام

فى

دار السـلام

الرسالة الأولى (كتبت فى النهروان سنة ١٥٦ للهجرة)

ص

الرسالة الثانية (كتبت فى بغداد سنة ١٥٧)

ص

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الاولى

قدومى الى العراق

أتيتُ مدينة السلام فى السنة السادسةِ والخمسين بعد المائة من هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأَتخرَّج فى الفقه على لسان الشريعة يعقوبَ بن ابراهيم بن خنَيْس الأنصارى ، [1] وكان خليلا لأَبى (رحمه الله) على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين ، فركبتُ البحرَ من هُرْمُزْ فى ريح رُخاء زجّتْ مركَبنا إلى البحرين فأطرافِ العراق أهنأَ تزجية ، فلما حاذينا الساحل مما يلى البَصْرة طلعت علينا ريح عاصفة ، وانحدر بنا الموج إلى منعرِج فى البر من البحر كلُّه رمال ومهاوى ماء ، فبتنا ليلَنا فيه على أشدِّ ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر ، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينةٌ حملتنا إلى عَبَّادان ، وأرستْ بنا على مُطَلّ من خشبات تنتهى المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر [2] لئلا تلحَق بالأرض وتغوص فى الطين الذى يأتى دِجلة به [3] فى انسيابه ، وهذا البحر فى مسامتة العراق شديدٌ على السَّفْر ، ولا يُحْمَد منه إلاّ عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات [4] الدر والياقوت والعقيق والباديج وغير ذلك ، وهى باب واسع لطلاّب

---

(١) هو أبو يوسف القاضى (٢) المسعودى ١ : ٥٠

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ (٤) ابن خرذاذبه ٦١ والمسعودى ١ : ٥٢

الرزق ، وللغواصين عليها أخبارٌ غريبة فيما سمِعتُ ، حتى قيل إنهم يشقُّون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آنافهم القطن ويصطنعون وجوهاً من الذبل كالمشاقيص ، ويدهِنون أبدانهم بالسواد خوفاً من أن تبتلعهم دوابُّ البحر ، ويصيحون عند الغوص مثلَ الكلاب لتنفيرها عنهم ، فاذا بلغوا القعر عصروا دُهْناً يضىء منه البحر ليروْا الأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ ، وتكون مدفونة فى أرض البحر رملا كانت أو طيناً . ومما يزعمون(١) فى هذا اللؤلؤ أنّ تولّدَه من مطر نيسان إذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها القَطَرات فتربى فيها درراً رائقة الصفاء .

ولما أخذت نصيباً من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البَصْرة ونزلت بها فى موضع(٢) يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهَيْثَم بن معاوية أميرها . وقد طاب لى فيها المُقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسَى فى جِوارهم أهلَه(٣) بما يأنَس عندهم من مظاهر الأنس والمودَّة ، ووجدت لهم صبراً على طلب العلم يتخذون المكاتبَ(٤) لأولادهم وحَلَقَ العلم لأدبائهم ، وتُشَدُّ إليهم رحالُ الطلب من جميع الوجوه ، لأن لهم من الأدب المكان الذى لا يُرْقَى ، غير أنى لم أر فيهم إلاّ وَهِنَ البِنْيَة سقيمَها وأصفرَ اللون كاسفَه ،(٥) وذلك ناشىء فيهم من عفونة الماء ووقوع إقليمهم فى مَهابِّ الرياح المختلفة التى تتبدل فى اليوم الواحد ألوانا وضروبا ، فيُجْبَرون على لُبْس القُمصان مرةً والمبطَّنات أخرى ، ولذلك سُمِّيت مدينتُهم

(١) الدميرى والقزوينى والقرمانى (٢) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠ (٤) الابشيهى ١ : ١٧٧ (٥) الأغانى ١٧ : ٧٨

بالرَّعْناء ، أنشد الفرزدق (١)

لولا أبو مالك المرجوُّ نائلهُ ما كانت البَصْرة الرَّعْناء لى وطنا

وقد لَقِيتُ فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثل عبد الكريم بن أبى العَوْجاء والمؤرِّج السَّدُوسى الراوية ، والحسن بن هانئ الشاعر (٢) والنَّضر ابن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البَصْرى لمخالفة فى المذهب ثم سَمَّى الناس كل من ذهب مذهبَه بالمعتزلة (٣) لذلك، وشهدتُ حَلْقة عُتْبَة القحوىّ وأبى زيد الأنصارىّ ويونسَ النحوىّ، وله أعظم (٤) حلقة فى البصرة من حلَق علمائها ، وسمعت الحديثَ عن سفيان بن شُعبة الثَّوْرىّ وشُعبةَ بن الحجّاج العتكى ، غير أنى ما أصطفيت منهم لمحادثات الأدب الاّ الخليلَ بن أحمد ، لأنى وجدته أوسعَهم عقلا ، (٥) وأحضرَهم رواية ، لا يساميه فى علوّ الخاطر الاّ صالحُ بن عبدالقدُّوس الشاعرُ، ولكنى تحاميت مجلسَه لما يُتَّهمُ به من الانحراف عن السُّنة، (٦) وإن كنت لا أبخَس عقلَه حقَّه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجْهد نفسه فى طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلاّ بعد عَصْب الريق وفى قوله

لو يُرْزَقون الناسُ حسْبَ عقولهم ألفيتَ أكثر من ترى يَصَّدَّق

إشارةٌ إلى ما هو فيه ، وأنّ النعمة تُصيب غيرَ أهلها ، بخلاف الخليل ابن أحمد فانه متقلل من الدنيا راض منها باليسير، والملوكُ تبذُل له المالَ (٧) ولا يقبَل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة إليه . وقد اشتهر فضله بين الناس

(١) ابن بطوطة ٢ : ١٦ (٢) هو أبو نواس ذكر الأغانى ٦ : ١٧٩ أنه كان مقيما بالبصرة فى صباه (٣) المستطرف ١ : ١٢٦ (٤) العقد ٣ : ١٣٧ (٥) ابن خلكان ١ : ٢١١ (٦) الأغانى ١٣ : ١٥ (٧) الشريشى ٢ : ٢٦٨ والابشيهى ١٧٦:١

بعلم العَروض ، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحرُ الخمسة عشَرَ . على أنّ سموّه فى العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحدَه ، إذ له فى اللغة كتاب سمّاه العينَ وأودعه من عيون العلم [١] ما هو زينة ونخر لدولة الاسلام

ذكر البصرة وأماكنها المشهورة

ولقد ظننتُ البصرة لأولِ وهلة ليست بالمفرطة الـكِبَر ، فلما طفت فى ساحاتها ، وجلت فى أرباضها ومَحَلّاتها ، بدا لى أنها متسعة البقعة كثيرة العمران ، قلّ أن يكون بها موضع غُفْلٌ من العمارة خِلْو من السكان. ومبانيها على الغالب من اللَّبِن إلاّ ما كان من المسجد الجامع فانه مبنى بالصخر والجصّ على أتمّ إحكام وأبدع صناعة ، وأولُ من بناه عُتْبة بنُ غَزْوان ، أقامه من القَصْباء لاجل أن ينزِعه متى شاء ثم يُعيدَ اقامتهُ ،فلما جاء أبوموسى الأشعرى بناه باللَّبِن وطلَى جدرانه بالأصباغ . ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفةَ التى فى مُقَدَّم المسجد ، [٢] وحمل إليه العُمُدَ المزخرفةَ من الأهْواز ورفع جُدرانه بالحجر والجصّ ، [٣] ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمّت زينتُه وكثُرت له الوقوف الواسعة . وفيه اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم فى مائتى درهم وعشرين ديناراً فما دونها [٤] تخفيفاً عن الدواوين التى تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس

ثم سِرتُ من هذا الجامع إلى مسجد علىّ عليه السلام ، واذا صحنُه مفروش بالحَصْباء الحمراء ، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفُرْس ومن يقول

---

(١) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١
(٢) الأغانى ١٧ : ٢٨
(٣) ياقوت ١ : ٦٤٢
(٤) الماوردى ١٢٣

بخلافة أهل البيت ، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بمزاره ، كأنَّ وعيداً أبى جعفر لم يجد منهم نفوساً راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفُرقة بين العَلَوية والعبّاسية . ووجدتُ في بعض مقاصيره مصحفاً عليه أثر دابغ مثلُ الدم الجاف ، يقال إنه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل ،[1] وبعد أن قضيت زيارته المباركة جُلْتُ في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج ، ولا غروَ فإن هي إلاّ فُرْضة العراق والشام وخُراسان وما إليها من البُلْدان العالية مما يُكسبها حسنَ الموقع ، بحيث لا يصدُر شيء من هذه البُلْدان ولا يرد إليها إلاّ من البَصْرة ،[2] ولذلك استفحل فيها العمران وكثُرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبّة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثني به الهَيْثَم أميرُها أن المسلمين افتقروا في صدر الدولة الى منزل ينزلون به واذا دهمهم عدوّ لجئوا اليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضى الله عنه) عُتْبَةَ بن غَزْوان المقدّم ذكرُه وأوعز اليه أن يرْتَدْ لنا موضعا في جهة العراق قريبا من المرعَى والماء والمحتطَب ، فكتب له من البصرة انى وجدت أرضاً كثيرة القضة في طَرَف البر الى الريف ودونها مناقعُ فيها ماء وفيها قَصْباء[3] فكتب اليه عمر أن ينزلها بمن معه فوقع تمصيرُها في السنة الخامسةَ عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما جلستُ الى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأُوَل ، أخبرني أنّ البَصْرة انما اختطّها العربُ نكايةً بالفرس لتحويل

---

(١) ابن بطوطة ٢ : ١٠ (٢) المسعودى والقزوينى

(٣) ياقوت وابن حوقل ١٥٩

التجارة من سواحلهم اليها ، وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد، واتسع بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فُرْضَةً لجميع المشرق ، ففشت العمارة فيها فى برهة يسيرة حتى غَصَّت بالناس على ما رحُبت أرجاؤها. يقال إنه كان فيها من مقاتِلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفاً ، (١) وأخبرنى الهَيْثَم أن أهلها يبلغون اليومَ خمسمائة الفٍ من الرجال ، بدليل المال الذى فرّقه فيهم أبو جعفر، وكان ألفَ ألفِ درهم فلم يُصِب الرأسُ منهم إلاّ درهمين (٢)

وتبعُد البَصْرة عن عَبّادان حيث الشاطىء نحوَ ساعة زمانيـة، وعندها تختلط مياه دِجلة والفُرات(٣) وتصبّ فى البحر الملح بعد أن تفقِد عذوبتها ، لأن المدّ يأتى إلى ما فوق البصرة بأميال ، فاذا امتزج به ماء دِجلة صار ملحاً (٤) ، ولقد يخال الرائى لأول وقوع المدّ أنّ البلاد صارت غديراً ، كما وقع لحمزة بن عبد الله أميرِ البَصْرة لعهد ابن الزُّبَيْر ، وقد ركِب يوماً إلى الفيْض، فقال إن هذا الغدير ان رَفَقوا به يكفهم صَيْفَتَهُم هذه ، فاما كان بعد ذلك ركِب إليه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذاتَ يومٍ فظننت أنْ لن يـكفيَهم ، فقال له الأحنف بنُ قيس ، أيها الأمير إنّ هذا الماء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود ، فخجِل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك فى أبيات لهم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفّحت فى البصرةِ كثيراً من قصورها المُشْرِفة ، واستقريت أماكنَها المشهورةِ بما وَعَيْتُ عنها من الأنباء ، وأحسنُ ما استظرفت منها قصرٌ لمحمدِ بن سليمان الهاشمى (٥) ، وهو أوفر بنى العباسِ مالا وأعظمهم

---

(١) ياقوت ١ : ٦٤٤ (٢) الشريشى ٢ : ٤٣٧ (٣) المقدمة ٥٥

(٤) القزوينى والاصطخرى والمسعودى (٥) ياقوت

لشاعرٍ نوالا ، تُغِلُّ ضِياعُه كلَّ يوم مائةَ ألف درهم[١] ، وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ فى زينته جُهْدَه ، واتخذ فى جنانه المَهَا والغزلانَ والنعامَ وأنواعَ السباعِ والطيورَ المغرِّدة ، فجمع فيه محاسن الحضارة والبداوة ، وفيه يقول الشعراء .

زُرْ وادىَ القصر نعم القصروالوادى · فى منزل حاضرٍ ان شئت أو بادى
ترقى به السفن والظُلْمان حاضرةٌ · والضبُّ والنونُ والملاّح والحادى

الى آخر الأبيات .

وأمّا القصور التى بقيت بعد أربابها فانها لَكثيرةٌ فى البصرة شاهدت منها قصراً لأَوْس بن ثَعْلَبَة[٢] الذى وَلِىَ العراق وخُراسان فى دولة الأمويين ، وهو قريب من المِرْبد[٣] ، وعليه قباب مرفوعة يَغَصُّ الجوُّ بها صعوداً ، ومن حوله خمائل وارفة ، كأنَّ الأيام تزيدها جدّة ونضارة ، وتُلْبسها من الخضرة حلة قشيبة . ولله ابنُ أبى عُيَيْنَةَ حيث يقول فى وصفها هذه الأبيات

بغرسٍ كأبكار الجوارى وتربةٍ · كأن ثراها ماء ورد على مسك
يذكرنى الفرْدوسَ طوراً فأرْعَوِى · وطوراً يواتينى الى القصف والهتك
وسِرْبٍ من الغزلان يرتَعْن حوله · كما استلَّ منظومٌ من الدرّ من سلك
وورقاء تحكى الموصلىَّ إذا غدت · بتغريدها أحبب بها وبمن تحكى
فياطيبَ ذاك القصرِ قصراً ونزهة · بأفيحَ سهل غيرِ وعر ولا ضَنْك

وشاهدت قصر الأحنف بن قيس[٤] المقدَّمَ ذكرُه فى رحبة المنجاب[٥] ،

---

(١) المسعودى (٢) الأغانى ٣ : ٣٦ وياقوت (٣) الأغانى ١٣ : ١٠
(٤) الأغانى ١٧ : ٥٦ (٥) محلة ذكرها الأغانى ١٢ : ٦٣

ودارًا لأنَس بن مالك[١] خادِم النبى صلى الله عليه وسلم ، وايوانًا للزبير بن العوّام[٢] تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وآخرَ لعُبَيْدالله بن زياد يسمى البيضاء[٣] ، وهو بمقربة من الموضع الذى خطب فيا أبوه خطبته البتراء[٤] التى أخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانه فلم يبق منه إلاّ أثر دارس ورسم شاخص .

العرب البادية ونُتفٌ من اخبارهم

ولقد أتيت مِرْبد البصرة عن طريق المهالبة[٥] فسكة المِرْبد ،[٦] فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحطُّ بها الرحال ، وتعلّق فيها الأشعار التى يتناشدها العُرْبان فى أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالسُ ويبيعون ويشترون ،[٧] وهناك موضع يقال له شمس الوزّانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار ،[٨] قد طُلِيَ بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلاّ قليلا ، ووجدت صحراء البصرة من وراء المِرْبد وعرة مرملة لا يغرد عليها طير ولا ينبُت فيها شجر غيرَ النخيل لفِقْدان الماء فيها ، وخيراتُ البصرة تردها من الأُبُلَّة ، وهى مدينة عامرة بالناس خِصْبة الجناب كريمة البقعة يشقُّها جدول من دِجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضِه على بعض ، وفى مُرْساها مجتمَع كثير من مراكب

---

(١) ياقوت ٤ : ١٠٩ (٢) المقدمة ١٧٨ والمسعودى ١ : ٣٣٣ (٣) القزوينى ٢٠٦ (٤) سميت بذلك لأنه لم يفتتحها بالحمد لله والثناء عليه (٥) الاتليدى ١٠٧ (٦) الأغانى ١٢ : ٦٤ (٧) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغانى ٥٠٧ (٨) الأغانى ١٧ : ١٨

الهند والصين ، لأن الربح فيها واسع لأهل التجارة . وأمّا النخيل المتصل فيما بينها إلى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسبٌ وافر للناس ، يقال إنّ ثمنه يعدل(١) ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ماوراء المِرْبد فى ظاهر البصرة عُربان من عامر(٢) وقيس عَيْلان كنت أختلف الى أحيائهم وأبيت ليالىَ عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعى أحاديثهم باقبال واستمتاع ، وأشهد حَلَق القُصّاص فيما يحدثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ، ولا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تُنْتَج ، وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل(٣) وذكر هؤلاء القصاص أن جميلا لما سأله خُلاّنه [illegible] ما عمِلتَ مع بثينة طول تلك الأيام قال كنت أمتع عينى من وجهها وسمعى من حديثها ، ولم أمُدّ إليها يداً غيرَ مرّة واحدة ، أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بخفقان قلبى(٤) ، وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله فى صدورهم من نُبْل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقى فى خاطرى ذِكر عذب لاجتماعى بهؤلاء العُربان ، وقد طاب لى الجلوس إلى قيس عَيْلان أكثر منه إلى بنى عامر ، لأنى وجدت فيهم بياناً وفصاحةً(٥) غير أنهم لم يلبثوا فى البصرة الا قليلا حتى شالت نعامتُهم ،

---

(١) ياقوت ١ : ٦٥٠ (٢) فى الأغانى ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريبا من ذلك الوقت (٣) تزيين الأسواق (٤) تزيين الأسواق ٢ : ٩ (٥) الأغانى ٣ : ٥٣

فصرت أتوجه إلى بنى عامر وعَرفت بالمُقام بينهم كثيراً من خلال العرب المحمودة ، وقد أعظمتُ رواج الأدب بينهم ، والكتابةُ عندهم مفقودة (١) غير أنهم يجرون على قواعد اللغة فى أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس فى الامكان أصحُّ منه ، ولهم فى كلامهم من الأمثال الحكيمة مالم نجده فى كثير من أمم العلم والحضارة ، فيمرُق الكلام من أفواههم مروقَ السهم من الوَتَر كما يقولون ، وهم أصحُّ الناس أبدانا ، لأنَّ الظَّعْن كفيل لهم بطيب الرياح التى لا تخبُث إلاّ مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات (٢) ولأنّ طعامَهم اللبن والتمر والقليل من اللحم ، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلِبَ إلى أبدانهم العلل ، (٣) وأكثرُهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحمُرُ الوحشية عدْوا ، فلقد سمعت من يحدِّث عن تأبّط شرًّا أنه كان إذا جاع نظر فى السهل إلى الظِباء فانتقى لنفسه أسمنها ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه ، (٤) وربما حدّث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنْفرَى وعمر بن برّاق وغيرهما من العدَّائين

ووجدت لهم من الصفات الحِسان التى تحَدثها فيهم شهامةُ النفس ما ليس يجتمع فى غيرهم من الأمم اجتماعَه فيهم، فهم يحمُون الذِّمار ، ويمنعون الجار ولا يُغْمِضون على الذل كما هو معروف عنهم فى الأشعار ، فلأن يموتو

(١) أى عند عربان البادية لأنه يعرف أن المتمصرين كانوا يكتبون قديماً بالحروف الفهلوية التى كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية الى أن استبدلوها بالكتابة الكوفية فى صدر الاسلام ويقال إن أيوب الصديق انما كتب حديثه بلسان العرب اه (٢) المسعودى والمقدمة (٣) قال فى العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان العربان . وما لذلك علة الا التخفف من الزاد (٤) الأغانى ١٢ : ٤٩

قتلا تحت ظِلال السيوف ، أحبُّ اليهم من البقاء فى رِبقة الذل والخُنوف .
يقول عمرو بن كُلْثوم من أصحاب المعلقات .

إذا ما الملْكُ سام الناس خَسْفاً   أبينا أن نُقِرّ الخسف فينا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على نفوسهم العهودَ ، ويأخذون بثأرهم أخذاً شديداً ، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم ، وذهبت المَنَعَة منهم ، (١) ولكنّ ذلك قد يدعوهم إلى التفانى على غير علة الا الحصولَ على الرخيص مما يبذلون فى سبيله من النفيس ، كاثارتهم لأجل امرأة أو فرس أو بعير قتالا يستمر أعواما طِوالا بين عشائرهم ، حتى إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال فى الأشهر الحُرُم فنقص فيهم من القتل ما يقع فى أربعة شهور من القتال ، والله رءوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا ربَّ سواه .

وأكرمُ ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرمُ والسماحة ، حتى إنهم ليُضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قَتَلَة آبائهم ، (٢) وربما توسعوا فى أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وغُصّة عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم

وانا لنَقْرِى الضيف قبل نزوله   ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديثَ لم أنقُلها عن جانب الثقة والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلَّهم كريم ، حتى لقد يكون السخاء تسعةً فيهم وواحدا فى الناس ، (٣) ومن

(١) المقدمة ١٠٩ (٢) الأغانى والاتليدى (٣) المحاضرة ٢ : ١٨١

زعم أنّ حاتما الطائىّ أكرمُ العرب فقد ظلمهم جميعاً. وظنى بأخذهم فى هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعىّ عندهم، لأن الراحل منهم قد يفوزّ فى الفلاة أياما طِوالا على جَهْد من العطش وسُعار من الجوع ، فاذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والأعياء قَرَوْه وعلفوا مطيّته وأوقدوا له نارا يصطلى بها من كَلَب البرد كما يقولون ، حتى إذا أصابهم فى ظَعْنهم مثلُ هذا العَنَت الشديد يتلقاهم أهلُ الخيام على السَّعة من الضيافة

قال حسان بن ثابت يتهلل بذكر المكرمات :

وانى لمعطٍ ما وجدتُ وقائلٌ   لموقد نارى ليلةَ الريح أو قِدِ

وكان الكرم ينتهى بهم إلى أن يقوم لعشائرهم منادٍ فى الأسواق ينادى فى الناس هل من جائع فنطعمَه أو خائف فنؤمّنَه أو راحل فنحمَله ؟ . وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلاّ أنه كانت لهم فى مناقضة هذه المحاسن مساوئُ كثيرة فى الجاهلية ، فلما نزل كتاب الله روّض أخلاقَهم المستهجَنة وصرف عنهم المكروه من العادات ، فقد نقلت الاخبارُ السالفة أنهم كانوا فى جاهليتهم يتزوجون بنساء آبائهم (١) ويكرهون إماءهم على البغاء (٢) ويألفون غير ذلك من العوائد الخشنة التى ذهبت بمجىء الاسلام .

وإنما اضطُر العرب إلى سكنى البادية وتخير بقاعها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح ، لأنهم وُجِدوا فى قِفار قد تراكمت عليها الرمال المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حباً ولا بقلا ، وكانت آبارهم تغيض فى حَمارّة القيظ على بُعد قعرها ، فكانوا يظعَنون لورود غيرها من المناهل فى أصقاع

(١) الأغانى ١ : ١٠ . (٢) العقد الفريد ٣ : ٢

يكون بها خضرة من الكلأ ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر فى بحر تسير فى مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلاّ القليلَ فى جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم ان الله تعالى أوجد لهم الابل (١) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكان سكناهم فى الوبر بما تقدم من الاسباب أمراً طبيعياً ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم ،(٢) فضلا عن كونهم يرون الأبنيةَ والتحويطَ حصرا لهم الرجال(٣) وحبسا لما فى الغرائز من حبّ الاستقلال . فهم لا يصبرون على الضيم ، والحريةُ عندهم أفضلُ ما أعطاهم الله، يبذلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم، فانا لا نجد فى أحاديث النَقَلَة أنَّ أمة استعبدتهم فى غابر الدهر قطّ ، فهذه الكَلْدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالَم الا العُربانَ، وكان من أمانىِّ الاسكندر الرومىّ أن يدعوَهم إلى طاعته بعد أن تمَّ له الغلَب على المشرق، غير أن المنيَّة عاجلته قبل الاقدام على هذا التغرير ،فرُزِق بموته سلامةً من الاخفاق ، حتى لا يقالَ عنه ، وهو الملك المنصور، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقدم على العُربان ما ثبت له جند عليهم فى تلك المجالات التى يتوغلون فيها و يبيتون فى أمن من العدوّ وإن كثُر .

---

(١) الابل سفين العربان وهم يغتذون بألبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفئون بوقيد أبعارها وقد أوجد الله فى قوائمها ليناً فوق القدم يطوى على الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طرق الرمال (٢) المقدمة ١٠٥

(٣) المسعودى ٤ : ٢٣٤

ولقد لَقيت من هؤلاء العُربان فتىً تلوح عليه النجابة والفطانة ، فذكرت له أنَ فى لقائه الملوك سبيلا إلى نيل العلا فاخبرنى أنه نزل الزَّوْراء لأول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمض إلاَّ القليلُ حتى ملَّ العمرانَ ومال به الشوق إلى ربوع العُربان . وأنشدنى وهو منصرف

لَبَيْتٌ تخفق الأرواحُ فيه أحبُّ الىَّ من قصر منيف
ولُبْسُ عباءة وتقرَّ عينى أحبُّ الىَّ من لبس الشفوف

والأبيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبى سفيان ثم لم تطِب نفساً بالمُقام عنده، فرجَعت إلى البادية بعد ما أنشأت الأبيات التى أنشدنيها هذا الغلام . فسبحان من قسم المعايش بين الأجيال . وركّبَ فى نفوسهم طباعاً متفاوتة ، لا إله إلاَّ هو ذو الاكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولُمْعَةٌ من اخبار الحجاج

كان مُقامى فى البصرة شهرا وثمانيةَ أيام ، ولما طويت بساط الاقامة تهيأ لى أن أصعَد على دِجلة سفرا (١) يخفف عنى مَشَقَّةَ الركوب على ظهور المطايا، فدفعت حُمولى الى الرُّبان وانفصلت عن البصرة لأول هُدْءٍ من الليل، حتى إذا طلع النهار كنا فى متوسط بِطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر، وفيها خيام لبطون من تميم (٢) وشَيْبان ، (٣) قد ضربوها على مرتفِعات من ذلك السهل ، فكان تأملى منازلَهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثّل لى من بُعْدِ ارتحالَهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على

(١) المسعودى ٢ : ٢٣٩ (٢) فى الأغانى ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة (٣) تزيين الاسواق ٢ : ٧

هـذه الأطلال وبكَوْا عهوداً مضت لهم فى زمان الأنس ما بين هـذه الربوع .

ولما كان بعدَ أيام طلعت علينا سَموم يكاد يأخذ حرُّها بالنَّفْس، وكدنا أن ننكُص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الرُّبان أن ينزل الملاّحون إلى البر ويربِطوا المركَب بأمْراس يجرُّونه بها من عُدْوة النهر ريثما يحصُل الفَرَج ، ومضى الليل كلُّه من غير أن تكتحل عيناى بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها فى مغالبة الريح ومقاساة عَنَتها الشديد إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط(١) .

هذه المدينة فى فضاء من الأرض طيبةُ الاقليم والنسيم ، غيرَ أنّ الحرَّ غالب عليها لاقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هِضَابها(٢) ، ومبانيها من الإحكام بمكان سامٍ ، ولا سيما القصرُ الذى بناهُ الحجّاج(٣) ، وهو باق إلى زماننا هذا ، وهوسنة ست وخمسين بعد المائة ، والناسُ يسمونه الخضراء ، وله قبّة مشهورة فى مبانى الاسلام ، حتى قيل إنه ما بُنِيَ لأحد قبل الحجّاج مثلُها(٤) ، وفيه أحواض كثيرة يرقَى إليها ماء دِجلة ، وأعظمُها حوضٌ من الرُّخام الأخضر وبه مجلس به سرير مُذْهب(٥) يقال إنه كان مَقْعَداً للحجّاج فى مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرَف بأنواع الزينة ، لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذى بجواره بلغت نحواً من أربعين ألف ألف درهم(٦) ، ولـكنه سَمِج فى عينى بما ورد على خاطرى عند مرْآه من

(١) تقويم البلدان ٣٠٧ (٢) القزوينى ٣٢٠ (٣) المسعودى ٢ : ١٨٣ وهو يقول انه كان باقياً لأيامه (٤) المسعودى ٢ : ١١٥ (٥) الابشيهى ١ : ٦٣ (٦) ياقوت ٤ : ٨٨٧

قبائح الحجّاج ، فكأنه بيت قد رفعت جدرانُه على دعائم الظلم والاعتساف .

وبقيتُ في واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ، ولكن على كُرْه من النفس ، لأني كُنت أراها بعين الماقت لها . ونزلت بها في فُنْدُق على شاطئ النهر حيث الجسرُ المُقام من سفن ، وأمامَه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة يأتيها العُرْبان بما يريدون بيعه من الخيل الجِياد التي يحتفظون بها احتفاظَ الآباء بالبنين (١) ، فانهم لا يتخلَّوْن عنها بالقليل ولا بالكثير من المال ، وإذا سألتهم بيعَها منك بأغلى الأثمان فأنت مردود في سؤلك ، يقولون لك هذه مَنْجاتنا من العدوّ واذا أطلقنا لها العِنان طبقت الآفاق بأسرعَ من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مُقامة في واسط منذ بنيت إلى هذه الغاية ، لأنها كانت في أول هذه المائة من أعمر بُلْدان العراق بما خصَّها الله من خِصْب التربة وكثرة الخيرات ، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة (٢) ونزلت بالناس السِّنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجافى الناس عن سكناها بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيها السلم وبعُد عهدها من الوباء ، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها لما يتسنَّى لهم فيها من قرب الاتصال والمسافةُ الآن منها إلى الزَّوْراء خمسون فرسخاً ، ومنها إلى البَصْرة خمسون أيضاً ومنها إلى الأهواز مثلُ ذلك ، وظني أنها سُمِّيت بواسطٍ لهذا السبب ، وهو توسطها في العراق .

وقد اتفق لي قبل الاتصال عنها أني لَقِيت فيها شيخاً كان أبوه خادماً

---

(١) تزيين الأسواق (٢) ابن الأثير ٥ : ٧١

عند الحجّاج (حاسبه الله تعالى) فحدَّثنى من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة رحمةً لأهل البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتُل منهم جُزافاً على التُّهَمَة إلى أن بلغ عددُ الذين قتلهم صَبْراً مائةَ ألف وعشرين ألفاً ، وكان فى السجن عند ما أهلكه الله أكثرُ من خمسين ألفاً يرسُفون فى سلاسل الحديد ، ولاذنبَ لهم إلاّ حبُّهم لأهل البيت ، وكانت الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون مَنْ قُتِل البارحةَ ومن صُلِب ومن قُطِع ، وقد تفاحش ظلمه فى الخَراج بحيث إنَّ الأمراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفاً [١] من نقص الخراج إذا خففوا ضرائبه ومُكوسه ، أو الاستمرارِ على ظلم النـاس اذا راموا جِباية ما كان يحمله إلى الخليفة من المال [٢] .

وقد رسم لى هذا الشيخ صورَته بأنه كان قويَّ البِنْية مائلا إلى السِمَن، ولا يزال العَرَقُ متصبِّباً على جبينه وصُدْغيه من تحت قَلَنْسُوَةٍ قد حوَّطها بعمامة خضراء ، [٣] وكانت له مَهابة تقصِم ظهرَ الوافد عليه . وكان شديد التهويل فى خُطَبِه ، وإذا صعِد المنبر تلفَّع بمُطْرَفَه ثم تكلم رويداً رويداً

(١) ابن الاثير ٥ : ٩ (٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جوره واعتسافه ولكن لم يكن فى كنانتهم سهم أشد منه نكاية على العدو فلم يرق لهم استبدال غيره به وان ثقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبدالملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة فى غلالة فجاءت جارية وسارت الوليـد ومضت ثم عادت فسارته ثم انصرفت فقال الوليـد للحجاج أتدرى ما قالت هـذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثتها الى ابنـة عمى أم البنـين تقول ما مجالستك لهذا الاعرابى المتسلح فى السـلاح وأنت فى غلالة فأرسلت اليهـا انه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اهـ (٣) العقد ٣ : ١١

فلا يكاد يُسمع حتى يتزايد فى الكلام فيخرجَ يده من مُطْرَفه ثم يزجُرَ الزجرة فيقرعَ بها من فى أقصى المسجد .

قال وكان يحدثنى أبى أنه كان يجد لذّة [١] فى سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقْدِم عليها غيرُه ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مَرْوان إلى العراق ليُوَطِّئَ له المنابر خرج كَميشَ الأزار وغلب الناس بقوة الرجال لابالسياسةِ والرأى ، لأن جنوده كانوا من الشام [٢] وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت ، فلما أوجدهم بين أعدائهم لم ير منهم إلاّ نفوساً مستقلةً راجعة إلى رأيه فى كل أمر ونهى ، فحملهم على منازاة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلُها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام ، فأقام ملكَ بنى أمية على هذا الظلم وقوّمه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله بانقراض دولتهم فى المشرق .

هذا نَبْذٌ يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه فى أفواه الواسطيين كتناقل الحديث فى مجالس البَصْريين عن زياد بن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان وَالقهر ما لم يسبق إليه أحد من البُغاة الظالمين ، ولكليهما فضل فى تدبير ما خُوِّلا من الولاية إلا أن لزياد فضلا فى بلاغة الكلام التى شَهد له بها أكبر الرجال وضبطه البلادَ بأهل البلاد أنفسهم أعظمَ من فضل الحجاج الذى ما غلب العراقيين إلاّ أهل الشام وما قوَّم ملكَه إلا بالسيف الباتر . والجبروتِ القاهر .

---

(١) المسعودى ٣ : ١٠٣ (٢) الكنز ٢٢٢

المرور بمدائن كسرى أنوشِرْوان

كان انفصالُنا عن مدينة الحجاج فى ليل رطيب قد انفتق سحابُه عن القمر، فقضينا جزءاً كبيراً منه فى السَّمَر حتى إذا أسفر الصباح كنا فى محاذاة قصر يقال له الرُّمان (١) ومن حوله خِيام مضروبة للعُربان، فوقع ذلك من نفسى موقعَ الاستعبار من الدنيا فى نعيم الحضارة وشقاء البداوة، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلّما يقع عليها النظر فى وقت واحد. وكان يلوح لنا فى صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أُخْبِرْت أنه من جملة المناظر التى أقامها الحجَّاج بينه وبين قَزْوين، (٢) وهى إذ ذاك آخر الثغور، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِّنت بالنهار فدُخِّنت المناظرُ كلُّها أو أوقدت بها فى الليل نارٌ فاستوقدت المناظر فيُعلَمُ ذلك

ولم نزل نخترق عُباب دِجلة يوماً بعد آخر حتى جزنا جَبُّل والنعمانية ثم الماطر ثم يلى كلواذا (٣) وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر، فنزلت إلى البر أتفرج على الايوان الذى بناه كسرى أنوشِرْوان. فاذا هو فى غاية العظم ونهاية الاتقان. يبلغ طوله نحواً من مائة ذراع وعرضُه نحواً من نصف ذلك وقدَّرت فى ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعاً، وليس فى مبانى الآجر ماهو أبهى منه، وقلما يوجد فيه موضع غُفْل من رسم أو نقش أو كتابة، وهو يعدُّ من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس فى عهود الأكاسرة الذين جَبَوْا معظم الدنيا، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة

---

(١) ابن خلكان ١ . ٤٧١ وياقوت ٢ . ٨١٤ (٢) ياقوت ٤ : ٨٨٦

(٣) المسعودى ٢ : ٢٢٩

والإحكام ، ولا يُرَى فيه اليومَ من الآثار الجليلة إلا صورُ آلهة جبابرة وسباع ضارية . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشِرْوان،[1] وأما آنيةُ القصور وزخارفُه المنقولة وما كان فيه من المتاع الثَّمين فقد فُقدت بعد الفتح ، وَبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألفَ ألف دينار من الذهب .

وَجملة القول أن شأنه فى الفخامة وَالاتقان مما يحيِّر الأذهان ، على أن الأيام قد أهوت عليه بمعْوَل الفناء الذى ليس فى طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزَّوْراء حمل من آجره جانباً كبيراً على بُعْدِ الشُّقَّة وَعظم النفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وَقال يرغِّبه فى حفظ ذلك الأثر يا أمير المؤمنين لا تفعل وَاتركه ماثلا يُستدلُّ به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الايوان ، فاتهمه الخليفة فى النصيحة وَقال أخذته النُّعَرة للفرس ، وَأبى إلاَّ التعصبَ لقومه ، فوالله لأصرعنَّه قريباً ثم شرع فى هدمه وَاتخذ له الفُئُوس وَصبَّ عليه الخلَّ وَحماه بالنار ، حتى إذا أدركه العجز وَخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيره فى التجافى عن الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألاَّ تهدمَه فأمَّا إذ فعلتَ فانى أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقالَ عجز سلطان العرب عن هدم مصنَع من مصانع العجم ، فعرفها المنصور وَأقْصَر عن هدمه ولكن بعد أن قوَّض جانباً من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدِّمَنِ

---

(١) ذكر ذلك البحترى فى وصف الايوان حيث يقول

والمنايا موائل وأنوشروا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس

والدرفس الراية

ندًى يتلألأ ما بين الأوكار التى تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه ربُّ هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتنى لذلك عِبْرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات .

أيها الشامت المعيِّرُ بالدهـــر أأنت المبرّأُ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيّـــام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنونَ خلّدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى خيرُ الملوك أنوشِرْ وانُ أم أين قبلَه سابور
وبنو الأصفر الكرامُ ملوكُ الرو م لم يبق منهمُ مذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير فى الخاطر لا يبرَح منه العُمُر ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ(١) من دار السلام ، وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة فى آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنّه وكرمه ، ونحن قد جُزنا موضعاً يعرف بالنَهْروان(٢) وصرنا على مُطَلّ من الزَّوْراء أم البُلْدان .

مُقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العَتْمة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبّحين بحمد الله والمقدّسين له نغماتٌ تؤوِّبها معهم أرجاء المدينـة ، وتعذر المسيْر على مركَبنا تجاه باب البَصْرة(٣) أو كاد ،

---

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧ (٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

(٣) هو باب من أبواب بغداد

لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان ، وهى مظلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصّعة بأنوار القناديل الحِسان . حتى كأنّ دِجْلة فى الزّوْراء . أشبهُ بالمَجرَّة فى كبد السماء . ثم تقدّم بنا المركب حتى وقف بقرُبة من الجسر ، وعلى مطَلٍّ من قصور الخلافة التى كانت تتلألأ بضوء باهر ،[١] فركبت البرّ فى الموضع المعروف بجزيرة العباس ،[٢] وقد غَصَّ بجموع من الناس وقد لبسوا الطيالس السود تشبُّهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شِعارَ الخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونعياً على بنى أميّة فى قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدلَ العمائم قلانسَ طِوالاً مصنوعة من القَصَبِ والورق ملبّسةً بالسواد أيضاً ، وبدلَ الدروع دُرّاعاتٍ مكتوباً عليها بين كتِفَى الرجل «فَسَيَكْفيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليم» ، أخبرنى[٣] بعض من لقيتُه فى تلك الليلة أنّ أبا جعفر هو الذى أحبَّ أن تتزيّا حوْزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

ولما جُلْت فى المدينة أخذت عن قطيعة[٤] أبى عيسى الهاشمى الى مَحَلَّة يقال لها الميدان[٥] ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبى جعفر ،[٦] فوجدته كأحسن ما يكون وأحفلِه من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين ، الأولُ اتساعُه إلى أربعين ذراعا[٧] وإنْ كان يشاركه فيه غيرُه ، والثانى طولُه من دار الخلافة إلى محلّة باب الشام[٨] على استقامة ليس فى الامكان أصحُّ منها ، فلما صرت فيه استقبلتُ فى دور الخلافة زينةً

(١) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٢) فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع (٣) ابن الاثير ٥ : ٢٤٥ والاغانى ٥ : ٩٥
(٤) ذكرها ياقوت (٥) الاغانى ٢٠ : ٦٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٣٠
(٧) ابن الاثير ٥ وابن خلدون ١ (٨) ذكرها ابن خلكان وابن الاثير

كضوء الشمس ، قد اتُّخِذَتْ على القبــة الخضراء [١] التى رفعها أبو جعفر إلى عُلوٍ يزيد على ثمانين ذراعا ليُشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه عُنِىَ بتجميلها بالرسوم العجيبــة ليكون منها الدلالة على سَعَة ملكه والشهادةُ باقتــداره على عظائم الاعمال ، فكانت تظهر زينتها فى تلك الليــلة وهى مرتفعة فى الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنى أقبلتُ فى صدر هــذا الشارع على مسجدٍ جامعٍ عليــه ازدحام فمات إليــه ، برجال متمنطقين بالسيوف يَرْجعون الناس وَيجعلون ممرا بين جموعهم ، ووراءهم رجلٌ طويل [٢] أسمرُ نحيف خفيف العارضين مُعَرَّق الوجه ناطق العينين عليــه ثياب سود من الخَزَ وقَلَنْسُوَة مطوَّقة بوبر [٣] أسود من الأوبار الغالية الثمن، وفى وجهه مهابةُ الملوك وجلالتهم ، فعرَفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيتُه ، إذ الشمسُ لا تخفى وان سُتِرت ، ثم لم أزل أتبعَهُ بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة [٤] عليها حِلْيةٌ خفيفة من الفضة ، وكان لجامها فى يد حاجب من حُجّاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاجُ ابنُ أرطاة [٥] ، وعلى مقرُبة منــه قُرّاء سبعة يتلون الآياتِ من القــرآن إلى مائة آية من مواضعَ متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رُقَعٌ فى مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضَى من المرهَف ، وحدَّثْ

(١) المسعودى والقزوينى (٢) العقد الفريد (٣) ابن عون وذكر ابن جبير انه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر (٤) ابن خلدون (٥) ذكر فى العقد الفريد أنه ولى القضاء لابى جعفر

عن البحر فى بُعد الغَوْر وقُربِ المغترَف ، وعهدى بمن لقِينه من الخطباء أنى ما سمِعتهم إلاّ تمنيُت أن يسكتوا مخافةَ أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيهَ الذى كان يُواتيه الـكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع فى تفسير كتاب الله وَايراد الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ فى سَرْد الآى المقروآت فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهى قوله تعالى « فى بيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُه[1] الآيةَ ، فنمّق خطبة يذكّر بها المؤمنين قافيةُ سجعاتِها الالفُ اللينة واللام تَرْداداً لموقِف الآية « الآصال » حتى أرسلتِ العيون لخشية الله عبراتها[2] .

ولم أزل فى المسـجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعـد العِشاء الآخِرَة ، فخرجت ألتمس موضعا أبيت فيـه بقيةَ الليل لعلى أجدُ فى النوم راحةً تعوِّض علىّ بعضَ ما أخذ منى السفر ، فأُرْشِدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل التِّجارات وغيرِهم ، فلما كان الصباحُ بَكَرت إلى استاذى أبى يوسف ، منزلهُ على نهر عيسى[3] فى قنطرة الزياتين[4] بمقرُبة من دور الخلافة ، فتلقانى بالبشاشة والايناس وأبى إلاّ ضيافتى عنده فى جَناح أفرده لى من داره ، وهو يؤملنى بلوغَ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدَم قومُنا محلا فى مراتبها والوزارةُ فى يد خالد بن برمك أميرِنا . إنى إلى هذا اليوم أتخرّج فى الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندُر مثلهُ فى صدور الرجال.

(١) سورة النور (٢) من رحلة ابن جبير (٣) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودى ١ : ٤٧ انه يأخـذ من الفرات وفى ابن خلكان ١ : ٧٤٠ انه يأتى بغداد من جهة الانبار و ١ : ١٠١ انه بجوار قنطرة الزياتين (٤) الاغانى ٣ : ١٨٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٣

ذكر شيء من محاسن الزَّوْراء

ولقد أكبرتُ من الزَّوْراء رواجَ سوقها بالتجارة واشتباكَ أحيائها بالعمارة فى مدة عشر سنين حتى جمعت من اسباب العمران ما لا يكون فى مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهي الأنفسُ وتلَذُّ الأعين ، وأسواقها فى نهاية من الاحتفال، قد جمعت بالكَرْخ أخلاطا من التُّجار (١) والصُّنّاع ، إلاّ سوقَ الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرسِ ، وقد بلغوا من الأجادة فى صناعتهم الغايةَ بحيث يرصِّعون الزجاجَ بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسَّم ، ويصنعون للملوك أقداحا (٢) تقيِّد الأبصار حسنا وإشراقا ، ويتخذون على الجامات صورا يُحكمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير (٣) ومن فوقها عُقاب ينقضّ عليها ، وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منه ، لكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطَرف . وإلى طَرَف هذه السوق مما يلى سُوَيقة غالب (٤) جماعةٌ من البنائين يبنون الدكاكين لارباب التجارة باشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الأسواق إلى الكَرْخ (٥) ليبعدَ أخلاطَ الناس عن جِواره .

أما دور المدينة فانها متَّخَذة على هندسة الفرس وصنائعهم ، (٥) ومِثالُ

---

(١) الاغانى ٩ : ٣٣ و١٨ : ٦ (٢) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٣) فى الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لابى نواس .

تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بانواع التصاوير فارس

الاغانى ٣ . ٢٧ (٤) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ : ٢٤ فى ابن الاثير ٦ : ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم ان العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد (٥) المقدمة ٣١٣

ما بنت الروم فى الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد ، وهى مجلّلة كِلْسا ومرفوعة إلى طبقتين [١] ومبنى بالآجُر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالحجر ما عاسّها دفعاً للماء فى أوان السيل [٢] أن يبلغَ الطينَ ويتمكنَ منه ، ومنهم من يقوّى الآجرَ بالقَصْباء والحَلْفاء ويغمسه بالجِص [٣] حتى يصير يابساً وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد إذا صلصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وانما تُطِلّ نوافذها على الشوارع [٤] بحيث اذا ارتفع المارّ على حجر أو على دابة تيسر له أن ينظر من بداخل البيت ، [٥] أما دور المتموّلين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد ، وهى مقاصير الحَرَم وحُجُراتُ الخدم ومجالس السلام . وفى ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحاً وريحاناً واسترواحاً للنفس ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوشٌ فى رسم ملوّن أو فُسَيْفِساء من ذهب ، وعلى دائر الأبواب والقَمَرِيّاتِ وبَرّاداتِ [٦] الدور كتابة يتخذونها من الزجاج [٧] الملون ويحوّطونها بخشب أسود من الآبنوس وغيره ، ثم يعلقون عليها رسوماً من النُحاس تمثل غصوناً وثماراً وأزهاراً وأشكالا فيها كلُّ غريبة من الابداع ، فتمتلئ العين ارتياحاً من النظر إلى إشراقها . وانى ليعجبنى من جمال مبانيهم ما يتأنقون فى زينته من الخارج أيضا ، فإن القِباب التى يرفعونها من فوق السطوح على عُمُد قد دقّت أمثالَ الرماح ليُخَيِّل للرائى أنها لا تستند على شىء . وكأنما هى معلّقة فى الهواء .

---

(١) يستدل على ذلك من الاغانى ٢ : ٧٣ و ٣ : ٣١ (٢) ذكر الاغانى ٩ : ١٤٤ وقوع سيل ببغداد (٣) ابن خلدون ٣ : ١٩٧ (٤) الاغانى ١٧ : ٤٩ (٥) الاغانى ٥ : ٣٨ (٦) الاغانى ١٧ : ١٢٩ (٧) القزوينى ١٢٧

ولما كان الحر يشتد وَهجه فى الزَّوْراء ويفتقر أهلُها إلى رطوبة الماء افتقارَ النفس إلى الهواء قلّ أن يخلو سوق من أسواقهم أو بَنِيَّةٌ من مبانيهم من سِقاية يجرى بها ماء دِجلة ، (١) ولذلك لايسير فيها الرجل إلاّ محفوفا بالشجر المزهر والرياحين (٢) التى يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزَّوْراء كلّها ماء ونماء . ولأهلها فى اقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها عُمُدا مزخرفة من الرُّخام ويعقدون من فوقها قِبابا منقوشة بآيات من الذهب (٣) وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التى تَقَرُّ بها العيون. فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل التَّرَف والترفُّه ، وإذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الارض وأقاموا فيها بالنهار ليكسِروا الحر كما يقولون (٤) .

ولقد عظمت عناية أبى جعفر بهذه المدينة حتى أنهُ أنفق نحوا من أربعة آلاف ألف دينار فى بناء السورين اللذين يحوّطانها والمسجدِ الجامع ودور الخلافة والمجالس التى عقدها فوق أبواب السور الخارجىّ من طاقاتها المعقودة ، وهى أربعة أولُها بابُ خُراسان ويسمى بابَ الدولة لاقبال الدولة العباسية من خُراسان . والثانى بابُ الكوفة وهو تِلقاء الكوفة . والثالث بابُ الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البَصْرة وهوَ بِقرُبة من دِجلة . وقد حمل إليها أبوابَها من واسط والشام (٥) والكوفة على بعد الشُّقة والمَشَقّة . واتخذ الأبواب الداخلة مُزْوَرّة عن الأبواب الخارجة (٦) ولذلك

---

(١) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والاغانى والاتليدى (٢) ياقوت ١ : ٦٨٧
(٣) الاتليدى ٢٢٦ (٤) من ابن خلكان (٥) ابن الاثير ٥ : ٢٣١
(٦) تقويم البلدان ٣٠٣

سميت المدينةُ بالزَّوْراء .

ثم إنّ تناهيَ جمالها بما شاد فيها الأمراء من المبانى التى تقف عندها الغايةُ فى الفخامة والاشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرَفة فانها لكثيرة [(١)] فى الزَّوْراء ، أتيتُ منها على زيارة مسجد فى قنطرة الصَّراة [(٢)] ومسجدٍ بناه عبد الله بن حرب فى الموضع [(٣)] المعروف بالحربية . ومسجدٍ أقامه أمير من آل قَحْطبة فى شارع المحرم ، [(٤)] وآخر بنتــه الخيزُران زوجُ ولىّ العهد فى الخيزُرانية ، [(٥)] وهو فائق الحسن وفيه أكثرُ من ثلثمائة قنديلٍ من الفضة والذهب ، وصحنُه من حجارة سود شديدةِ البصيص تصف الأشخاص كالمرآة ، وعلى حيطانه صور تفاحاتٍ وثمار وغصون تخيِّل للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . فى روض باه باهر . ورأيت العمَلة قد حاكَوْا فيها رسوم الأعاجم على انسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم الرائى أنها بُسُط مُحِلت من طبَرِستان ، ولا فرقَ بينها إلاّ فرقُ ما بين الصوف والحجر ، وليس فى مساجد الزَّوْراء مثلُه فى الزينة إلاّ مسجد بناه أبو جعفر فى شارع دُجَيْل [(٦)] مما يلى باب الأنبار [(٧)] والمسجد الجامع الذى بجوار دور الخلافة .

---

(١) ذكر القرمانى وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام (٢) موضع ببغداد ذكره ابن الاثير ٦ : ١١٧ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ و ٣٨٨ (٤) ذكره الاغانى ٥ : ١٢٦ (٥) ذكره ابن الاثير ٦ : ١٠١ (٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨ (٧) ذكره ابن الاثير ٦ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

فى تقربى من رجال الدولة

ولقد لَقِيتُ فى الزَّوْراء جماعة من الأمراء المقدَّمين فى الدولة غير أنى انقطعت إلى خدمة ملوكنا البرامكةِ وملازمةِ بابهم فى البكور والرواح ، إذ كانوا أصحابَ فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمّنى وإياهم فى أوثق جبال الانس والائتلاف . وتقربت بكفالتهم إلى مَعْن بن زائدة الشَّيْبانى ورَوْح بن حاتم المهلَّبى وهما أعظمُ رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلَّب أكثر منى تقربا إلى شَيْبان (١) وان كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلاّ أن مَعْناً كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمُهم فى مراتب الدولة وهم أغرابٌ عن العرب ، وذلك لم يكن فى آل المهلَّب فانهم كانوا مع البرامكة على خُلْطة ومودّة واتصال .

وأقربُ الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرُنا لقيامه بثِقْل الدعوة فى خُراسان من قبل أبى مسلم الخُراسانى . وهو من أولاد الملوك لم يبلُغ أحد مبلَغه فى رأيه وعامه وبأسه وجوده وجميع خلاله ، (٢) والمنصور لا يُبرم أمْرا إلاّ بمَشُورته ، ولا يركَن فى أعماله إلى أحد سواه اللهم إلاّ فى سياسته مع العلَويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالدا ميّال إليهم منذ أخذ فى الدعوة الإمامية بخُراسان ، وهى إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلَّبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأىُ المقدَّم عندهم والإمْرةُ

---

(١) يقول ابن الاثير ٦ : ٥١ ان شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودى ٢ : ٢٢٢

المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآلُ قَحْطَبَة من القوّاد الذين نصروا العباسيين على بنى أمية ثم انضافوا إلى جملة أبى جعفر بعد الفُرْقة بينه وبين العلوية رغبةً عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مديحهم بالقصائد التى تعظُم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسهم. كقول المغيرة بن حبناء

أمسى العباد لعمرى لاغِياثَ لهم ... إلاّ المهلّبُ بعـــد الله والمطرُ
هذا يذود ويحمى عن ديارهمُ ... وذا يعيش به الأَنعام والشجرُ

وأما معن فانه أمير شَيْبان كلّهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خِلال العرب الحِسان إلاّ أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحيّر فى نعته اللسان . وشَيْبان من بيوتات العرب فى قريش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن . (١) وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دُعاتهم وأبلى مع بنى مَرْوان بلاء حسنا ، فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيـه به مالا جزيلا فلم يظفَـر به لأنه كان مقيما فى البادية كما يقال ، (٢) ثم إنه رجع إلى

(١) الاغانى ١٧ : ١٠٥ (٢) قد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها هنا لنكتة فكاهية تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والكلام فيها لمعن يقول كنت قد اضطررت لشدة الطلب الى أن أقيم فى الشمس حتى لوحت وجهى وخففت عارضى ولحيتى فلبست جبـة صوف عريضة وركبت جمـلا من الجمال النقالة لأمضى الى البادية فأقيم بها فلمـا خرجت من باب حرب تبعنى أسود متقلدا سـيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعـيرى فأناخـه وقبض على فقلت له مالك قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن ابن زائدة فقلت ياهـذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فأنى والله لأعرف بك منـك فلت ان كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى يفى بأضـــعاف ما بذله أمير

الهاشمية [1] متلثما ووافق يومُ وصوله قيامَ الروَاندية على الخليفة فى الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الخِناق ، فكان ممن يجد فى ذلك اليوم وسيلةً لهلاك أبى جعفر بانضمامه إلى العدو وبعد أن بدت له مقاتله ، ولكن أبت مروءتُه إلاّ أن يكون الحلمُ فى نفسه طبيعةً تجِلّه عن مطامع الأخساء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبوجعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبته بين حَرَس على رأسه وحَفَدة بين يديه ، [2] وفى حضرته جماعة من الأدباء النُّدْمان قد خاضوا فى حديث الشيعة فى خُراسان . وأخذوا يتناقلون خبرَها من غير نقد ولا إمعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها إلاّ رجلا من شَبّان بليغ الفطنة يقال

المؤمنين لمن جاءه بى نخذه ولا تسفك دمى قال هاته فأخرجته اليه فنظر اليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتنى أطلقتك فقلت له قل قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرنى هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أنى قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راجل ورزقى من أمير المؤمنين عشرون درهما فى الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ثم رمى العقد فى حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت ياهذا والله قد فضحتنى ولسفك دمى أهون على مما فعلت نخذ مادفعت اليك فانى عنه لغنى فضحك ثم قال أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يجيء به ماشاء فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعته . ابن خلكان ٢ : ١٦٠ والأغانى ٩ : ٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

(١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد.

(٢) الابشيهى ٢ : ٣٠٩ والاتليدى ١٠٩

له محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خُيِّل لسامعه أنّ القرآن نزل بلغته ، [1] فكان يرى لنكبة أبى مسلم رحمه الله السببَ الذى لم يفطُن له أحد من هؤلاء الجلاّس ، فانه لم يتحقق لدىّ مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لِمَا كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة فى الكُتُب التى كان يبعَث بها إليه ولا لافراطه فى القتل ، وإنما نكَبَ أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علِم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صمّاء تعصف ريحُها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفى نفسه أن يفتِكَ به على غِرّة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبى جعفر ومما كان من استصحابه للجنود فى سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدى الخليفة جماعةٌ من حيث لا يدرى فاعتوَروه بالسيوف ومَعْن يعلم هذا كلَّه ولكن لا يقوله إجلالاً لأمير المؤمنين .

وأمّا ما يقولون من أنه خامل السُلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صحّ ادعاؤُهم ما منع من أن تكون به خصال لا تُرَى فى عامة الناس ، فانك لتَعلم أنه مَلَكَ خُراسان[2] وهو ابن تِسْعَ عَشْرَةَ سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثلِه الحكماء ، وكان ثَبْتَ الجَنان إذا جاءته الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب ، [3] وكان

---

(١) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ١ : ٦٤٧ والخميس ٢ : ٣٣٣

(٢) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٩٨

أقلّ الملوك طمعاً [1] وأبعدَهم بين الناس شهرة ، حتى كان اذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق فى المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجالُ عندى ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول . الاسكندر الرومى . وأرْدَشِيرُ الفارسى . وأبو مسلم الخراسانى .

لُمْعة من أخبار أبى جعفر

ومن المقرَّبين إلى أبى جعفر غير من لَقيته من الأمراء المقدَّم ذكرُهم الربيعُ بن يونس حاجبُه ومولاه ، وهو حَظِيّ عنده ومكين لديه إذ أنه مقدَّم على الموالى ، وهم المقدَّمون فى هذه الدولة، لبلائهم مع يزيد بن المهلَّب، على ملوك بنى أمية بجُرْجان [2] وما إليها من البُلْدان ولاستمرار أبى جعفر على تقديمهم فى الرياسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يجد عليهم أشدّ مما يجد على بنى أمية

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدّم الأعراب [3] فى مراتب الدولة إلاّ بما هو مطبوع فى نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينتَه إلاّ الخوفُ من أهل الكوفة أن يُفسدوا جنده ويحملوهم على مناصرة أهل البيت ، فجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها إلاّ بعد ما أعلمه نَوْبَخْتُ بسلامتها من الأعداء ، ولما فشت فيها العمارة وجَمَعت أخلاطَ الناس خاف قيامَ العدوّ عليه فأقفل الدروب بالليل ، [4] وأقام عليها الحراس وحوّل

---

(١) أبو الفرج ٢١٦ (٢) الأغانى ٩ : ٢١ (٣) ابن الاثير ٦
(٤) الاغانى ٧ : ٣٤

الأسواق إلى جهة الكَرْخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتهم ، وشرع قومُه يقولون إنّ رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لمّا وفد عليه كيف وجدتَ بلدَنا أيها الرسول ؟[1] فقال إنى رأيته أعزّ على الطالب من بيض الأنوق بيدَ أنى رأيت الغريب يطرُقه ويبيت فيه ، وربما كان فيهم العينُ والجاسوس . وهذا كلام فيه بعض المبالغة عندى لأن من أبناه الخوف مدينة حوّطها بسور بل سورين[2] وحفر بعدهما خندقاً بعيدَ المهوَى غنىٌ بما فى نفسه من الخوف عن أن يخوِّفه أحد كيدَ العيون ومِحالهم .

ثم إنا لنجد له هذا التيقُظ فى البخل الذى ليس هو فيه عن لؤم[3] يُغلّ يده عن الخير ، لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألفُ ألف درهم ،[4] وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات ، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافةَ أن يقع ماله فى يد المتربصين به من المخالفين ، كما أنه أقلّ من أعْطيةِ الجند ليأمَن عصيانهم[5] واستغناءهم عنه ، كأنه يعمل بالمثل السائر الذى يقول جوِّع كلبك يتبعك ،[6] وإلاّ فانا لا نرى هباتِه إلاّ لمن هو خِلْو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وان كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم ، وذلك لما نعلم من خروج[7]

---

(١) ابن الاثير ٥ : ٢٣١ (٢) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودى ٢ : ٣٨٧
(٣) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل فى أبى جعفر معروف ومتفق عليه (٤) المسعودى ٢ : ١٩٤ والمستطرف ١ : ٢٠٠ (٥) فى ابن الاثير ٦ : ٥ ان المنصور عرض جنده فى السلاح وهو لابس درعاً وبيضة (٦) الفخرى ٦٩ (٧) الاغانى ١٣ : ٩١ وفى العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال له أن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم

الشعراء فى أيامه من الحضرة إلى غير وجهة يسترفدون بها صلتهم .

وأما دليل تخوفه من وُلاة الأقاليم فكونه يذكى عليهم العيون ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ فى الامارة قدمُهم ثم يستولى على مايصل إليه من أموالهم ويجعله فى بيت سماه بيت مال المظالم(١) حتى يقعدهم عن القيام عليه فى ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حبًّا فى جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه بخل ناشىء عن رأى له فى السياسة ما حنق على معن حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهّل من أمرهم ما حزُن(٢) ، كما أنه لو طمع فى حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى أربابها فى كلام من الوصية يقول فيه(٣) إنى لأحُضك يومَ تُدركنى الوفاة أن تدعو من أخذت ماله وتردّه عليه ، فانك ستُحْمَد بذلك إليهم ، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى ما رأيت الوفاء طبيعة إلا فى الموالى والأعراب .

ثم إنه طمح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس تثقيلا على التجار ، فوضع على الحوانيت خَراجاً(٤) لم يسبق له عهد فى الاسلام .

هذا نَزْر يسير من أخبار أبى جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى يدعوه إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر فى السياسة وربما جاريتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية محمدَ بن عبد الله بنِ حسن بن الحسين رضى الله عنهم وقتل أخاه ابراهيم بن

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٩ (٣) الفخرى ١٨٧ وابن الاثير ٦ : ١٢ (٤) المقريزى ١ : ١٠٣

عبد الله وكلاهما بَراء من الذنوب ، ولست أرى لأبى جعفر فيما وقع له من الظفَر بهما على سبيل الاتفاق وجهاً تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلويين إلى هذا اليوم انما نشأ عن تفرق دُعاتهم على أغراض ، لم تجمعهم غاية واحدة فى جميع البُلْدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفرداً إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرَّفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأنُ الأمويين فى مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعاتهم الى الوَحْدة وأثاروا العراق وخُراسان والحجاز فى غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله فى اظهار الدعوة الامامية لأعاد الله إليهم الخلافة التى غلبهم عليها الأمويون ، وهم الذين عُرفت لهم الفضائل التى لا يستطيع المكابرون من أعدائهم[1] انكارَهَا ، والله يؤتى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين

وبما حدّثنى لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قولُه ما فى نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياع حقوقهم ، وقد كنت استزدته الحديثَ عن أخبار العرب وأيامهم فحدثنى عن فتوح الاسلام خبراً أحببت أن أسرُده

(١) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بنى أمية ان الذين حولنا لو يعلمون من علىّ ما نعلم لتفرقوا عنا الى أولاده . ابن الاثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوماً يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قتلة الحسين بن على رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له انك لا تجتمع أنت وهو فى مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئاً . ابن الاثير ٤ : ٢٣٩

إليك فى هذا الكتاب ، وأسلك فيه سبيل الاطناب ، ليكون فخراً للأعراب ، باقياً إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليُجيرهم من الملمات التى وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم فى الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحِّدين المقرِّين بالخالق المصدِّقين بالبعث الموقنين بالثواب فى الآخرة إلاّ نفر قليل ،(١) فجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها تماثيل آلهة(٢) وتركوا عبادة الأله الواجب الوجود ، من يَهْدِ اللهُ فهو المهتد ومن يُضْلل فلن تجدَ له وليّاً مُرشداً(٣) .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مأموراً فى بدء رسالته بأن يدعوَ العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحى بدعوة الناس كافةً إليه ، فلما قُبِض صلى الله عليه وسلم وهو مشكورٌ سعيُه مرفوعٌ منزلتُه انقبضت نفوس العرب و باتوا فى موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا فى ولاية أحد من بعده يُطلق يدَه فى الأمر بما يشاء ، وعهدُهم قريبٌ بالجَاهلية من تباين الميول والأهواء ، فلما رأَوْا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بُعدَهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسَهم من الخلافة السلوكَ فى سنة الله و رسوله دون شىء آخر من حاجات الدنيا إلاّ هدايةَ الناس ، اجتمعوا على كتاب الله أمةً واحدة فى دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم وابتزّوا الأعاجمَ سلطانَهم وحازوا مُعظم العالم فى شرق وغرب .

وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدّوا على الحصون والقِلاع . وترامَوْا

---

(١) المسعودى ١ : ٢٣٩ (٢) المقدمة ٣١١ (٣) سورة الكهف

على ممالك الحَضَر، واقتحموا المشاقّ والغَرَر، بما حضّهم عليه الكتاب من الجهاد، ولأن المائت منهم فى ساحة الحَمَلات، شهيدٌ له فى دار الخُلْد جنات. وعدهم الله تعالى ذلك بقوله « ومن يخرجْ من بيته مُهاجراً إلى الله ورسولِه ثم يُدْرِكْه الموتُ فقد وقع أجرُه على الله »، [1] فلما ندبهم أبو بكر رضى الله عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم[2] وَوَلَدهم وبُيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون، وعلى وجوههم سِمات الفرح والابتهاج، [3] كأنما النصرُ محقق فى النفوس صِرْفًا بغير مِزاج. ويقال إنّ الشيوخ الفانية قد قدِموا مع أولادِهم ليطئوا الأرض التى وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم، حتى اذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أنْ لِمَ أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأنْ ليس لكم عزم ولا فيكم بقية، فقالوا قدِمنا يا خليفةَ الرسول رغبةً فى ثواب الله وحباً فى فاكهة الشام واستعذاباً لمائه الزُلال، [4] فتفاءل منهم بالخير، وقال إن ربكم يُعطى النصرَ العزيزَ لمن يشاء. فاذا كان هذا عزمَ المَسَانّ وإقدامَهم فما الظنُّ ببسالة الفِتيان الذين هم ضرّاب السيوف، [5] وشُرّاب الحُتوف؟ فان تنظر إلى ما تعرف لهم من الأشعار. ويُروى عنهم من الأخبار. تجدْ أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخارَ. وتستدل على أن قوّتهم فى مهاجمة الديار. أشدُّ من عدوٍ تمنعه القلاع والأسوار...

ومما حفِظ هذه الفتوحَ للمسلمين أنّ البُلْدان التى دخلت فى حَوْزتهم لم تُبْد اشارةَ ثورة ولا أمارة فتنة، لأنها كانت قبل ذلك فى سلطان الفرس أو الروم

---

(١) سورة النساء (٢) ياقوت ٤ : ٣٢٤ (٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدى (٥) ذكر الطرطوشى ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التى على رأسه

فاستوَى لديها أن يحكمها كِسْرَى أو أمير المؤمنين . وربما مالت إلى عُمّال الخلفاء أكثرَ من ميلها إلى عُمّال الروم لِمَا وجدت قِبَلهم من وفور العدل والقيـامِ على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وحرَّضوا على التشبُّث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الامارة من أجل أنه أراد أن ينقُض الأمانَ الذى أعطاه أبو عبيدة المعروفُ بأمين الأمة لأهل دِمَشْق ، إذ دخل مدينتهم صلحاً ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثالُ هذه الرِعاية المنصفـةِ كثيرةٌ فى سِيَر الخلفاء ، وكانوا إذا أوصَوْا عمالهم باستعمال العـدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الـكثير قالوا لهم « إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوةٌ ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعُدّتنا دون عُدّتهم ، فان استوينـا فى المعصية كان لهم الفضلُ علينا بالقوة ، وإلاّ نُنْصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » فيظهر لك أنه إنما عمّ الاسلام بما عدل الخلفـاء الراشدون رضى الله عنهم فى زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التى ذهبت فضائلُها مثلاً بين الناس ، حتى إن الخلق الـكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالاسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلاّ لما يسمعونه من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمرى إنه لولا انقلاب خلافة الملّة إلى مُلْك فى يد الأمويين ما بعُد أن يعمَّ الاسلام العَالَمَ بأسره ، والله تعالى أعلمُ بالغيب ، وله فى قضائه حِكْمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر فى اتساع الفتوح وحفظها فى يد المسلمين ، والاعاجمُ يعلمون ذلك ولـكنهم يقولون إنّ الاسلام غلب أمماً لا مدنيةَ عندها ولا نظامَ لملكها فقوِيَ عليهـا . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أنّ

فارس كانت من أضخم الدول سلطاناً ، وأبعدها فى الحكمة أعراقاً ، فلم يصعُب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غَلَب الروم فى الشام ، وهم بمكان من المدنية لايرام . ولست أقول إلاّ أنه لمّا نشأ الاسلام كانت القياصرة فى ضعف وانحلال ، وكان الفُرْس يمزقهم ظلمُ العمّال . فكان ذلك داعياً إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الاسلامَ اخفاق فى عهد الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأى وحكمة السياسة . فلم تُهْزَم للاسلام رايةٌ فى أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علىّ عليه السلام فذهبت سَذاجة الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى المُلْك ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنةً ثم تصير مُلْكا عَضُوضاً) ولله فى خلقه شؤون ، وهو يقدّر الليلَ والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة فى أول يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرّفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

لقائى ولىّ العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولىّ العهد ، فإنا لفى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الاسلام ، إذ دخل علينا البيتَ خادم من خدم الخليفة فتخوّف الفقيه من شىء لم أدر ماهو ، وكذلك الناسُ يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعِد ، [1] فقال له أبو يوسف سبق وهمى إلى أنك تطلبنى لأمر جَلَل ، قال أَجَلْ إن الأمير

---

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ

يدعوك الساعةَ إليه لأمر أقلقه الليلَ كله ، ولم يجرِ فى خاطر أحد من العلماء التصرفُ فى وجه يكون به كشفُ الغمة وتحقيقُ المسئول ، فدعا خالدَ بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبى حنيفة وما فيهم أحفظُ لعلمه من أبى يوسف(١)

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبرَ فأعلمه أنّ الأمير حنِق على الخيزُران أم أولاده ليلا ، وقال لها فى سَوْرة الغضب أنتِ طالق ثلاثاً إنْ بتِّ الليلةَ فى مملكة أبى ، فلما سكن غضبه ووجدها بَراءً من التُّهَمَة راعه أمرُ الطلاق فاستدعى الأعيانَ والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الافتاء الذى يطيب به نفساً ، ففكّر أبو يوسف بُرْهة فلم يفتح الله عليه بشىء .

وكنت فى ذلك الوقت أجيل الفكرةَ فى أمر الخيزُران وأذكر مآثرها فى الدولة وذلك المسجدَ الذى زينت به الزَّوْراء ، فوقع فى نفسى ما يكشِف هذه المهمة ، فقلت لأبى يوسف إنّ المساجدَ بُيوتُ عبادةِ الله تعالى ، ولا تدخل فى مُلْك أحد ، فلو بات الأمير فيها الليلةَ ما حسبتُه يبيت فى مملكة أبيه ، فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننتُ واللهِ أن إعمال الفكرة فى مثل هذا التخلص الجميل جَهْدٌ من غير تحصيل . وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذ ابتدعت هذا الرأى الميمونَ فعلىّ عهد الله لأذكرنّك عند الأمير ليقرّبك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسَب للأمير مَسَرّة عظيمة مما رزقنى الحظُ استنباطه ليكون فى حِلٍّ من يمينه ومَبَرَّةٍ له من قَسَمه .

---

(١) الشريشى ٢ : ٣٦٧

فلم تكن إلاّ ساعةٌ حتى عاد إلىّ نُصَيْرٌ ذلك الحاجبُ قائلا [١] أجب الأمير، فقمتُ لساعتى أمتثل الأمر، فلما صرت فى باب الدار وجدت جماعة من الغِلْمان قد أعدّوا لى بغلة فارهة من مطايا الأمير مجلَّلةً بالديباج، عليها حِلْيَــة من الفضة، فركبت وسار الغلمان بين يدىّ حتى وصلنا إلى دور الخلافة، وقد كان أخبرنى نُصَيْر عما جرى بين الأمير وأبى يوسف من الحديث، وأنه لمّا مَثَل بين يديه كاد يعدِل عن استفتائه ظنّاً منه أنْ لا يكونُ من فتواه جَدْوَى، « والخلفاء وأولادُهم يبدءون الناسَ بالكلام وايس للناس أن يفتتحوه معهم » [٢]، فلما استطلعه رأيَه فيما أهمّه من الأمر وذكر له الرأىَ الذى تقدّمتُ به إليه غلب عليــه السرورُ حتّى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله ؟ فقال له أبو يوسف لا واللهِ وإنما قائلٌ هذا صديقٌ لى من أبناء الفرس وأخذ يذكُرُنى عنده بما استطاع من جميل الكلام.

فلما أقبلنــا على دور الخلافة جُزْنا بابَ السور الكبير وسلكنا ممراً مفروشاً بالحصْباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتُّخِذَ فيهــا أحواضٌ يتصعّد منها الماء وعليها عُمُد من الرُخام تُقِلُّ قباباً مُغشّاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب. ورأينا فى طَرَف هذه الجِنَــان صُنّاعاً يرفعون [٣] قصراً سماه أبو جعفر قصرَ الخُلْد [٤] وأضافه إلى قصر السـلام [٥] الذى يسكنه فى هذه الأيام، فانتهينا من هذا الممر إلى باب القصر، وهو معقود

(١) ذكره الأغانى ٣ : ٥٧ والعقد الفريد ٢ : ٩٩ (٢) ابن خلكان ١ : ٣١
(٣) الأغانى وابن الاثير ٦ : ٥ (٤) القزوينى ٢١٠ (٥) الأغانى ٩ : ٤٥ والسيوطى.

تحت القبة التى كانت مزينة فى عيد الفطر، وهى عَلَم الزَّوْراء ومأثُرةُ بنى العباس، فلما جاوزناه انتهينا إلى دار مسوَّرة بالعُمُد وبها مقاصير منجَّدة أرضُها وحيطانها بالأرمنىّ، (١) وفى أطرافها دِهْليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتُّخِذت فى قباب بديعة الشكل حافلةِ الزينة، فجزناه فاذا نحن فى دار أفسحَ من الدار الأولى، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب، (٢) وفيها كثير من العُمُد التى يوجِّه الخلفاء عنايتَهم إلى تزيينها بالرسوم والأكثار منها فيما يبنون من القصور، حتى إنى عددت فى صحن من صحون دور الخلافة سبعاً وأربعين سارية لو أنّ ثمانين غلاماً وقفوا وراءها ما رآهم من هو فى صدر الدار.

ثم انتهينا من هذا الدهليز إلى سُلَّم من الرُخام ينتهى بالراق (٣) عليه إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلساً قد فُرِش بالرُخام المجزَّع، وبين كل رخامة قضيبٌ من الذهب يشدُّ بعضَها إلى بعض، (٤) وقد اتخذ فرشُه من الديباج والبُسُط الطبَرِيّة (٥) عليها أبيات (٦) فى مدح الأمير، وفيه كراسىّ مرصعةٌ بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأنّ على رءوسهم الطير، (٧) وفى صدرهم الأمير جالساً فى قبة قد اتُّخِذ لها فرشٌ مبطَّن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبرِيسَم (٨) وإذا به أسمرُ طويلُ القامة معتدل الخَلْق مليح الشكل جَعْد الشعر، بعينه اليمنى نُكْتَة بياض، وعلى

---

(١) الأغانى ٥ ١٧٣ والاتليدى ٢٢٦ (٢) الاتليدى ١٤٦ (٣) فى الأغانى ٦ : ٧٨ ما يشير الى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة (٤) الأغانى ٥ : ١٦٦ (٥) المسعودى ٢ : ٨٢ والأغانى ٥ : ٥٩ و ١٢٨ (٦) الكتابة على البسط مذكورة فى الأغانى ٥ : ٨٦ (٧) الفخرى ٥ (٨) المسعودى ١ : ٢٣٤

رأسه خصيٌ واقف بالمِظَلَّة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهلِ بيته ومن يستميلهم الناسُ بالمال الكثير ليذكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم .

فلما أقبلت على المجلس غلبني البُهْر من جلالة المهديّ فسلّمت عليه بالامارة فردّ عليّ السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حسِب لي عليه من المِنّة ، وقال لي إنه يأنس بي ويحب أن يصيّر إليّ تأديبَ ولديه موسى وهارون لِمَا بلغه عني من العقل ، فدنوتُ من كرسيّه وقبّلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة إنك قد جعلت لي بهذا شرفاً لم ينله أحد قبلي من العلماء ، فقال لي أحسن الله عنا جزاءك ، فما الكثيرُ من فعلنا بك بجزاءٍ لليسير من حقك ،[١] ثم إنه دعا أبان بنَ صدقة كاتبَه فوقف بين يديه ،[٢] فقال له اكتُب له بدارنا على دِجلة ، وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلّتُه على السَّعة ، ثم أمر لأبي يوسف بخمسين ألف درهم معجَّلة ،[٣] وكان هذا أولَ اتصالي بوليّ العهد أصلحه الله وتولى عني مكافأته بما هو واسع من الجميل .

في تأديبي الأميرين وما توالى عليّ من نعمة بني العباسَ

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزُران وقد كانت في دار لها تسمى باساس[٤] عادت إلى دور الخلافة في موكِب عظيم من الغِلْمان المزيّنة والخيلِ عليها القطوعُ من الديباج والحِلْيةُ الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأُبّهة

(١) الأغاني ٩ : ٣٠   (٢) المسعودي ٢ : ١٨٢   (٣) الأغاني ٣ : ٩٥
(٤) المسعودي ٢ : ١٩٦

مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير فى ذلك اليوم مأدُبة صرف فى زخرفتها وُسْعَه ، وجلس فيها لعطاء قريش(١) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءنى من لدن الأمير من ينطلق بى إلى الدار التى وهبها لى على دِجْلة ، فاذا هى مشيَّدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقِباب مُخَرَّمة ، ولها رَوْشَن(٢) بديع الحسن يُشْرف على دِجْلة وما وراءها من الرُّصافة ، وفيها من السُّدول والأستار الحريرية والبُسُط الديباجية والقماقم النُّحاسية والآنية المزخرفة والخزائن(٣) المجزَّعة ما ليس مثلهُ إلاّ فى أمتعة الملوك وجلسائهم مما(٤) يتكرمون به عليهم فى سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التى تُدَقّ بجانب الباب ليعلَّق فيها الداخل(٥) ما ثقُل عليه من ثيابه متخَذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزَّلة بالذهب تمثِّل ثِماراً تجتنى بالأبصار لحسنها ولفرط ما أبدع فيها الممثِّل من الصناعة .

ثم جاءنى من لدُن الخيزُران خادمان للمهدىّ لم تكن نوبتهما(٦) فى ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعا بين يدىّ إناءين من الذهب فى أحدهما منشور(٧) بضَيْعة فى السواد وفى الآخر مِخْنقَة فى وسطها دُرّة عن يمينها ويسارها أربعُ يواقيت وأربع زُمُرُّدات بينها كثير من شذور الذهب،(٨) ثم جاءنى وصيف آخر للمهدىّ أكرمه الله يحمل إلىّ رُقْعةً بالضَيْعة التى سبق لى بها العطاء وهى فى السواد من جوار الحِيرة يقال لها العُمَرية ،(٩)

(١) الأغانى ٧ : ٩ (٢) الأغانى ٥ : ١٠ (٣) الأغانى ٥ : ١٠٩
(٤) الأغانى ٥ : ٤٠ (٥) الأغانى ٤ : ٥٢ (٦) الأغانى ٣ : ١٨٤
(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣ (٨) الأغانى ٧ : ٣٦ (٩) ذكرها الأغانى ٩ : ١٠٢

ثم بعده وصيف لأم المهديّ وهي بنت منصور الحِمْيَرية ومعه إناء من ذهب قد انتثرت عليه اللآلئ ، [1] ثم وفد للغالية أختِه ومعهم جام[2] فيه دنانير وخاتَم من العقيق قد رُسِمت فيه أمُّ القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسَبه من محاسن الأشياء التى لا تكون إلاّ عند الملوك ، فهطلت علىّ النعمةُ غيثاً من الذهب ، وليس ذلك إلاّ لأنى وجدت منصَرَفاً فى القول لحلّ تلك اليمين .

وأخذت من ذلك اليوم فى تأديب الأميرين موسى وهرون بما أحبّ أبوهما وأوصانى به يحيى بنُ خالد وزيرُنا ، ولكن كنت إلى الصغير أميلَ منى إلى الكبير لِما وجدت من انصبابه على المطالعة [3] واعتباره بأقوال الحكماء ، ووددت أن يكون هو السابقَ فى الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لِما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد . لأنى رأيت الكبير صعبَ المرام شَكِس الأخلاق ، وقد عرفت ذلك ذاتَ يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعتُه فيه رأيَه حرد علىّ وطار طائرُه من الغيظ ، لحفظت له ذلك وأخذت أشغَله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به ، فسُرّ لذلك وأوسعنى عما بدَر منه فى وقت الحِدّة اعتذاراً ، فعرَفت من ذلك أنه صعبُ المرام[5] وأن من توقاه وعرَف أخلاقه دخل فى رضاه، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطّرحه وأقصاه ، [6] وهذا كما ترى خُلُق غيرُ محمود فى أولاد الملوك الذين يتجافَوْن عن الحكماء والوُعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم

---

(١) ٦ : ١٣٣ (٢) ابن خلكان ٢ : ٤٥٥ (٣) الفخرى ٢٣٠

(٤) المسعودى ٢ : ٢٠٢ (٥) الأغانى ٥ : ١٦

من الخلال ، فان ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

أمّا هرون رعاه الله فانى عرفت فيــه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم فى عينىّ منزلته ، ولم أر فى أولاد الملوك أجملَ منه خَلْقاً وخُلُقاً ، وفيــه مماثلةٌ للفضل بن يحى بن خالد فى الصورة ، وهما فى سنّ واحدة ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدى واحد[1] فكانت أم الفضل تُرضع هرون والخيزُران تُرضع الفضلَ ، وهو أبيضُ[2] اللون واسع العينين عالى الجبهة منطوٍ على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من أمر لم يستفزّه الغضب ولا يزيد على هاه هاه[3] كلمةَ غيظٍ واحدةً ، وأنا أتشرف بتأديبه[4] إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة ، وقد أتى عليه من العُمُر أربعةَ عَشَرَ عاماً أصلحه الله ووفقه إلى مابه من صلاح الملّة والدولة بمن الله وكرمه .

ولست أكتم عنك أنه لما صارت إلىّ نعمة بنى العباس تحدّث الناسُ

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفى الفخرى ان من بعض ما قيل فى مديح الفضل بن يحيى قولهم

كفى لك فخراً أن أكرم حرة   غذتك بثدى والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخميس ٢ : ٣٣١ (٣) الأغانى ٥ : ٦٦ (٤) قال فى مروج الذهب انه لما أسلم المهدى ولديه الهادى والرشيد الى المؤدب أوعز اليه أن يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار ويرويهما الأشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكماء فى مواعظهم ويبصرهما بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك الا فى أوقاته ويأخذهما بتعظيم الأمراء من بنى هاشم ورفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة الا وهو يغتنم فيها فائدة يفيدها إياها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع فى مسامحتهما فيستحليا الفراغ ويألفاه وأن يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أبياها فعليه بالشدة والغلظة .

بها كثيراً فى الحضرة ، وأحدثت فى النفوس غُصَصاً يُثيرها الإشفاق على دولتهم من المهدىّ أن يجرىَ على سنّة أبيه فى تقديم الأعراب عليهم فى المراتب إلى أن تخلوَ منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدّى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فانما يعظُم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه فى غرض واحد حتى تشتدّ صولتُه وتروجَ فيه سوق الأدب بما يوجده له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ماسبق من خوفه من الأمويين إلاّ أن يتجافى عن العرب ويُقصيَهم عن المراتب إلى أن ترسخ فى قبائلهم دولتُه من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين فى فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيته ، وإنما رُزِق من السياسة الحكمةَ فى تقديم الأعرابَ واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يُظهر من الجبروت الذى لا يلتمس فى تمكين مهابته من المخالفين له سواه ، كدأبه فى الانقطاع عن اللهو ، [1] وبعدِه من البَهْرَجة التى تُبعده عن شعائر الملة ، وتوَجّسِه من الناس ريبةً يتهم فيها كثيراً من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلاّس والنُدَماء إلاّ خلْف سِتارة يضرِبها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعاً [2] إلى أمور غيرها تدل على أن مَثَلَه فى التيقظ مَثَلُ الذين يستقلّون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمرُّ بهم زمانُهم فى أشد ما يكون من الخوف والرِيبة .

---

(١) الخميس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطى

بقية من أخبار أبى جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيراً من أخبار أبى جعفر وسياسته فوجدته ينظر(١) فى أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال، فاذا طلع النهار جلس فى إيوانه ونظر فى حال الأمة وعزل الوُلاة الذين يَريبه منهم مخالفته، ونصب(٢) من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابةُ والفطانة مكانهم، لا يزال آخذاً فى ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قُبَيْل الظهر، فاذا تناول الغداء عاد إلى النظر فى المصالح والاهتمام بأمر الجند، فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرَهم، فاذا صلى العِشاء نظر فى كتب العُمّال مما تجمع فى النهار وشاور(٣) من يركَن إليه من سُمّاره، تلك عادتُه من يوم وَلىَ الخلافة.

وإن تذكر رعاك الله ما وصفته لك من تحوله فى الرسالة السالفة ثم تُضِف إلى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة تتمثلْ لك صورتُه بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التى أفنى فيها عمرَه وطال منها عناؤه، فانّ أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والتياثِ الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يُوجد الفُرْقةَ فيهم بين مضر وربيعة والخراسانيّة(٤) ليملك بعضَهم بالذى هو واجد على الآخرين، فترى أنّ ما لَقِى من تصاريف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن بالرعية، فهو لا يركن فى أموره إلاّ إلى وزيرنا خالد أعزه الله، ولولاه ما استوى له الملك بين

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠ (٢) الماوردى ١٣٧ (٣) المسعودى ٢ : ١٨٤

(٤) ابن الاثير ٥ : ٢٣٩

تغلُّبِ الأكراد(١) فى فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البُلْدان .

وقد علمتَ مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد علىّ عليه السلام ، فلما بعُد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد(٢) تمادى أبو جعفر مع وزيره أبى أيوب المورياني(٣) فى سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيمَ وقتلهما على خَنَقٍ كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمُّه عبدُ الله الذى غلب بنى أميّة فى الشأم ، فانه لما أحسّ منه الانحرافَ أسكنه فى قصر بنى أساسه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ،(٤) وهذا من الأمور التى يتناقلها الناس عنه بسوء الأُحْدوثة كما يتناقلون ذِكرَ قتله لأبى مسلم داعيةِ الامامية فى خُراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه فى فارس فالعراق فخُراسان فما بين المسجد الأقصى إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوماً فى هذا الشأن فحدثنى عن جبروت أبى جعفر وأخبرنى أن سَلامة أمَّه لمّا حملت به رأت فى منامها كأنّ سبُعاً زأر فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبُع سجد له(٥) فصحّ تعبيرُ منامها بما يراد من معنى الملك والظَفَر .

ولقد دخلت على أبى جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحِيرة وهى المدينة التى يقصِدها(٦) حين يشتدُّ عليه الحر فى الزَّوْراء ، إذ ليس فى جوارها

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٩ (٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦ : ٦

(٣) المسعودى ٢ : ١٨٢ (٤) الفخرى ١٩٨ وابن الاثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف ١ : ٩٦ (٥) المسعودى (٦) وفى ابن الاثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضاً برهة من الزمان

ما يصلح لسكنى الملوك غيرُها [١] فلما أذِن للناس بالدخول عليه صحبت لسانَ الشريعة أبا يوسف فأصبناه فى مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دُلامة ، وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر [٢] قالهما فى استهجان الزىّ الذى عمّ استعمالُه فى لباس الخواص والعوام كما تقدم ، كأنّهم فى كتابة الآية بين أكتافهم ينبُذون كتاب الله وراء ظهورهم . [٣] فلما أدّينا فروضَ السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لى بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله إنى رأيتكم « بريد الفُرْس » أهلَ وفاء [٤] وفَطانة فوليتكم المناصب فى دولتنا ، ولم أر بنى مَرْوان قد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية فى تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جباراً لا يبالى بما يصنع ، وكان سليمان همُّه بطنُه ، ثم أفضى أمرُهم إلى أولادهم المُترَفين فكان همُّهم الشهوات وركوبَ الملاذ من معاصى الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمْناً منهم لِمكْرِه مع اطّراحهم صيانةَ الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بِمخْصَرة كانت فى يده ، أوقع على بنى أمية ممن حضر المجلس قذفٌ شديد يرومون به موافقةَ فسلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقَهم ويستحلّون الخذ أموالهم بغير استحقاق ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد

(١) الأغانى ٢ : ١٢٥ (٢) البيتان هما قوله

وكنا نرجى من امام زيادة فجاد بطول زاده فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

(٣) العقد الفريد ١ : ٩٨ (٤) ابن الاثير ٦ : ١٢

ما لا طاقةَ لهم به من الضرب والاهانة ، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطّموا زرعهم فى طلب دُرّاج قيمتُه نصفُ درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا القَذْف إلى أن يحثّ الخليفةَ على تتبع الهاربين منهم فى جميع الوجوه ، وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين الذين قالهما سَدِيف لأبى العباس لما تمّ له الغَلَب عليهم .

لايغرنْك ما ترى من رجال   إنّ تحت الضلوع داء دَوِيّا
فضع السيف وارفع السوطَ حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فامتلأ وجه الخليفة غضباً وقال لعمرى إنّ الأمويين أهل مظالم قد غمَطوا النعمة فهوَى نجمُهم وثُلّ عرشُهم ولله فيهم(١) نقمةٌ سأتتبعها فيهم حيث لَقِيتُ منهم عاتياً ، فعجبت من مظاهرته بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمِحال . وأنا لا أقول إن الأمويين منزّهون عن هذا الطعن ولا عن أشدّ منه ولكنى أرى أنهم لو لم يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلاّس بأنكى منه تقرباً من السلطان فيما يحب من القدح فى أعدائه ، وكان ذلك أولَ مالَقيت أبا جعفر ، ثم لم أره بعـــد ذلك لأنه رَكِب(٢) إلى مواطن الحج المباركة شرّفها الله بكرمه وإحسانه .

---

(١) ابن الاثير ٥ : ١٦٧ والقزوينى ١٦   (٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

فى ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة الى الموسم موكب لم يُرَ أحفلُ منه فى مواكب الملوك ، فقد أقبل أهل المدينة الى باب الكوفة [١] حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والخُراسانيين والفُرْس وغيرهم ما لا يُحْصِى عددَه إلاّ الله ، وكلُّهم مجهِّز ابلَه وكُسوته وقِرَبه وخُرْثيَّه وطعامه وهو الأخبصة اليابسة والأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضَّد والفواكه اليابسة وغيرُها من طعام الحاج ، [٢] ومعهم قِطْعة من الجند تحوطهم [٣] فى نزولهم وارتحالهم ، وفى طليعتهم هوادجُ تظلّلها قباب من الديباج المطرَّز بالذهب ، [٤] وفيها يقيم الأمير المولّى على الحُجاج ، وله فى إمارته النظرُ فى أمور عشرة وهى أن يجمعَ الحُجاج فى مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخافَ عليهم التوانى . وأن يرتبهم فى المسير ليعرف كلٌّ منزله ويألَف مكانه اذا أناخوا فى بلد . وأن يرفُق بهم فى المسير حتى لا يعجزَ عنه ضعيفهم ولا يضلَّ عنه منقطِعهم . وأن يسلُك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدَبها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلّت والمراعىَ إذا انقطعت ، وأن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يُخْشَى عليهم ضيقهُ

---

(١) هو من أبواب بغداد (٢) المسعودى ٢ : ٥٦ (٣) الأغانى ٩ : ٦٤

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٧

لأنهم إذا لم يصلوا عرفة فى يوم عرفة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج[١]

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصّت بالناس المواقفُ وضاقت بهم الساحات ضُرب البُوق إيذاناً بركوب الخليفة ، ثم لم يلبَث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة[٢] فى الحلية الثقيلة ، وهو جالس فى هَوْدَج[٣] منزّل بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفى يده قضيب الخلافة وفى الأخرى الخاتم ، وعليه جُبّة وَشْى[٤] من فوقها بُرْدَة خضراء للنبى صلى الله عليه وسلم وهى غيرُ البردة التى كانت لملوك بنى أمية يُلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم ، لأنها فُقِدت بفِقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سُلْمى بأربعين ألف درهم ،[٥] وإنما هذه البُرْدة هى التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الأُبُلّة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار[٦] واتخذها فى شعار الخلافة موضعَ البردة التى كانت عند الأمويين . وأمّا الفِيَلة فانه لم يسبق أحدٌ من ملوك العرب إلى اتخاذها فى المواكب ، وقد أخبرنى نُصَيْر ذلك الخادمُ الذى مضى فى هذه الرسالة ذكرُه أنه إنما اتخذها مركباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكِب الملوك وأمهدَها[٧] . وكان يصحَب أبا جعفر جماعةٌ من

(١) الماوردى ١٨٧ (٢) المقدمة ١٤ (٣) الكشكول (٤) كذ فى العقد الفريد ٣ : ١٥٦ (٥) أبو الفداء ١ : ١٥٦ (٦) السيوطى
(٧) المسعودى ١ : ١٨٥

الأمراء ورجالِ بيت الخلافة ، ووراءهم الأبلُ التي يَظَّعِنُها حريمُه وأهلُ بيته وفيهم موسى بن المهديّ حاجاً ، (١) ومعهم حَرَس خاص بهم يحملون الراياتِ السود .

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحُجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الأسلام ما لا يخالج النفس أعظمُ منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أُبهة الدولة غيرَ حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وَداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية ، (٢) وأن يسألوا الله له النعمة ويوفّقه ويُلهِمَه الرأفةَ بهم . ثم إنه عزم على وليّ العهد أن يصحبه إلى قصر عَبْدَوَيهِ على مسيرة يومين (٣) من الحضرة لتتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسَب من هذا الموسم إتيانَ ما لامردّ له ، وقد كان يرَى في منامه كأنّ نجوماً تهوى من السماء (٤) فيتشاءم من ذلك . فلما نُفِخَ في البوق إيذاناً بالنفير زحف الحُجاج كالبحر المتلاطم الأثباب . كأنّ سفنه الرّكاب . وشرُعها الظُلَلُ المرفوعة والقباب . وفي مقدمتهم هَوْدَج الخليفة قد لمع ذهبُه كأن الشمس ترسل إلى الناس نوراً من جلال الخلافة .

ولمّا كان بعد ذلك عاد المهديّ إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذي يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليومَ في ولايته أشبهَ بنا في ولاية أبيه إلاّ فيما يصير إلينا من العطاء الذي لم تتعوده من أبي جعفر ، وأمّا ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلاّ أن يقتفيَ فيها أثره ،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) السيوطي (٣) أبو الفرج ٢٢٠

(٤) ابن الأثير ٦ : ٦

وقد أوصاه وهو يودّعه فى قصر عَبْدَويهِ الوصيةَ التى هى من أحسن ما أوصى الملوكُ به أولادَهم فى السياسة ، بدأ فيها بتحريضه[1] على سَكَن الزَّوْراء وألاّ يستبدل بها غيرها ، وأن يُظهر كرامة أهل بيته[2] ويُحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهلُ خُراسان اذ كانوا شيعتَهم وأنصارَهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم[3] وألاّ يستعين بأحد من بنى سُلَيْم (خوفاً من ميلهم مع أهل البيت) ، وأن يحفظ النبى صلى الله عليه وسلم فى أمَّته ويلزم حدود الله والآدميين ويعفّ عن البغى الذى لا حاجة به إليه مع ما خلّفه له من المال ، وأن يشحَن الثغور ويضبط الأطراف ويُعِدّ الكُراع والرجال ويسيء الظن بالعُمّال ، وألاّ يُدخلَ النساء فى أمره[4] ولا ينام إلاّ وهو مستيقظ إلى آخر ما أطال به فى هذه الوصية التى ذهبت مثلا بين وصايا الملوك .

فى ذكر من لقيته من الشعراء

يحسُن بى فى ختام هذه الرسالة ، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولةُ أبى جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ، ولكن بايجاز يدلُّ على موضعهم من الإجادة فى مذاهبهم ، دون إطناب ينتهى إلى مالا تَسَعه الصحف من ذكر أبياتهم ونوادرهم . فأبدأ منهم بذكر بَشّار بن بُرْد البصرى وهو ضرير قد لقِيته فى مجالس البرامكة[5] لأول قدومى إلى الزَّوْراء وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يُطلق علىّ اسمَ الزائر ويُبطل عنى اسم

(١) ابن الاثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٢ : ٧ (٢) أبو الفرج ٢٢٠ (٣) العقد الفريد (٤) الفخرى ٤٨ (٥) الأغانى ٣ : ٣٦

السائل الذى كان يُنْعَت به الغرباء فى ذلك الوقت[1] لقوله لى إنى والله لأحب اسم السائل إلا لطلاّب الاحسان، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسَمَّى به أمثال هؤلاء المؤمّلين، لأن فيهم الأحرارَ والأشرافَ ومن لعله خيرٌ ممن يقصد وأفضلُ أدباً ولكنا نسميهم الزوارَ، فوجد بشار لنفسه نصيباً من كلام الوزير فأطلق لسانه فى الانشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه فى فنون الشعر.

وقد رَوَيْتُ لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له فى أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقدمين من شعراء العرب، فلقد سمعت من لا أُحْصِى من الرواة يقولون أحسنُ الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القَيْس حيث يقول (ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالى) وحيث يقول (قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل) وفى الإسلام القَطامىُّ حيث يقول (إنّا محيّوك فاسلم أيها الطَلَلُ) ومن المسلمين بشارٌ حيث يقول.

أَبَى طلل بالجِزْعِ أن يتكلما ... وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجِزع آثارٌ بقين وباللوى ... ملاعبُ لا يُعْرفن الا توهما

ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجِز البُصَرَاء عن الاتيان بأفضل منه وفى قوله.

كأنّ مُثارَ النقع فوق رءوسنا ... وأسيافَنا ليل تهاوَى كواكبه

سموٌّ لم يعلُ عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، وهذا من الغريب الذى لم يُسمع بمثله عن أحد من العميان لأن قولهم منحصر فى الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها، بخلاف هذا الشاعر فانه يتوسع منها

(١) الأغانى ٣ : ٣٦ الوطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥

إلى سائر المذاهب من غير أن يقع فى الانحطاط الذى لا يُؤْمَن على من يُدخل نفسه فيما هو غريب عنه ، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيداً عن تصور الحسن ولكنه أغزل الشعراء[1] حيث يقول .

أنا واللهِ أشتهى سحرَ عينيكِ وأخشى مصارعَ العشاق

وهذا أحسبَه من المواهب الطبيعية والمَلَكات النفسانية، ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذى يُجلّه عن التكلف ولا أجد فيه من انتقادِ عيب[2] به شعرُه الا استرسالَه فى الهجاء واختلاقَه بعضاً من الألفاظ التى يُحتاج إليها لقيام أبياته على القافية من غير أن تَرِدَ فى لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مَرْوانَ بنَ أبى حَفْصَة وهو منقطع فى شعره إلى مديح مَعْنِ بنِ زائدة[3] لأنه كفاه مَؤُنة الاستعطاء من غيره ، ولمّا أتى فى بعض مديحه له على ذكر بَلائه فى حرب الروَانْديّة بقوله .

مازلت يوم الهاشمية مُعْلنا بالسيف دونَ خليفةِ الرحمن

فمنعت حَوْزَته وكنتَ وقاءه من وقع كل مُهَنَّدٍ وسنان

أعطاه مائة ألف درهم وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز ، حتى إن أبا جعفر لمّا علِم بذلك أكبره وقال فى سبيل التعجب من سماحة معن « لله دَرُّه من أعرابى ما أهونَ عليه ما يعزُّ على الرجال وأهل الحُرَم »[4]

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التى يقول فيها مادحاً هذا الأمير .

---

(١) الأغانى ٦ : ٤٩ وابن خلكان ١ : ١٢٥ (٢) الأغانى ٣ : ٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٢ : ٢٥٢ وابن الاثير ٦ : ٣٧ (٣) الأغانى ٩ : ٤٤
(٤) المسعودى ٢ : ١٨٣ والأغانى ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٢ : ١٦٠ والمستطرف ١ : ٧٣

بنو مطر يوم اللقـــاء كأنهم　　أسُودٌ لهم فى غيل خفّان أشْبُلُ
همُ يمنعون الجار حتى كأنما　　لجارِهمُ بين السِّماكَيْنِ منزل

إلى أن يقول .

تجنّب لا فى القول حتى كأنه　　حرامٌ عليـه قولُ لا حين يُسْأل
تشـابه يوماه علينـا فاشـكلا　　فما نحن ندرى أىُّ يَوْمَيْه أفضل
أيومُ نداه الغَمْرُ أم يومُ بأســـه　　وما منهما الا أغرُّ محجّل

ولكنى سمعت من يقول إنه رفسها بعد حَوْل كامل[١] فقالها فى أربعة أشهر وانتخلها فى أربعة وعرضها فى أربعة فجاءت كأنها السحر الحلال[٢] يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثرُ من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسَه منها عناء شديد، وانما يُحَبُّ من الشعراء سرعةُ الخاطر إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا فى المجالس والأسواق. ومن كلام مروان :

طرقتكَ زائرةٌ فَحَيٍّ خيالَها　　بيضاء تخلط بالجمال دلالَها[٣]
قادت فؤادك فاستقاد ومثلُها　　قاد القلوب إلى الصِّبا فأمالها

وممن لقيتـه من شعراء هذه الدولة أبو اسحق اسماعيل « من قبيلة عَنْزَة[٤] » ويعرف بأبى العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتاً فى اليوم الواحد ، حتى لبس إلى الاحاطة بجميع شعره من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد[٥] كقوله .

---

(١) الأغانى ٩ : ٤　(٢) ابن خلكان ٢ : ١٢　(٣) فى العقد الفريد « بيضاء تنشر بالحياء دلالها »　(٤) الأغانى ٣ : ١٢٧　(٥) الأغانى والعقد الفريد ١ : ٣٧٤

الناس فى غفَلَاتهم ورحَى المنية تطحَن

وله من بعض كلام(١)

لا تأمنِ الدنيا على غدْرها كم غدرت قبلُ بأمثالكا
أجمعتِ الناس على ذمها وما أري منهم لها تاركا

وهو يأخذ فى ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهَمه العامة وترضَى به الخاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين فى فصاحة الألفاظ، وتَصَرُّفه فى الشعر مقصور على وصف الآخرة (٢) ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما فى عمرو بن العلاء .

إنَّ المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك بَسابسا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفا واذا صدرن بنا صدرن ثِقالا

وهذا أحسن ما يقال فى امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العُجْم ناطقةً بما له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دُلامة زَنْد بن الجَوْن وهو من الشعراء المجيدين لكنه قد أضاع شعره فى استعطاء أبى جعفر وهو بمكانه من الامساك كما علمت وقد قال فى الثناء عليه .

لو كان يقعُد فوق الشمس من كرم قومٌ لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقُوا فى شعاع الشمس كلُّكم إلى السماء فأنتم اكرم الناس

وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر و يملك القول بما أودعه من وصف السعادة التى صوّرها محفوفة بالنور ولكن قد ضاع تأثيره فى النفوس ببعد

---

(١) المسعودى ٢ : ٢١٨ : (٢) الأغانى ٣ : ١٢٦

الممدوح عن محاسن الكرم . وقد وجدت أبيات هذا [illegible] حلاّة بالخلاعة كما أنى وجدته يتوسع فيها إلى المجون[١] وكثيراً ما كنت ألقاه فى مجالس المَهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المَوْلى الأعرابىّ لقيته فى مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنّانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفِظْت له من جملة أبيات يقولها فى مديح رَوْح بن حاتم من أمرائهم[٢] .

إنى لأرجو إن لقيتك سالما   ألاّ أعالج بعــدك الأسفارا

وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بإفراغ المال عليه حتى تَثَقّل به فقلت للأمير ما أنت إلا من يقول فيه زُهَيْر .

تَراه إذا ما جئته متهللا   كأنك تُعطيه الذى أنت سائلُه

فقال والله لأَنْ أُعْطِىَ أحبُّ إلىّ من أن أُمْدَح . ولابن المولى كلام يقرُب أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لِمُقامه فى مواضعهم من البادية بعيداً عن حضارة الأمصار ومن شعره فى النسيب .

أحِنُّ إلى ليلى وقد شطّت النوى   بليلى كما حنّ اليراع المُثَقَّبُ

تقربتُ ليلى كى تُثِيبَ فزادنى   بِعاداً على بعــدٍ إليها التقرب

(وقوله)

وأبكى فلا ليلى بكت من صبابة   إلىّ ولا ليلى لذى الوُد تبذُلُ

وكان الحَسَنُ بن زَيْد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة[٣] ، قد

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغانى ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشريشى ٢ : ٢٦   (٢) الأغانى ٣ : ٩٠   (٣) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

دعاه وأغلظ له ، وقال أتُشَبِّبُ في حرم المسلمين وتُنشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهراً ؟ فقال امرأتي طالق ثلاثاً إنْ كانت ليلى إلاّ قوسي هذه ذكرتُها على سبيل التشبيب ، لأن القريض لا يحسُن إلاّ بالنسيب . على أني وجدت شعره إلى فصاحة البداوة أقربَ منه إلى حلاوة الحضارة وفي قوله .

سلا دار ليلى هل تُبِينُ فتنطِق ... وأنَّى تردّ القولَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

عفتها الرياح الدامسات مع البلى ... بأذيالها والرائح المتعبِّق

بكل شآبيبٍ من الماء خَلْفَهَا ... شآبيبُ ماء مُزْنُها مُتَأَلِّقُ

مايبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ، وانما يُدْخلون في لسانهم كلام السُّوقَةِ [1] وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم في أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تُصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العرب .

وممن لقيتـه من الشعراء المجيدين السيد الحِمْيَرِيُّ ، وهو من الواقفية القائلين بالامام المنتظر ، [2] يأتي في شعره على غرضه في السياسة ، ويُفرط في سبّ أصحاب النبي [3] صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلاّ أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجَوْدَة السبك ، ورَوْنَقِ الشعر وطَلاوته . وقد جمعني وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى

---

(١) يقول في الأغاني ٣ : ١٧٣ أن الألفاظ السوقية لاتمنع أن تكون القصيدة جيدة . (٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودي ٢ : ٨٠ وسمى شيعته بالكيسانية (٣) أبو الفداء ٢ : ١٥

كل رجل فى مجلسه نصيبه من حديثه ، [1] وله فى النسبب كلام رقيق فمن ذلك قولهُ :

ولمّا رأتنى خَشْيَةَ البَيْنِ مُوجَعاً أكفْكِفُ منى أدمُعا بيضُها درَرْ
أشارت بأطراف الىّ ودمعُها كنظم جُمانٍ خانه السلكُ فانتثرْ

ومن الشعراء المقدَّمين أشجعُ بنُ عمرٍو السُّلَميُّ ، [2] وقد نزل الشعرُ فى صدره مَوْهِبةً من الله ، فانتهضت به قَيْسٌ لذلك ، إذ لم يكن بها فى الاسلام شاعرقبله ، وإنما كان الشعر فى ربيعةَ واليمنِ ، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيسٌ على العرب ، [3] ومما أستحسنه من نظمه سهولةُ القول التى لا يُعانى إلى البراعة فيها تكلفاً ، وقد حفِظتُ له فى مديح ولىِّ العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله [4]

وعلى عدوِّكَ يا ابن عم محمد رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ
فاذا تنبّه رُعْتَهُ وإذا غفا سُلَّت عليه سيوفَكَ الأحلامُ

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار ، وقد رأيتهم يتسابقون إلى ابتكار المعانى الحِسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم فى عصور الجاهلية ، إلاّ فيما كان أقلَّ من النادر [5] ، ولو رأينا لهم ماسُبقوا إليه ما صحَّ أن نتهمَهم بالانتحال ، لأن العقول قد تتوافق وتتوارد ، وان كان المتقدمون من الجاهلية أشرفَ منهم لفظاً فانّهم لألطف منهم صُنْعاً وأكثر من المعانى حظاً . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا فى الزَّوْراء

---

(١) الأغانى ٧ : ٣ (٢) الأغانى ١٥ : ١٠٨ (٣) الأغانى ١٧ : ٣٠
(٤) البيتان قيلا فى هرون الرشيد (٥) أنظر ابن خلكان ١ : ١٠٢ والأغانى ٣ : ٤٩ و ١٤٨ و ٥ : ١٧٨ والحصرى ٢ : ١٦٧

إلاّ ابن هَرْمَةَ وسَلْماً الخاسر، وكلاهما شاعر مُجيد أيضاً إلاّ أنّ أبياتهما لم تصل إليّ ، فلم أعَلِّق أخبارَهما فى هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة فى مُنْتَصَفِ ذى الحِجَّة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئولُ فى توفيقنا إلى السَّداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

الرسالة الرابعة

جلوس المهدىّ على دست الخلافة

أفتتحُ هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدىّ على دَسْت الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبى جعفرْ، وقد كان لذلك يوم عظيم فى الحضرة والأسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يَرَوْنَ زوال الخلافة عن وَلَدِ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذرَ مصيرها إلى المهدىّ، والمشايخُ من أهل هاشم حاضرون ، فجرَى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علِمتها من البرامكة سراً لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لمّا أودَى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موتَه إلى الصباح عمن كان معه فى الحج ، واستدعى عيسى بنَ علىّ عمه وعيسى بنَ موسى ولىَّ العهد بعد المهدىّ وجماعةً من القوّاد والأمراء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعُم — أنْ يجددوا البيْعَةَ لابنه من غير أن يُعْلِمَهم بوفاته ، فلم يتجرّأ أحد على مخالفة الأمر، ظنّاً منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علِموا بوفاته

ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مرادَه ولم يبق له غرضٌ من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمراً مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوقَ الجَيْب باكياً ينْعَى وفاته ، فلم يكن فيهم إلاّ من أُخِذَتْ عليه البيعة ، وركب رجال المهدىّ إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها ، [1] فصارت الخلافة إلى المهدى بهذه الحيلة التى تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإنْ كان فيها حَقْنٌ لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبى جعفر فى بئر ميمون مع السَّحَر ، لست خَلَوْن من ذى الحِجَّة ، وهو مُحْرِمٌ بظاهر مكة ، [2] ولذلك دفن مكشوفَ الرأس دون أحد غيره من الخلفاء ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لُبْس القُمُص والعمائم والبرانس [3] وغير ذلك من أنواع المَخِيط ، وحفرَ له أهله مائة حُفْرةٍ بين الحَجُون و بئر مَيْمُون ، [4] ليُعَمُّوا على الناس ، ثم دفنوه فى غيرها . ووجه الربيع منارَةَ [5] الخادمَ إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفاً من أمر يحدث فى الإسلام ، فجاءها فى أَحَدَ عَشَرَ يوماً [6] من مكة .

وقد كنت فى مجلس هرونَ الرشيدِ حين سمعتُ الجَلَبَةَ فى مقاصير الحَرَم ، فاستعلمت الخبرَ ، فَنُبِّئْتُ أنّ أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهَدَ مجلسهم فى ذلك الوقت ، فأخبرنى نافذٌ أحد الحُجّاب أن المهدىّ قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيتُ أستاذى أبا يوسف ، فأبنتُ له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إلىّ بالبقاء

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) ابن الأثير ٦ : ٨ (٣) الزرقانى ٢ : ١٤٨
(٤) الخميس والعقد الفريد ٣ : ٥٣ (٥) المسعودى ٢ : ١٩٤
(٦) أبو الفداء ٢ : ٩

معه إلى قُبَيْلِ الظهر ، وهو الوقت الذى يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدىّ .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحاتِ غاصّةً بجماهير الناس ، فوَلَجْنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء ، فجاوزنا الحُجّابَ إلى المجلس الذى تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جَمَع الأمراء من بنى العباس وجِلّةَ القُوّاد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل المُهَلَّب وآل طاهر وآل قَحْطَبَةَ وآل نُوبَخْتَ وغيرهم . وكان المهدىّ مستوياً على عرش مَكَلَّل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قُبَّة تتدلى منها أستار من الديباج ،[1] وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفا بمِظَلَّتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوَّين بعروق من الذهب ، قد نُزِّلَ فيها الياقوت والزَّبَرْجَدُ والفَيْرُوزُ ، ودونهما بنو هاشم على وسائدَ قد ثُنِيَتْ لهم ،[2] ولباسُهم خَزٌّ أسودُ ، وكذلك كان لباسُ المهدىّ ، وكانت عليه الطَّرْحَةُ ، وعلى كتفه بُرْدَةُ النبى صلى الله عليه وسلم التى استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفى يده القضيب وفى الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبرٌ مزخرف بأنواع الزينة والجوهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدى فى خلافة أبيه[3] أبو عبد الله معاويةُ بنُ عبد الله الأشعرى ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيراً[4] له فى سياسة الملك . وكان سَلامان الأبرشُ حاجبُهُ واقفاً على بعض مِرْقاة[5] هذا

---

(١) المسعودى ١ : ٢٣٤ (٢) الأغانى ٤ : ٩٣ (٣) الفخرى ٢١٥
(٤) الأغانى ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودى ٢ : ١٩٦ (٥) السيوطى

المنبر بالبيعة التى جاء بها منارةُ من مكة ، وتحت يد الخليفة أميرٌ من البرامكة ، (١) قد أخذ فى يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يَرَوْا إلاّ متابعةَ الناس ، بعد أن بايعت مكةُ والمدينةُ وبايع القوّاد والوزراء وأكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس فى مثل هذا الموقف أن يَبْدَءوا الخليفة بتعزيته فى أبيه ، ثم يُهنِّئوه بجلوسه على تخت الخلافة ، فلما أخذوا فى تعزية المهدىّ خلعوا قلانِسَهم ونبذوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يُعَزَّوْنَ بالعمائم ، (٢) ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، ولفظُ البيعة قولُه (٣) « إنّا نبايع سيدَنا ومولانا الأمامَ المُفْتَرَضَ الطاعةِ على جميع الأنام أبا عبد الله محمدَ بنَ عبدِ الله المنصور ، على كتاب الله وسُنَّة نبيه واجتهادِ أمير المؤمنين ، وأنْ لا خليفةَ سواه ، » ثم بايعه كل من حضر المجلسَ حتى لم يكن يُسْمَعَ إلاّ دعاء له وتنويهٌ باسم بنى العباس .

ثم تناول الوزير منشوراً كتبه الربيع على لسان أبى جعفر استنهاضاً للناس إلى مبايعة المهدىّ ، (٤) فتلاه على مَسْمَعٍ من الأمراء وفيه يقول . « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصورِ أميرِ المؤمنين إلى من خلَف من بنى هاشم وشيعتِه فى خُراسان وعامّةِ المسلمين . أمّا بعدُ فإنى كتبت هذا وأنا حىٌّ فى آخر يومٍ من أيام الدنيا وأولِ يومٍ من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألاّ يفتنكم بعدى ، ولا يَلْبِسكم شيعاً ، ولا يُذيقَ بعضَكم بأسَ بعض وأوصيكم بمحمدٍ ولىِّ عهدكم وأُذكِّرُكم البيعة له ،

(١) يفهم من ابن الاثير ٦ : ٦ أن خالداً ويحى كانا غائبين عن بغداد لما توفى المنصور (٢) الأغانى ٩ : ٩٧ (٣) السيوطى (٤) ابن الاثير ٦ : ١٢

وأستنهضكم للوفاء بعهده وأجتماعَ كلمتِكم عليه ، فأنّما قوّتُكم تكون بالاجتماع الى رأيه ، وقد أوصيته بكم و بالرأفة عليكم والاحسان إلى المسلمين والسلام . « فترقرق الدمعُ في عَيْنَيِ المهديّ [1] ولم يتمكن من إطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء ، لِمَا غلب عليه من تأثير النفس ، فصرّف الأمراء وهم يدعُون له بالسلامة .

سياسة المهديّ وخلعه عيسى ابنَ عمه عن الولاية

ولما كان المَسَاء أقيمت في المدينة زينةٌ حافلةٌ فَصَرَفْتُ العنايةَ إلى تزيين مَشْرَع الزوايا [2] بالأنوار ، لقربه من موضعى ، ليكون فى ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولانى من الجميل ، ودفعٌ لألسنة الوُشاة عن السعاية بى إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلأت الزَّوْرَاء فى تلك الأيام بأرباب الملاهى ، وبما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها لِلَعِبِ الصبيان فى المواسم والأعياد [3] ولا أطيلُ لك الكلام على عاداتِ العامة وسذاجتهم ، لأنها فى جميع الأمم عامةٌ ومتماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفته للمهديّ — أصلحه الله — من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبّتهم له وميلَهم إليه فأقول .

إنه بعد أن أظهر من الأبّهة بافتتاح خلافته ما يعظّم موضعَه من السلطان ، صنع لبنى هاشم وسائرِ قريش طعاماً جاوز فيه الحد بسَعَة

---

(١) الاسحاقى ٨٨ (٢) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

(٣) ابن خلكان نقلا عن كتاب احياء علوم الدين للغزالى

النفقة ،[١] حتى إنه أطعم الناس الطير وخبزَ السَّميذ . وكان يحمل معه بِدَر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد إلاّ أعطاه ،[٢] فكان تخاف أربابُ الدولة نَفادَ ما في بيت المال[٣] اذا استمر على هذا العطاء ،[٤] ولا سيما بعد أن نقص دَخْلُ الدولة برفعه المُؤَنَ والكسورَ ، وهو الأمر الذي كان يفاوضني فيه أيامَ خلافة أبيه ، فانّ الناس في صدر الاسلام كانوا يُؤَدُّون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبةٍ على وزن كِسْرَى وقيصر ، لا يفرّقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبريّ ، الذي هو أربعة دوانيق ، ويُمسكون الوافيَ ، الذي هو مثقال ، فلمّا أُمِّرَ زياد صار يطلب الوافي ، ثم أُمِّرَ الحجاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر الى أبي جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيّره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يُسْقِط الكسور ، فلما وَلِيَ المهديُّ قال معاذَ اللهِ أن أُلزِمَ الناسَ ظلماً في ذلك ، فقيل له إن أسقط أميرُ المؤمنين هذا ذهب من أمواله في السنة اثنا عشر ألفَ ألفِ درهم ،[٥] فقال عليّ أن أقرّر حقاً وأزيل ظلماً ، لأنّ العدل مُوَفِّرٌ للجِباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمتُ للمهديّ هذه المأْثُرَةَ التي أحسَبها له من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فانّ لنا في سقوط الدول التي قامت في هذا المكان نفسِه من النَّبَطِ والكَلْدَان وغيرِهم ما يدُلّنا على أن الظلم يقتُل

(١) الأغاني ٣ : ٩٤ (٢) المسعودي ٢ : ٤٠١ (٣) المسعودي ٢ : ١٩٦
(٤) الحصري والخميس ٢ : ٣٣٠ (٥) الماوردي ١٣٧

العبـاد والبلادَ جميعاً ، فانّما كان غرضُ الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيامَ بأعمال الزراعة والمُقَامَ فى بُلْدان الخِصب ، لِمَا يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تنـاسلوا فى ظِلال العدل ، و بلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غَفَلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتهـا إليه مطالبُ التّرَف ، لم يبق فى نفوسهم شىء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منهـا إلاّ تحصيلَ القوت الذى يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعُفَت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مَرَدِّ العدوّ بهم ، وقد ماتت نفوسُهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومَنْ عليها .

وكان وفود البُلْدان يَرِدون على المهدىّ من الأقاليم الأسلامية الأقربَ فالأقربَ لتهنئتـه بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخيرَ لأنهم رأوْا منه عُدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسناً إليهم ، (١) محباً لهـم وساعياً فيما تصلُح به أمورُهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلساً لردِّ المظالم ، (٢) ولم يكن قبلَه فى الدولة العباسية من ينظر فى تعدِّى الوُلاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال ، (٣) ولقد وجدتُ له فى استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهـما

---

(١) الخميس ٢ : ٣٣١ (٢) السيوطى وابن الاثير (٣) فى الماورى ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر فى كتابة الدواوين اذا وقع بها تزوير وفى تظلم المسترزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفى مشارقة الوقوف ورد المغصوب الى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن

نفسه ، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم ، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بمأمن من تغلبهم عليه ، ثم جَعْلُ الخلافة من بعده فى وَلَدِه ممنوعةً على غيرهم من بنى العباس . فأمّا أمر العلويين فما كان يشتدّ عليه وقعُه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التى يحتاجون معها إلى زمن يلُمُّون به شَعَثَهم ، ويجمعون إليهم أطرافَهم ، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم . وأما خلع عيسى ابنِ عمه عن ولاية العهد فانّه كان يُتْعِبُ منه البال ، وقد دخل عليه يحيى بنُ خالد — أعزه الله — فأصابه فى قَلَق شديد ، يقعُد مرةً ويضطجع أخرى . قال لى يحيى فعلمت من ذلك أنه يريد أمراً عظيما ، فقال اجلس قريباً منى ، لأنى أريدك للمشُورَة [1] إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصيّة ، وترك الأمر شُورَى بين المسلمين ، فما لبثوا أنْ أجمعوا على أبى بكر ، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار ، لقولهم منا أمير ومنكم أمير ، ثم مات أبو بكر وقد صيّر الأمر إلى عمر بمحضر من الصحابة ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عهِدها عمرُ إلى ستة النفر الذين مات النبى صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأجمع رأيُ الأمّة على علىّ وعثمان ، وكان عبد الرحمن بنُ عوف أحدَ الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان ، وفى وصيّة عمر إلى المسلمين أن يتّبعوا رأيه ، فبايعوا من أراده ، فاستقر عثمان فى خِلافته إلى أن ثارت عليه الفتنةُ لاقصائه ولد أبى بكر وإقباله على أقاربه من

انفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وامضاء ما يعجزون عن امضائه فى البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح .

(١) المسعودى ٢ : ٢١٥

الأمويين بالصلات الطائلة ، وعهدُ المسلمين قريب بضبط[1] أبى بكر وعمر ، فقتلوه وكانت تلك أولَ فتنة فى الاسلام ، [2] ثم أجمع العرب على علىّ عليه السلام ، وكان الفُرْس يميلون معه ، فاستوثق له الأمر فى العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان ، إلاّ الشامَ لاستواء معاوية فيها ، فلما قتله الخوارج لم يرَ الحسن ابنُه مقاومةَ الأمويين بالقتال ضنًّا يبذل الدماء فنزل له عن الأمر ، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخافُ اليومَ إنْ صارت إلى ابن عمى أن تذهب من يدى بلا رجوع ، ثم يكونَ من الفتن ما لا يُؤْمَن غائلتُه على المسلمين ، فأشِرْ علىّ يا أبا الفضل فى هذا الأمر ، الذى لا يتعاظمه أمر ، فانك بحمد الله مباركُ الرأى لطيفُ النظر .

فقال له يحيى يا أميرَ المؤمنين إنى أرى الزَّلّة فى هذا الأمر لا تُسْتَدْرَك ، والخطأَ فيه غير مأمون ، فإن تكتُب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكدَ فى البيعة . فقال له المهدىّ كنت أفعل هذا لولا أنى أخاف من عيسى نَكْثَ العهود ، ولكنّى أرَى أن أخلعه عن الولاية وآخُذَ البيعة لموسى على المسلمين ، فقال له يحيى علَى أمير المؤمنين أن يُعْلِمَ شيعتَه ومَسانّ أهله بذلك ، ولم يتعمق فى هذا البحث إلى أبعدَ مما أشار به ، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة ، وأنّه وإنْ كان يأخذ فى تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم فى المشرق ، له فى حبه للعلويين ما يرى به عدولَهم عن العراق الذى تزهَق النفسُ دون التمكن من أهله ، وانما يلتمس لهم من المَغرِب أمَماً ترسخ فيهم دولتهم ، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

---

(١) الفخرى ١١٦ (٢) السيوطى

ولما جمع المهدىّ أكابر الدولة وفاوضهم فى هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم (١) ولكن على أن يجيبه ابن عمه إلى الاتحاد وانتهى بعض مَنْ يَسْتَخْدِم الفقه فى رضا الملوك إلى أن يقول إنّ أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلاّ لتبقى الخلافة فى بيته بعد المهدىّ ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهدىّ إلى الرَّحْبَةِ يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر، أو وصله أنّه يعتلُّ بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلاّ أن يُكْرَهَ بالقتال . فعمَدَ إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً بألاّ يأخذه بالقتال ، بل يستعملَ الرفق والملاينة فى ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت فى الحروب يقال له أبو هُرَيْرَة محمد ابن فروغ ، فرأى أن يفاجئ الحصن فى آخر الليل ويصفّ العساكر صفوفاً متعارضة ، ويضربَ وراءهم مصافَّ الخيام ليُوهِمَ باستكثار العُدّة والعزم على مثابرة الحصار ، ثم يُنْزِلَ بالجنود الزعقةَ العظيمة التى إذا سمعها عيسى وهو فى نومه خامره الجزع وأفزعه الهَوْل ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سَحَراً ورأى سواد الجيش ، فامتلأ قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلاّ بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهدىّ ، فلم يفْتُرْ عن استعمال الحيلة فى تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن أجابه إلى الانخلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولمّا تصرّف المهدىّ فى أمر البيعة بما أراد ، ثار فى قلوب المخالفين (٢) له ما كان يُخْمِدُه فيهم حلمُه وسَعَة عطائه ، فحصل فى نفسه منهم خوف

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١٦ (٢) ابن الاثير والفخرى والسيوطى

شديد ، ولكنه لم ير مقاومتهم بالقتل ، وفيهم كثيرٌ من أهل السيف ، لئلا يتسعَ الفَتْقُ وتعودَ عليه الفتنة بغير ما يُحبّ ، وإنّما رَجَع إلى من يلوذ به من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب في الردّ عليهم ، وأخذ في استصلاح الزَّوْرَاء والنظرِ في حسن السيرة الظاهرة من أهلها بإكراه العُزّاب على الزواج ، والاحسانِ إلى المتعففين من الشبان ، مما جرى له قيلٌ وقالٌ بين الناس ، كمثل أنْ نسبوا ذلك منه إلى غيرة به على النساء ،(١) وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الاسلام حتى يعظُم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهديّ بمناصرة العلم

إنّي وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأني إلى قوم سواهم لأميل) لأُوَفّي المهديَّ حقه من الثناء على ماله من جميل العناية (٢) في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياماً (٣) معلومة من السنة ، يَعْرِضون فيها بضاعتهم من علم أو فنّ أو أدب أو صناعة حتى يحصُلَ بينهم التنافس ، ويُصْدِروا ما عندهم من النفائس ، ثم يَجْزيهم على ذلك بما هو مطبوعٌ عليه من الكرم .

ولقد رأيته أصلحه الله أعطَى الخلفاء نوالاً للشعراء ، وهو يأذَن لهم بالدخول عليه مرّةً في السنة (٤) فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من

---

(١) في الاغاني ٣ : ٤١ ان المهدي من أشد الناس غيرة (٢) الاسحاقي ٨٨
(٣) المستطرف ١ : ٣٧ (٤) الاغاني ٩ : ٤٤

محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول ما وَلِيَ الخلافةَ ، وقد قصده ابن المَوْلَى من البادية ،[١] وسَلْمٌ الخاسر من البَصْرة ، وابنُ الخياط من مكة ، وأشجعُ السُّلَميُّ[٢] من الحجاز ، فقالوا فيه الشعر الذى لم يُمْدَح بمثله أحدٌ من الملوك . ومن جملة ما حفِظتُ لأبى العتاهية فى تهنئته إياه بالخلافة قوله .

أتتـه الخـلافة منقـادةً إليـه تُجَـرِّرُ أذيالهـا
فـلم تَكُ تصـلُحُ إلاّ له ولم يك يصـلُح إلاّ لهـا
ولو رامهـا أحـدٌ غـيرُه لَزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالهـا
وإنَّ الخليفةَ من بُغْضِ «لا» إليـه لَيُبْغِضُ مَنْ قالهـا

فأصاب لذلك حظاً وافراً من المال . وكان بشّار المقدمُ ذِكرُه فى الرسالة السالفة واقفاً فى صفوف الشعراء فلم يتمالك أنْ يقولَ لمن حَوْلَه وَيْحَكُمْ انظروا هل طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهدىّ يقدم عليهم سَلْمًا البَصْرِىّ ومَرْوان بنَ أبى حَفْصَةَ ويُعطيهما عطيةً واحدة ، فأما مروان فانه يلتمس الفصاحة فى كلامه تشبهاً بأكابر الشعراء ،[٣] وأما سَلْم فانه يودع أبيـاته المجونَ والخلاعةَ لتكون أُنْساً فى عيون السلطـان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بَوْنٌ يشبه أن يكون ناشئاً عمـا فيهما من تباين المَشْرَب بين الافراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فإنّ مروان بخيل يَضِنُّ بماله ،[٤] وسَلْم سَمْحٌ ببذْل المـال ، يأتى إلى دار المهدى على بِرْذَوْنٍ قيمتُه عشرةُ آلافِ

(١) الاغانى ٣ : ٨٨ (٢) ابن خلكان ١ : ١٠١ (٣) الاغانى ٩ : ٤١
(٤) الاغانى ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

درهم ، ولباسُه الخَزّ والوَشْى ، (١) ويأتى مروان بأثواب رَثَّةٍ على حمار يكتريه بدرهم لا يخرج من يده إلاّ بعَصْبِ الريق ، مع كثرة ما أصابه من المال (٢) فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار فى عطية واحدة كما علمتَ .

ولئن تكن الفصاحة فى كلام مروان أجلّ منها فى شعر سَلْم إنّى لأَعِيبُ عليه المداهنة التى يلتمس بها مرضاةَ الخليفة بقدحه فى أهل البيت على غير حكمةٍ وعقل ، كأنّه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله فى ثبوت الخلافة للعباسيين و بُعد العلويين عن وراثة النبى صلى الله عليه وسلم .

يا ابن الذى ورث النبىَّ محمدا   دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنّى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثةُ الأعمام (٣)

وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هى مصلحة دينية لا وراثة دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم صرّح بأن الحسن والحسين هما ذُرِّيته فاذا وجدت الذرية لم يبق مَدْخَل للاعمام فى الوراثة ، اللهم إلاّ إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التى نُسِخَت بمجىء الاسلام ، ولو أنّا ضربنا عن ذلك كله صفحاً ما وجدنا أصلحَ للاسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحدٌ من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا مِنْ ذِكرها الآن فى شىء ، وإنما أعود الى الحديث الذى جرى به القلم عن سيرة المهدىّ ، فأنّى شهِدتُ بداره أيامَ الشعراء وأيامَ القُصّاص وأيامَ النُّدماء وأيام المغنّين وأيام

---

(١) الاغانى ٩ : ٣٩   (٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١
(٣) الاغانى ١٢ : ١٠ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودى

الرماة [١] وأيام جَرْيِ الخيل ، وقد سبقه إليها الخلفاء ، إلاّ يوم السبّاق فانى لاأعلم عن أحد من بنى العباس أنه أقام الحَلْبَةَ وأجرى بين يديه الخيل فى محفلٍ من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سَبّاقُ الأضاميم ، يقال له الغضبان ، [٢] فكان أولَ خيلِ الحَلْبَة فى ذلك اليوم ، فلما وَصَفَه الشعراء أصاب جائزتهم العُمانىّ وقد ارتجز .

قد غضِبَ الغضبانُ إذجدّ الغضبْ   وجاء يحمِي حَسَباً فوق الحسب
من إرث عباسِ بنِ عبد المُطَّلِب   وجاءت الخيلُ به تشكو التعب

له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التى تكفى المشاهدة لها مرة واحدة ، وأما الذى ترتاح إليه النفس ، على التماس الكثير منه فى دور الخلفاء ، فهو يوم الغِناء وكان المهدىّ إذا اتخذ له مجلساً بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها فى صفوفهم بحيث لا يَرَوْنَه [٣] الأُفُلَيْحَ بنَ أبى العَوْراء ، وهو أوضح الناس غِناء وأعرفهم بالألحان والأصوات ، [٤] وإنْ هو لم يكن أحسنهم صوتاً ، فانما يَحْسُن الغناء عند من يُشْبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدِل الأوزان ويُفَخِّم الألفاظ ، ويعرِف الصواب ، ويقيم الاعراب ، ويستوفى النَّغم الطِّوال ، ويحسن مقاطيع النغم القِصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، [٥] فهو يُحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة ، وليس له فيها شريك إلاّ مغنٍّ آخر يقال له عطرد [٦] قد أدرك دولة الأمويين فى آخر مدتهم ،

---

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧ (٢) الأغانى ١٧ : ٨٢ (٣) الأغانى ٤ : ٩٩ وذكر المسعودى ١ : ١١٨ أن الأوائل من بنى العباس ما كانوا يظهرون للندماء (٤) الأغانى ٤ : ٨٨ (٥) الأغانى ١ : ١٢٦ (٦) الأغانى ٤ : ٩٩

وأما مَنْ سواهما من المغنين فليس لهم فى الصناعة ما للمتقدمين من الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأنّ الزمن الذى مضى عليهم فى صدر الدولة كان مضرجاً بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر فى مطالب اللهو والترف إلى التماس الأسباب التى يؤيّدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة . ثم إنّ نقل الغناء إلى العربية [١] ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه ، لأنهم نقلوه من الفارسية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وهو الزمن الذى أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترَف الملك ، فلقد نقَلت إلينا الأخبارُ السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهَّة الملك ، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم من الدنيا ، [٢] وإنَّما كانوا مظهرَ الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبَسون الثياب المرقَّعة ، [٣] ويتخذون فى أرجلهم نعالا من ليف ، [٤] ويمشون فى الأسواق كبعض الرعية رجالا [٥] وكان لباس أبى بكر الشَّمْلَة والعَباءة ، ولباسُ عمر جبةَ الصوف مرقّعة بالأديم ، ومَرْكَبُه الأبلَ ، [٦] وكان علىّ عليه السلام يتجافى عن جمع المال ، ويقول يا صفراء ويا بيضاء غُرّى غيرى . [٧] وكان مَطْعَمُهم على مثل هذا الوجه من الكَفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الأطعمة ، حتى إنّ المنَاخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الحنطة

---

(١) الأغانى ٣ : ٨٦ والمسعودى ٢ : ٣٥٧ (٢) وكانوا يقولون فى خطبهم للمسلمين أطيعونا ما أطعنا الله فيكم فاذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم (٣) الطبقات ١ : ١٩ والمقدمة ١٨٥ (٤) الفخرى ٣٣ (٥) الفخرى ٨٩ (٦) المسعودى ١ : ٣٢٠ (٧) الطرطوشى ١٢٤

بنُخالتها ، ولا يعرفون من الألوان إلاّ اللحمَ يطبُخونه بالمِلْح والماء ، (١) وكان أبو موسى الأشعرىُّ يتجافَى عن أكل الطير والدَّجاج ، (٢) وكذلك كان العرب فى سذاجة دولتهم على بُعْدٍ من تَرَف المتمصرين فى جميع معايشهم وأحوالهم ، حتى إنه لم يكن عندهم من الغِناء إلاّ حُداء الركبان أو ضَرْبٌ من النَصْب أرقُّ منه ، فلما ساد فيهم العمران فى عهد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ، ثم فُتِقَت الفتن فى دولة العباسيين ، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك ، فلم يتهيأ لهم مجلس بدُورِهم إلى هذا الزمان .

وَلوع المهدىّ بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذاكر لك عن المهدىّ أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيباتِ فى هذه الأبهة والتأنقَ فى فنون المعيشة الى الغايةَ التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فاذا جلس إلى النُّدَماء أحبَّ أن يمتع نفسه بلذة أحاديثهم (٣) وإشاراتهم دون ستارة تحجُبهم عن نظره ، وإذا خرج إلى الصيد ركِب فى المواكب العظيمة المُزَيَّنة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء إليه .

وأنا لا أعُدُّ الصيد من الملاهى التى تعاب على الملوك إلاّ متى أفرطوا فيه وكانوا أقربَ به إلى الأَشَر منهم إلى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجْلَوْا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعَهم فى طلب

---

(١) الابشيهى ١ : ١١٤ (٢) المقدمة ١٧٨ وفى البخارى وشرحه للقسطلانى ما يخالف هذا (٣) السيوطى

الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون فى المهدىّ (أصلحه الله) وإنما هو كان به[١] من غير إفراط فيه . لأنى رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه فى اتخاذ العُدّة له ، إلى أن يصنعوا نِصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم فى كلام الشعراء .

ومن جوده يرمى العُداة بأسهم من الذهب الإبريز صِيغَ نِصالها
لِيُنفقَها المجروحُ عند انقطاعه ويشترىَ الأكفان منها قتيلها[٢]

وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من مزاولة القَنْص ، وإنما عُنِى باتخاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التى تسبق الظَّليم فى عَدوها ، يُلبسها أطواقاً من ذهب ،[٣] ويُوَكِّل بكل كلب عبداً يخدُمه ، كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة[٤] فى تربيتها للتحريض على الصيد . إذ كان لا ينهَى الشرعُ عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحِراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يَسْبِق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كِندة ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحِبالة فانقضّ بازٍ وحمل عصفوراً وعلِق واياه فى الحبالة ، فأخذه الملك وأتى به وهو يأكل العصفور ، ورماه فى كِسْر البيت فرآه قد دَجَن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاماً أكله ، وإذا رأى طيراً طار إليه ، فاتخذه فى عُدّة الصيد وطلب به الطير ، وصار العرب يُؤدبونه[٥] لذلك ، ثم يؤدبون العِقبان أيضاً ، ويقولون إنها تعمل عملا لا يدركه أكثر الصقور[٦]

(١) ذكر حب المهدى للصيد فى الأغانى ٣ : ١٥٠ وابن الاثير والاتليدى وابن عون (٢) الاتليدى (٣) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الأطواق من الذهب (٤) الأغانى ٦ : ٧١ (٥) المسعودى ١ : ٩١ والأغانى ٧ : ٤٥ (٦) الدميرى ٢ : ١٥٢

وقد ركب المهدى يوماً إلى الصيد وكنت فى خدمته مع الأمير علىّ ابن سليمان ابن عم أبيه وأبى دُلامة الشاعر، وكان خروجه من القصر فى آخر الليل ، وفى طَرَف الأفق بشَفَقٌ من الفجر، وكان يحوطه فُرسانٌ من الحرس متنكبون قِسِيَّهم ، متقلدون سيوفَهم ، يتبعهم قطعة من الجنود ، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤنة على الخزائن[1] الخفيفة ، وبينهم عدد من الوُصفاء فى أخف كُسْوة وأجمل لباس ، وكان مسيره محاذياً للنهر ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيور وتسرح فيها المَهَى والغزلان ، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئاً من الطير تقدم إلى مَن بين يديه من الفُرسان أن يضربوا حَلْقة فى أرض مطمئنة مُمْرعة ، ثم يُضيِّقوها رويداً رويداً إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة ،[2] فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع فى حَلْقتهم غزال قد نفَر ومرَّ ، وكان الخليفة قد نشِط للصيد وخفَّ له فى ذلك اليوم ، فمال هو وابن عمه إليه ورشقاه بالسهام فأصابه سهم فى صدره ، وأصاب السهم الآخر بعضَ الكلاب فصرعه ، فلما جلسا للاستراحة حمِل إليهما هذا الغزال ، فوُجِد فى صدره سهمُ الخليفة ، فارتجل أبو دُلامة وهو يريد المِزاح[3] .

قد رمَى المهدىُّ ظبيا شكَّ بالسهم فؤادَه

وعلىُّ بنُ سليما نَ رمَى كلبا فصاده

فهنيئا لهما كلُّ امرئٍ يأكل زاده

وقد اتفق للمهدىّ فى ذلك اليوم نادرة لم أرَ أظرفَ منها فيما يتفق

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٠ (٢) الفخرى ٦٥ (٣) الأغانى ٦ : ٤٧ والشريشى ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥ .

الملوك من النوادر ، وهى[1] أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذ من أصحابه ، فركض فرسه ليلجئ فروجه حتى لا يُلَبِّدَه المطر ، فانتهى إلى بيت أعرابى مُلاَح[2] فبادر إلى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ، ثم قال يا أخا العرب هل من قِرًى ؟ قال عندى فضلة فى رَكْوة فقال له هات اسقنى ، فشرب قَعْبًا وسقاه ، فلما شرب قال له يا أخا العرب أتدرى من أنا ؟ قال لا والله قال أنا من خَدَم أمير المؤمنين الخاصة ، قال له بارك الله فى موضعك ، ثم شرب قدحاً وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابىّ أتدرى من أنا ؟ قال زعمتَ أنك من خدم أمير المؤمنين ، قال لا بل أنا من قُوّاد أمير المؤمنين ، قال رحبَتْ بلادُك وطاب مَرادك ، ثم شرب قدحاً وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابىّ أتدرى من أنا ؟ قال نعم ذكرتَ أنك من قُواد أمير المؤمنين ، قال فلست كذلك قال فمن أنت ؟ قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابى الرَّكْوة وأوكأها ، فقال له الخليفة مالك يا شيخ ؟ فقال مكانَك . والله ما آمن أن أسقيك القَدَح الرابع فتزعمَ أنك رسول الله . فضحك المهدىّ حتى استلق وأقبل الجند عليه . ونزل الأشراف إليه . فطار قلب الأعرابى من الخوف ، فقال له المهدى لا بأسَ عليك ولا خوف ، ثم أمر له بمال وكُسْوة . ولم يلبث أن رَجَع إلى الحضرة بعد انكماشٍ ناله من العَدْو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

---

(١) المسعودى ٢ : ١٩ وابن الاثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف ٢ : ٣٠٦ والشريشى ٢ : ٢٥٧ والاتليدى ٨٦ (٢) الأغانى ٣ : ١٥٠

فى تتمة أخبار المهدىّ ورسالتى الى خراسان

نعود إلى ذكر المهدىّ فى دولته وسياسته ، فانه لما حقق البغية بما أراده من البيعة لأولاده بَقِىَ عليه أن ينظر فى أمر العلوية ، وقد بقى منهم فى السجون جماعة لم يُطلقهم منها فيمن أطلقه عند ما وَلِىَ الخلافة ،[1] بل أبقاهم مع الذين عندهم تَبِعاتٌ من دم أو مال ، وهذا من شر ما يلاقيه أهل البيت من الذين خَلَفوا جدهم عليه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمَّد مَضَرَّتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يُطلعونه على أمورهم فيما يُسرون ويُعلنون ، وفيهم رجل من بنى سُلَيْم يقال له يعقوب بن داود ، طوّقه أمرَ الوزارة ومكّنه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ، ويُعلمه بمكان الحسنِ بنِ إبراهيم بنِ عبد الله بعد خروجه من السّرداب الذى حفره إلى محبِسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكنَّ يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المالُ بغرضه غرضاً آخر ، فَبَقِىَ ميلُه مع أهل البيت ، والمهدىُّ وأبو عبد الله يظنانِ أنه على خلافَ ذلك[2].

ولما استوثق للمهدىّ أمرُ العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركِب إلى الحج فى كثير من عظماء دولته ، واتخذ من الأُبهة ما لم يسبق له مثيل فى الاسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدَّمَ ذكرُه وجماعةً من أقاربه المقربين ، واستخلف فى الحضرة موسى ابنَه ويزيد بن منصور الحِميرىّ خالَه ، وحمل معه خمسين ألفَ ألفِ درهم ومائةَ

---

(١) فى ابن الاثير ٦ : ١٥ والأغانى ٣ : ٣٩ انه عند ما ولى الخلافة أطلق المسجونين (٢) ابن الاثير ٦ : ١٤

وخمسين ألفَ ثوب[1] يُفرِّقها فى أهل الحرمين ، وكان عازماً فى تلك الحَجَّة أن ينكب الإمامَ الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد على عليه السلام ، وقد علم أنه فى جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان[2] الذى كان مقبوضاً عنه وعن آل بيته فى خلافة أبى جعفر .

ولما قدِم إلى مكة نزع كُسْوة الكعبة وطلَى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كُسْوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تتهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذى كساها إياه هشامُ بنُ عبد الملك ، ثم أمر بانشاء أرْوقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرُّخام من البحر ،[3] وأتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالةَ أهل الحرمين مع ما أولاهم من الاحسان ، واتخذ لهم مآدب أفرغ الوسع فى زخرفتها وتنميقها للدلالة على عِظَم ملكه ، حتى إنه سقاهم الماء المبرَّد بالثلج المحمولَ من الشام ،[2] (وكان الذى حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمىّ الذى تقدم فى الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الأمور التى توسع أهل البادية تعجباً من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه رد عليهم الوظائف التى قُبِضَت عنهم فى خلافة أبيه ، وفرَّق عليهم غيرَ ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار حُملت اليه من مصر ، ومائتى ألفِ دينار من اليمن ، وغيرَ ذلك مما جاءه من الجهات ، فبلغ المُنْفَقُ فى هذا الحج على كُسْوة الكعبة وصِلَةِ الناس و بناء القصور بطريق مكة واتخاذِ المصانع فى كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفْر الركايا وغيرِ ذلك نحواً من ستة آلافِ ألفِ دينار ، واصطفى لنفسه من الأنصار

(١) الخميس ٢ : ٣٣٠ (٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ (٣) الخميس ٢ : ٣٠

خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق ، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالي على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رُخْص وخِصب بعد جَهد أصاب الناس في العام لمّا دهمهم الوباء[1] الجارف ، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهديّ ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميُّه[2]

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تَجْواله في البلاد اختلالا لم يأمن مَعه على الدولة من الفساد صرف الهمة في النظر إلى تدبير الولايات ورتّب أناساً يؤدون رسائله إلى العمال ويترقبون لهم في إنفاذها وسماهم الأمناء ،[3] ووجّههم في جميع الأمصار فكان لا يُنْفِذُ كتاباً إلى عامل في أمر خطير حتى يكتُبَ يعقوب الوزير إلى بعض الأمناء بانفاذ ذلك . ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزمّة[4] وأقام على الشُّرْطة من تَبَيَّن فيه حسنَ النظر والتدبير ، فاستوثق له الملكُ من الوجه الذي يرومه في استمالة الناس إليه .

إلا أنه تواترت عليه في منتصف هذه السنة ، والدهرُ له صافٍ ، رسائلُ من أبي عَوْن عامله على خُرسَان يشكو فيها ضعفَ جندها واعتلال دولته وتغلّب رجل أعور من مَرْوٍ قد ادّعى الربوبيةَ وأغوَى الخلق ، وقامت له في الصغد وبُخارَى أنصارٌ قد عاثوا في البلاد ، واتخذوا البياض شعارَهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهديّ أمرَهم وأخرج إليهم مُعاذ بنَ مسلم موعزا إليه بأن يلتئم مع الحرشي الذي هو أمير الجيش في خُراسان ، حتى اذا كان

---

(١) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠ (٢) الأغاني ٣ : ٩٤

(٣) ابن الأثير ٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر أن المنصور كان يحب أن يوجد في دولته مثل ذلك ٦ : ١٠ (٤) ابن الأثير ٦ : ٢١

على انتظار البشائر منه وصله من أبى عون أنْ قد وقع الخلاف بين الجيشين، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويُصلح بين الأمويين، فوقع الخلاف بين يعقوبَ وأبى عبد الله فيمن يُطَوِّقانه أمرَ هذه الرسالة، فرام يعقوب أن يقلدنيها، وأحب أبوعبد الله أن يصيرها الى أمير من آل قَحْطَبَة وكان الربيع حاجبُ أبى جعفر راغباً فى توجيهى بها أيضاً حبّاً لى، ولكنه وقعت نفرة[1] بينه وبين أبى عبد الله فاشتغل فى معاكسته وبلوغ المكروه منه.

ثم إنّ المهدىّ وقع رأيه على أن يبعثنى إلى مرو لأنظر فى أمر هذا المقنّع الأعور، وجعل لى التصرف فيما أرى حلّه وعقده من خلاف القوّاد، إذ يكون خير الجيش المرجوّ مالم تتقلب بامرائه الأغراض، ولا سيّما أنّ له فى خُراسان عدوّين يتفقان جميعاً عليه. جماعةُ خارجىّ يقال له يوسف البرم[1] وشيعةُ هذا المقنّع الذين يدعون ألوهيته ويقيمون دعوته على بذل الدماء. فأما جماعةُ البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلاّ فى أمر من السياسة، ولذلك كانوا أقلَّ على الدولة خطراً من رجال المقنّع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أنّ الله تعالى خلق آدم فتحوّل فى صورته ثم فى صورة نوح ثم فى صورة غيره من الأنبياء حتى تحول فى صورة هذا المقنّع بعد أبى مسلم رحمه الله. وقد نقلتِ الأخبارُ السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحى ويزعمون أنه أراهم فى السماء قمراً آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال وغلبة الرجال.

وإنما زعم هذا المقنّع أن الله تعالى تحوّل قبله فى صورة أبى مسلم

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الاثير ٦ : ١٩ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦

ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعيةُ الامامية رحمه الله وان كان بعيداً عن اظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامُه الدينَ لنيل مناه وجهاً من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام اليه ، وقد رأى أنّ عصر موسى عليه السلام كان مقدّماً بالسحر فغلَب السحرةَ ، وعصرَ عيسى عليه السلام مقدّماً بالطب فغلَبَ الأطبْاء ، وعصرَ النبي صلى الله عليه وسلم مقدّماً بالبلاغة ففضُل البلغاء ، فرأى أن عصرَه مقدَّم بالكيمياء فأراد أن يبهَر الناس بما يستنبطه من المركّبات ،

وقد فرغت من تقيد هذه الرسالة فى ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرّفة وأنا على أُهْبَةِ السفر الى خُراسان وساصْدِر لك منها كتاباً أودعه ذِكرَ الشيعة فيها وأخبار أممها من الفُرس والديلم وغيرهم . وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدى والهادى

ولما[1] وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأَقْرَأَ عليهم سلامَ الفضل[2] أعزّه الله وأُطفِئَ ما بنفسى من الشوق إلى الأُنس بقربهم

(١) الرسالة المكتوبة فى خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه (٢) كان فى ذاك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور فى ابن الأثير

المحبوب ، إذ كانت المكاتبة بيننا طول هذه الأيام لم تردنى إلاّ شغفاً بمحاسنهم واستطلاعاً إلى حيا بجالهم . ثم إنى قصدت باب فقيه الاسلام وقد اتخذه المهدى (رحمه الله) قاضى قضاة المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادى والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه فى درب أبى خَلَف[1] من ناحية الكَرْخ الدارَ التى لم يَبْن مثلَها إلاّ ملك أو أمير ، فألفيته فى مجلس حافل بالأدباء والأمراء وعليه[2] المبطَّنة والطَّيلسان وقَلَنْسُوة طويلة[3] قد حوَّطها بعمامة سوداء دعته الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم ، وهذا هو الزِّىُّ الذى يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء[4] لتمييزهم عن سائر الناس ، فكان لِمَلْقانا موقفٌ يستبكى الحمام لفرط ما بنا من الأشواق ، وصرفتُ اليومَ بقيّتَه بحضرته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأنى بأحوال القوم فى المدة التى كنت منفصلا فيها عن دار السلام ، لأن القضاة قد يَرِدُ عليهم من طرائف الأخبار[5] ما لا يرد على غيرهم ، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليُجلسه على سريره بجانبه[6] ، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلِّد القضاء[7] ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلاّ من أشار به إليه .

ولقد ذكرت لك فى رسالتى من خُراسان ما اتصل بى من أخبار المهدىّ والهادى رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة

---

(١) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠ (٢) المسعودى ٢ : ٣٣٧

(٣) وجدت فى العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩ (٥) الاتليدى ٧٩ (٦) الاتليدى ١٤١ (٧) الماوردى والاسحاق ٩٠

فقد حدثني بها لسانُ الشريعة على إسهاب لا موضع له في هذا الكتاب ، على أنّ المهديّ مابرح مستمراً إلى انقضاء خلافته على ما ذكرتُ لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت الشريعةُ فى أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لانقطاع النظر فيها إلى أبي يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتولَّ القضاء الاّ أهلُ العلم ومن لا يميل به طمعُ النفس إلى الخروج عن جادّة العدل . وقد أقرّ رجاله فى وظائفهم إلاّ وزيرَه يعقوبَ وقد وضَح له ميلُه مع أهل البيت[1] ورفع إليه المفسدون بيتين من الشعر أغرَوْا بشاراً على قولهما ، وأطاروا ذكرَهما كل مطار .

بني أمية هُبُّوا طال نومُكُمُ ... إنّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ داود
ضاعت خلافتكُم ياقومِ فالتمسوا ... خليفةَ الله بين الناى والعود

فنكبه لذلك وأُلقِيَ في بئرٍ عَمِيَ فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات في خلافة الرشيد قبيل عودتي من خُراسان .

وكانت مأثُرَة المهديّ في آخر أيامه وضعَه البريدَ[2] إبلاً وبغالاً في كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لِمَا يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من العرب فى مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرّفة كما كان على حذر من أهل الشام فى استظهارهم على عماله بمن يجاورهم من العرب الذين ما كانوا

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودى ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطى والكنز ١٠٦

بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدىُّ إمدادَ عُمّاله بالرجالِ والعربِ بالمال حيناً بعد حين ، حتى دعته الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دِمَشْق(١) و بيت المقدس ، (٢) وأخذ فى إزالة الخلاف الذى كان بينهم فى بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجِسام .

أما الهادى (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكّل بهم رجلا يقال له عبد الجبار(٣) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم فى الزَّوْرَاءِ حتى لم يدع منهم عينا تطرف . فما كان الزنادقة فيما أخبرنى أبو يوسف إلاّ لِزازَ شرٍّ فى عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهرٌ لهم من الظرافة وحسن السيرة ، (٤) كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله فى رجل قد اتُّهِم بالزندقة (٥)

لستَ بزنديق ولكنما أردت أن تُوسَمَ بالظَّرف

فانما يتعدَّوْن مذهبهم من التكذيب بالانبياء وتعليم الناس بُغضَ الخلفاء إلى أن يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله ، فقل للمفترين على الله إنه يُحْضِرهم فى يوم لا يُغنى عنهم شىء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يَلِ الخلافة قبل الهادى فى سِنّه ، ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدة ولايته سنة وشهرين إلاّ أياما ، وكان ذا جبروت(٦) وإذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المُشَهَّرة والأعمدة والقِسِيِّ

---

(١) قضاة الشام (٢) الأغانى ٦ : ٦٧

(٣) الأغانى ٣ : ٧٢ (٤) ابن الأثير ٦ : ٣٨ (٥) الأغانى ١٧ : ٧٢

(٦) الخميس والمسعودى والسيوطى

الموتَّرة ، ولذلك كثُر السلاح فى عصره ، وأحْرَز منه الشيء الذى كان يحب التباهىَ به ، حتى قيل إنه أعطى شاعراً مدح سيفا عنده كان لعمرو بن معدى كرب يقال له الصَّمْصامة عشرين ألف درهم على هذه الأبيات .

حاز صَمْصامة الزَّبيدىِّ من بـــين جميع الأنام موسى الأمينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا خيرَ ما أُغْمِضت عليه الجفون
أخضرُ اللون بين خديه بُرْدٌ من ذُعاف تميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعقُ نارا ثم شابت به الذعافَ القيون
فاذا ما سـلـلته بهر الشمـــس ضياءً فلم تكد تستبين
ما يبالى من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصارَ كالقَبَس المُشْــعَل ما تستقر فيه العيون
وكأنَّ الفرندَ والجوهرَ الجا رى على صفحتيه ماء مَعين
نِعْمَ مِخْراقَ ذا الخليفةِ فى الهيجـــاء يقضى به ونعم المعين (١)

وقد صارت المراتب فى أيامه الى المنتشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيا قبل نزوحى إلى هـذه الرحلة التى امتدت بى طويلا . وكان على وزارته الربيعُ بنُ يونس حاجب أبى جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلَّى بن طريف ، (٢) وعلى حجابته الفضلُ ابنُ الربيع ، وعلى جنده آل أبى العلاء ، وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليه من النَّدْمان ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب ، وقد بلغ عنده من الحُظْوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيرُه فى ذلك ، (٣) فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه

(١) الحصرى (٢) الاغانى ٣ : ١٥٣ (٣) المسعودى ٢ : ٢٠٢

إلى مساماة العظماء من أهل الرأى والتدبير، غير أنى ما عرفت له شيئاً من هذه المحاسن وهو صبىّ ولا رأيت فى دولته الزُّهاءَ الذى أشرق على دولة المهدى قبله ثم الرشيدِ مِن بعده ، لأنه كان منهمك النفس بحب اللهو وولد له فى فتَاء سِنّه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى [1] فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرُهم أهلُ لهو وطرب . وكان أقربهم إليه مكانا وأفضلهم عنده منزلة إبراهيمَ المَوْصِلىّ النديم ، وهو أعجمىُّ الأصل بارع فى جميع فنون العلم والأدب إلاّ أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه [2] وسياط ، فبلغ من الأجادة فيه المكانَ الذى لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز ، ولذلك كان الهادى إليه أميلَ منه إلى سواه من الندماء ، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف ، [3] وقد قال لى اسحق ابنُه والله لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب [4] .

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولمّا جُلْتُ فى المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها فى سَعة من العمران ما كنت أعهدها قبل هذا الوقت ، فما كفى أهلَها الموسرين ما رفعوا فى مدينة المنصور من المبانى المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقى المعروف بالرُّصافة ، فبنَوْا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات ، [5] وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤   (٢) الأغانى ٥ : ٤   (٣) الحصرى ٢ : ٢٠١
(٤) الأغانى ٥ : ٦   (٥) قال ابن خلدون نقلا عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها فى بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار

تزيينها بالبنايات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ، تجتمع محاسنه فى جزء من محاسن المدينة التى أُحْدِثَتْ فى جواره .

ولقد أكبرتُ من بغداد بلوغَ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها ، وتموجهم كالبحر فى أرجائها ، يقال إنّ عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف ،(١) وهذا جمع لم يكن مثلُه ولا قدرُ نصفه فى مدينة من العالم قط ، فانما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أنْ ليس فى المدن أيْمَنُ(٢) ولا أيسر من الموضع الذى يتكوَّفُون فيه تكوُّفَ الرمال . ثم أعظمتُ بلوغَ النعيم فى أهلها بما رأيتُ من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التى لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسّع المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذى يقع فى الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وإنه يتعذر علىّ بهذا القلم الذى لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة(٣) التى أقلُّ ما تصيبه من الشرف أنها تزهو ببهاء السلطان . وتضم إليها من عيون الأعيان كثيراً حتى إذا لَقِىَ السائر جماعة منهم فى الطريق لم يفطِن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلَّهم فى الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدن أن تحمل سكناه وتسع جنده وغاشيته والطامعين إليه من كلّ الوجوه(٤) فلقد

متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لاتساع العمران .

(١) فى الاتليدى أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ابن الاثير ٦ : ٩٦ وأبو الفداء ٢ : ١٩ (٣) يقول الحصرى أن أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم كأن بغداد مسروقة من حسنه وظرفه (٤) الأغانى

يمشى أهل النعمة فيها بالغلمان[١] والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيداً عن الصدق ، فشاهدت فى محلة العتّابية [٢] أميراً قد ركِب فى مائة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملئوا الطريق وسدّوا على الناس سبيلهم ، إلى أن مرّ ، وشاهدت فى مَشْرَع القصب[٣] على دِجْلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكِب عظيم من الخيل والرَّجْل كأنى به قيصر على مركَبه أو كسرى فى جلال موكبه . وربما عدّ المحصى فى ولد العباس أكثر من ألف رجل[٤] يركبون فى مثل هذا الجمع ، وكلهم فى سَعة من الثروة وترف من الحضارة . وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبُّهاً بما يرون من الرشيد فى إقباله على الدنيا بطلب النعيم ، حتى يَصْدُقَ المثل الذى يقول « الناس على دين المَلِك » ، فهو الذى ألبس الدنيا هذا الجمال بسَعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمحَ منه ببذل المال . [٥] يقال إنه ينفق على طعامه فى كل يوم عشرةَ آلاف درهم ، [٦] وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لوناً من الطعام ،[٧] وقد أخبرنى أبو يوسف أنه لما بنى بزُبَيْدَةَ بنتِ جعفر اتخذ وليمة لم يَسْبِق مثلُها فى الاسلام ، وجعل الهباتِ فيها غير محصورة حتى كان يهَب أوانىَ الذهب مملوءة بالفضة ، وأوانىَ الفضة مملوءة بالذهب ونوافِج المسك وقطع العنبر ،[٨] وبلغ جملة المُنْفَقِ فيها من بيت المال خمسةً وخمسين ألفَ

(١) الاغانى ٤ : ١٠٤ و ٥ : ٨٤ وابن الاثير ٥ : ١٤١ و ٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥ (٢) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩
(٤) فى مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفاً (٥) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١ (٦) المسعودى ٢ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١
(٧) السيوطى والعقد الفريد وتزيين الاسواق والمقدمة

ألف درهم ، وأمر أن تُجْلَى زبيدة فى درع من الدرّ لم يقدر أحد على تقويمه بثمن ، وزينها بالحُلِيّ حتى لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من الجوهر ، وهذا شىء من الاسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم [١] ولا صِبية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير .

ومن جمال الدنيا فى هذه الأيام أنّ الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة الانفاق والتبذير ، فانّ زبيدة زوجه تصنع أعمالا تفوق مَقْدُرَةَ الملوك ، كَمَثَلِ اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورةَ كل طائر من الذهب وأعينُها من يواقيتَ وجواهر ، يقال إنها أنفقتْ عليه نحواً من ألفِ ألفِ دينار [٢] وكَمَثَلِ اتخاذها الآلةَ من الذهب المرصّع بالجوهر ، والثوبَ من الوَشْيِ الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألفِ دينار ، والقبابَ من الفضة والأَبَنوس والصندل عليها الكلاليب من الذهب الملبّس بالوشى والديباج والسَّمُّور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمعَ العنبر واصطناعِها الخُفَّ مرصعاً بالجوهر واتخاذِها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها ، [٣] إلى غير ذلك من الأمور التى تدوّن فى سيَر الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات .

---

(١) وجدت فى بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ فى قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعمائة خادم منهم ثلاثمائة عبد اسود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع فى جانب العظيم من ترف العباسيين (٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر ان التى صنعته هى أم المستعين (٣) المسعودى ٢ : ٤٠٢

ولم أر مثل هذا الترف فى غير دور الخلافة إلاّ عند البرامكة الأمجاد، وإليهم ينتهى جمال الملوك وإشراقهم، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يَرَوْهُم أكثرَ مما يجلسون للخليفة. ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المُحَوَّلِ من الجانب الغربى[1] فى موكبٍ عظيم وقد طرّز ملابسهُ وبين يديه الجُند والغلمان، والحَفَدُ والأعوان، وهو واضع طَرْفه على مَعْرَفة فرسه، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبراً وجلالة، وكان الرشيد نفسهُ إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة، والخزائن المجزّعة، والمطارح من الوشى والديباج، والجوارى يرفُلن فى الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التى لا يدرى ما هى لطيبها، خُيِّل إليه أنه فى الجنة بين الجمال والجوهر والطيب.

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التى لا وراء بعدها من التمتع بسَعة النعيم، وربما كانت مجالس الطرب فى دورهم أجلّ منها فى دار الرشيد وأجمع لمُعَدَّات اللهو،[2] لأن عندهم الغوانى[3] اللواتى لا مثيل لهنّ فى البلاد ولا سيّما فَوْز وفريدة[4] ومَنَّةُ[5] وهن أظرف القيان غناء وأحسنهن ضرباً بعود.

واعلم أنّ الغناء من قبل البرامكة ما كان يُعَلَّم فى دور الامراء لغير الصفر والسود،[6] فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلّموه الجوارىَ الحسان[7] ليزيد جمالهن فى الغناء تأثيرا فى النفوس، وقد أخبرنى نافذ من بعض حجابهم

---

(١) ذكره الأغانى ٦: ٧٨ والمسعودى ٢: ٢٣٧ (٢) الأغانى ١٥: ١٤١
(٣) الأغانى ١٥: ١٤١ (٤) الأغانى ٣: ١٨٣ (٥) الأغانى ٤: ٨٧
(٦) الاغانى ٥: ٩ (٧) الاغانى ٥: ١٤ و ١٧

أنه لما زارهم الرشيد فى يوم من أيام فراغه أخرجوهن الى البستان فاصطففن مثل العساكر صفين صفين ، وغنَّينَ وضربن بالعيدان ونقرن على الدفوف إلى أن طلع الى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد من الملوك السالفة أنه نال من الطيّبات ما هو موفور عند ملوكنا فى هذا الزمان ، فكأن بغداد قد ألقت جوانبها على مهاد الدَّعة ، ووُجِدَت لأهلها أسبابُ النعيم والكِبْرِ[1] بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم فى طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقُص شيأ فشيأ عند من هم أقل منهم فى الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدرٍ لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات فى جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالاسفار التى اكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب ، وأوجدت لهم التجاراتِ والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأفخر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عَمَرت عندهم الأسواق ، وتطرّقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتياعهم السلاح المنزّل بالذهب ، وتنافسهم فى الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العددَ الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رُسُلَهم فى طلبه من الجهات ،[2] فاما حُمِل اليهم كلُّ غالٍ ونفيس من البلاد تحقق لدىَّ أن

---

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد (٢) ذكره تزيين الاسواق ١ : ٣

محاسن الدنيا قد اجتمعت فى بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بُعَيْدَ عودتى من خراسان ، وقد أقيمت فى الموضع المعروف بسوق النخاسين ، [1] وهم الرجال [2] الذين يجلبونهن من أطراف الدنيا إلى بغداد ، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولَّدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن من الغانيات اللاتى يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده ، [3] وبما يتخذن من العصائب التى ينظمنها [4] بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر فى هذا الوَهَم الطارىء بعد أن يرى تطارحهن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغوانى المُتْرَفات يتخلصن سراً من حيث لا يُحْبِبْن المُقام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون فى بيعهن مثلَ تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هى العادة المألوفة فى البيع والشراء . ولقد وقفت فى ذلك اليوم والدلّال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسنِ ما يكون من أوصاف الجمال [5] وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة

(١) الاغانى ٩: ١٢ٸ (٢) الاغانى ٥ : ١٢٦ (٣) الاغانى ٢ : ١٧٥؛ والعقد الفريد ٣ : ٤٣٩ (٤) الكنز ٤٧ (٥) الاغانى وحلبة الكميت

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغاددة فى ترفهم المفرط فإنى رأيتهم يزينون مجالسهم بالفَرْش الفاخر والمتاع الثمين ، ويُلَبِّسون حيطانها بالوشى والديباج ، ويُعْنَوْن بغرس الأزهار فى جنانهم ، حتى إنهم لَيجلبون لها الرياحين [(١)] من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يُقَوَّم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار ، [(٢)] ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون الى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويتفننّون فى ملَاذّ الطعام إلى أن يشتروا الصيد فى غير أوانه ، والثمارَ فى غير إبّانها بما يزن مثله فضة ، ويتمتعون بالذوق فى غير طعامهم بما يمضُغون من الطيب وورق التانَبول الهندى الذى يمزِجونه بالنُّورة المبلولة مع الفوْفَل لتطييب النكهة وتشهية الأكل وإحداث الطرب والأَرْيَحيّة فى النفس ، [(٣)] ويتخذون مقاعدهم فى أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقُشون فى الرُّخام فاذا ما أصابت الأجسادَ منها الرطوبةُ الوافية بترويح النفس اتخذوا فى السقوف مراوح [(٤)] يعملون لها حبالا تجرها ، فيجذبونها فيُهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون فى اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحِلْية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التى لم تبلغها الأمم المُتْرَفة من قبلهم .

---

(١) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودى ١ : ١٨١

(٢) الاغانى ٥ : ١١٥

(٣) المسعودى ١ : ١٠١

(٤) الكشكول والاغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت اليه فى هـذه الأيام ، فأكتبُ الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلنى به من جميل العطف والاحسان ، فانى مضيت إلى داره فى ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة. فأصبت ابنَ البواب جالسا فى حُجُرات الحجاب ، وهو الذى يخلُف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة ، (١) فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحيـة ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه (٢) لنفسه تجاهَ دار الضيافة (٣) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشه وأفرغ العناية فى تجميله بأفخر أنواع الزينة ، وأقام فيه الأساطين التى يصطف بجوانبها الغلمان ، (٤) وقد بناه على دِجلة بحيث يسمع صوت الذين يَعبُرون فى الزوارق ، (٥) وكثيرا ما كنت إذا زرته بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشُباك يستمع غِناء الملاّحين فى الزلالات ، (٦) فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمنى اليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفنى برقيق الكلام.

وكان الرشيد طويلا عَبْلَ الجسم أشـــقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالهم ، (٧) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغَى لمتحدث بين يديه حوّطه ببصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق فى حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفرّاش (٨) أن يأتى بما أتكىء عليه ، (٩)

---

(١) الاغانى ٢٠ : ٤٢ (٢) الاغانى ٥ : ٣٣ (٣) قصر من قصور الخلافة ذكره الاغانى ٦ : ١٣٣ (٤) الاغانى ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣ (٥) الاغانى ٩ : ٦٧ (٦) الاغانى ٣ : ١٧٧ (٧) العقد والخميس والسيوطى وابن الاثير (٨) ذكره الاغانى ٩ : ٦١ (٩) ابن الاثير ٦ : ٣٨ والاغانى ٥ : ٢٣ و٩ : ٦١

وهذا تعطفٌ من الخليفة لا يكون الا للبرامكة وأبي يوسف وجِلّة المشايخ من ولد العباس . ثم أنه استدناني (١) إليه وأخذ يحادثني بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لي بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لي حديثه عن خُراسان فاخبرته عما كان هناك من الاختلال ، وأنَّ الفضل رَتَق الفَتْق الذى دبره أهلها بالمِحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنَّكال . وكنت عند ما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفي كما جرت العادة بألاّ يكلم الخليفةَ أحد بما فيه الوَهْن إلا بادر إلى سيفه (٢) تعظيما للامر وقياما بواجب الاجلال . فقال سبحانَ الله لقد أوصينا الفضل بهم خيراً لأنهم محبون لنا ، (٣) وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا ، ومن لهم حق الدالّة علينا وحرمةُ الوسيلة عندنا ، فقلت يا أمير المؤمنين إنّ الفضل أخاك لم يمكّن السيف في رقابهم إلا بموافقة القوّاد الذين إذا ما شاورهم في الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلة خوارجَ قد تراخت بهم الحال . وصارت فتنتهم إلى سوء المآل . فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الافاضة في هذا الحديث ، وأخذ ينكُت الأرض بشيء في يده ، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذى يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند ؟ فقلت له إنّ في خراسان تجارةً تباع بأبخس الأثمان فاذا أمن السابلةُ الأعرابَ جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أمم البحر ، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ، ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند إذ لا بد للراعي من حِراسة

---

(١) الاغاني ٥ : ١٠٦ (٢) الاغاني ٥ : ٥٩ (٣) العقد الفريد وابن الاثير ٦ : ٧

الرعية ، (١) ولقد يكفى التجارَ ما أمّنا لهم من السبل فى غير الديار العران ، وما احتفرنا لركبهم من الرّ كايا ، وأوجدنا لهم من المناهل فى البُلْدان العامرة التى نحب أن تكون سوق التجارة فيها دارّة ، وأما تجار خُراسان وما أليها من البُلْدان النائية فانا لا نحسَب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم .

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضه عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة ، ثم يُقبل على نفسه بالتأمل والفكرة . فأُوهِمْتُ أنه يرى فيها مسألة تتقبض نفسه دون بسطها إلىّ ، فاذا الأمر على خلاف ذلك ، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وايثار بعضهم على بعض بالخلافة (٢) فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتفرسه الرشيد وقال له ما وراءك يامسرور ؟ فقال ما تحب ياأمير المؤمنين . ثم قام مَقامه الذى كان إذا قامه علِم الرشيد أنه يريد أن يُسارّه بشىء ، (٣) فأومأ إليه بالدنوّ فألقى فى أذنه كلاماً ثم تنحى ، فقال لى الرشيد هذا خادمنا الأمين نرتاح إليه فى الأسرار والمهمات ، لم يحدثنا جهراً بحضورك ولكنه سارّنا فى أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمَن ضعفه ، (٤) ونعرف فيه حزم المنصور (٥) ونُسكَ المهدىّ وعزةَ نفس الهادى ، مع أن بنى هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد . (٦)

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن يُنْقَضَ الحبل الذى كان أُبْرِما

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٥٨
(٣) الأغانى ٥ : ٣٣ (٤) المسعودى ٢ : ١٠ والمستطرف ١ : ٩٣
(٥) الأغانى ١٧ : ٨٠ (٦) الحصرى ٢ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

فلما رأيت بلوغ القلق فى نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدم به يحيى إلى أبيه ،[١] والفضلُ إليه[٢] من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمى بأن ذلك أمر لا يجرى فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذى يريده الرشيد بعد مارأينا من العباسيين تطاولَهم فى أمر الخلافة ونقضَهم العهود التى كانوا يكتبونها على أنفسهم فى حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر[٣] لما رسخَت دولته ، ومضت فى الناس كلمته ، لم يجد من نفسه رادعاً لخلع ابن عمه من الولاية وصيّرها إلى المهدىّ من بعده ، فلما وَلِىَ المهدىّ بحيلة الربيع ، وأخذ فى استمالة الناس بما فرّق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهاره أغراضه فيهم إلا المتابعَ له والموافق على خلع ابن عمه كما علمت . ثم لما صارت الخلافة إلى الهادى وفى أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلَعه[٤] عنها ويصيّرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمتُ بعد الأوْبة من خراسان.

وإنما كان المأمون أحقّ بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن أمه هاشمية مثله ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر على ذلك ، فكان يخشَى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوعَ الفتنة بينهما وزوالَ الخلافة عنهما جميعاً إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبى العباس ، فان عمّ عمّ عمّ الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بنُ علىّ عمُّ

---

(١) المسعودى ٢ : ٢١٥ (٢) الأغانى ١٧ : ٧٨ وابن الاثير ٦ : ٤٣

(٣) ابن الأثير ٦ : ٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١١ (٤) ابن الأثير ٦ : ٥٨

العباس بن محمد والعباسُ عمُّ سليمان بنِ المنصور وسليمانُ عمُّ هرون [١] فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا يسَع الرشيد مخالفتُهم في تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأى الذى تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة فى بيته ، ومصيرِها إلى من يحبُّ [٢] من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبى جعفر

هذا فصل أفْرده لذكر سياسة الرشيد وبيانِ الموازنة بينه وبين أبى جعفر [٣] إن صحت المقابلة بينهما ، فانى لم أجد فى الملوك من جمع فنون السياسة الى عقل الملوك وفضلهم [٤] وحكمتهم ودهائهم مثلَه ، تجتمع محامدُه فى قربه من الخير وبعده عن البغى الذى كان طبيعة فى أبى جعفر وبعض العباسيين ، حتى اذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تُعاد إلى الناس الضِّياع التى اغتصبها آباؤه وتُردَّ الأموال المغصوبة إلى أهلها فى جميع النواحى والأمصار ، [٥] فلو لم يكن له من المآثر غيرُ هذا لكفى الناس فرجاً ورحمة واسعة ، بعد ما شمِلهم من المكروه فى خلافة أبى جعفر وما استمر عليه المهدى من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إمّا لطمع فى استغلالها ، وإما استصواباً لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد فى أموالهم .

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبى جعفر بما هو آخذ فى سياسته من

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) وهو المأمون عبد الله (٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقتفى سيرة جده فى السياسة ويطلب العمل بآثاره

(٤) الفخرى ٢٣٣ (٥) الماوردى ١٥٦

الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله تجلة كلما عظم قدرهم واستفحل فى الاسلام ملكهم ، فهذا روح من أمراء آل المهلب، لما عظم فى الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ النعمة الواسعة عليه ، وجعل الولاية من بعده إرثاً فى ولده ، وكذلك إبراهيم من أمراء الأغالبة ، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمره على إفريقية إلى أطراف الثغور ، وجعل له الولاية فى بيته ليكون ممتنعاً على العدو وكفيلا برد الفرنجة إلى ماوراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التى فيها مصلحة الملة وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوف ما كان ليصبر على مثله أبو جعفر مع ماعرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ، فان كان المنصور يحتال للامر حتى لا يقع فيه ، فان الرشيد يحتال لما يقع فى يومه من الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام .

ولقد سمعت من يقول فى مجلس المراواة إن الرشيد يقتفى سيرة جده فى السياسة ، وذلك مردود عندى من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ، وإلا فان كان الرشيد يمضى بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالاحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبته ، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم ، إذ يكون لصاحبها من دالة الرعية غبطة يحرمها البغاة الذين فى نفوسهم مرض من الظلم ، إذ يحجبهم عن رعيتهم ستر الخوف ، ثم يقتلهم استنكار من حولهم من الناس والأشياء ، كما تقدم فى الكلام على أبى جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيظن فيها خروج عن العدل لاستمراره

على هضم حقوق الذُرِّية ، وإن لم تكن مُجْراةً على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم فى كلٍّ الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف . ولقد كنت أساير الرشيد فى بعض الأيام فقال لى بلغنى أن العامة يظنون بى بغض علىّ بن أبى طالب فوالله وتربةِ أمير المؤمنين أبى إنّى ما أحب أحداً حبى له ، ولكنَّ هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضاً لنا ، وسعياً فى فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثارهم من بنى أميّة ومساهمتنا إياهم ما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بنى أميّة اليوم منهم إلينا فكنت فى ذلك الوقت بعيداً عن الوثوق بصحة هذا الايهام ، ولكنْ ظهر لى بعد ذلك أنّه لا يروم إقصاءهم إلاّ على غير مكروه يُصيبهم ، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذى يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة فى يده من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفساً ، فلقد علمت أن المكروه الذى ألمَّ بيحيى بنِ عبد الله بنِ الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعْه مخالفتُهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنةَ ، وكذلك مَقْتل موسى ابن جعفر الأمامِ لم يقع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن مُتَّهَماً فى بدعة ولا ظنيناً على دِخْلة مكروهة ، ولما قتلوه فى حبسه أظهروا أنه مات حتفَ أنفه ، ومشى الرشيد فى جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمى ، فكنت أحيط به فى ذلك اليوم مع البرامكة فسمعته يترحَّم عليه ، ويُظهر براءته من دمه ، غير أنّ تغاضيَه عن هذه المؤامرة ، وإنْ هو لم يدخُلْ فيها غَرَرٌ يُسأل عنه يومَ الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يتّبعوا سنته التى هى العدل ، ولا يتسامحوا فى قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبى جعفر إلى الغاية التى يرجوانها جميعاً من تأييد الدولة بها ، وإنْ لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدتُ للرشيد أعزه الله فضلا فى تدبير المملكة أحقّ بالثناء الجزيل . وأبقى للذكر الجميل مما رأيناه لأبى جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيدَ من المشقة فى ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظرِ فى تَظلُّم الناس من ثِقَل يقع عليهم فى الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور العُمَّال . فاذا صار إلى البُلْدان العالية مما وراء خُراسان حيث لا يُعْرَفُ اللسان العربىّ أخذ التراجمة (١) معه حتى لا يفوتَه شىء من أمر الرعية ، فهو يحجُّ سنة ويغزو سنة ، كذلك عادتُه من يوم وَلِىَ الخلافة (٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه الهمة منه (٣)

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدْهُ ... ففى الحرمين أو أقصى الثغور

وقال الآخر (٤)

أَلِفَ الحجَّ والجهادَ فما يَنْــفَكُّ عن غزوتين فى كل عام

وربما رام فى أسفاره أو بالزَّوْراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث والأخبار فيتخفى فى زِىِّ التجار، (٥) ويطوف الأسواق مع جعفر وزيرَه ومسرور خادِمه لاستطلاع ما لا يصل إليه خبرُه من أمر السُّوقة والعوام ، فنجَم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التى صلَحت

---

(١) المقريزى ١ : ٨ (٢) هو أمر معروف تجده فى كتب المؤرخين وزاد فى العقد الفريد على ذكر حجه ماشيا أنه لما مشى الى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما (٣) أبو الفرج والخميس ٢ : ٣٣١ (٤) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١ (٥) الاغانى ٦ : ١٣٧ والاتليدى ١٢٦ والاسحاقى ٩١

بها دولته ورعيتــه جميعاً ، فقد قال جعفر (أعزه الله) إنّا ما ضبطنا بغد بالشُّرْطَةِ ولا عُنِينا بتقدير الأوزان وتمييز المغشوش من السِّكَّة إلاّ وجدنا من الاختلال فى تَطْوافنا بين الناس .

البرامكة نُكْتَة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التى يباشرها الرشيد إنما هى باشارة البرامكة الذين رفعوا مَنار الاسلام(١) بصلاح مشورتهم إليه فى أمور الخلافة ، ولذلك صَيَّر إليهم النيابةَ فى الدولة(٢) والنظر فى ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة ، وحفظِ اللســان فى بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد ، (٣) فصار جعفر يُسَمَّى بالسلطان إشارةً إلى عموم نظره فى عموم الخلافة ، لأن الخِطط كلَّها بيده إلاّ الحِجابة لم تكن له لاستنكافه عنها ، لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود فى تحياتهم وخطبهم والآدابِ التى تلزم بين يدى أمير المؤمنين ،(٤) وذلك مما يُنزِّه نفسه عنه ، وهو بالموضع الذى علمتَ من جلالة القدر والقيام بسياسة الدرلة .

ولقد كان يحيى أعزه الله قائماً بأَوَدِ الوزارة من قبلُ ، وهو الذى قلَّد الرشيدَ الخلافةَ بحكمته ودرايته(٥) حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلستنى فى هذا المجلس بيمنك وبركتك ، وقد قلَّدتنى الأمر يا أبت ، ثم دفع إليه خاتَمه وقلَّده أمرَ الرعية بأن يحكم بما يرَى ، ويعزلَ من يرَى ، ويستعملَ على

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٧ (٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) المفدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دونوا اللغة فى أيام الرشيد (٤) المقدمة ٢٠٧ (٥) ابن الاثير والفخرى والطبرى

الولاية على من يرى ، وفى ذلك يقول إبراهيم المَوْصِلىُّ النديمُ (١)

أَلم ترأن الشمس كانت مريضة   فلما أَتى هرون أَشرق نورُها

تلبّست الدنيـا جمالا بملـكه   فهرونُ واليها ويحيى وزيرُها

فـكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة فى المشرق حباً فى الرشيد أَنْ تعظم فى الاسلام صولتُه ، على حين لا يَحْرِم أهلَ البيت قيامَ ملكهم فيما وراء البحر ، مع ما يكون فى ذلك من حقن الدماء الطاهرة ، وسلوك السنن الشريفة ، فانتج له حسنُ نظره أن يُطَوِّقَ أمر الجند إلى غير العرب ، الذين لا يقدرون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من أخوانهم بما يكون بينهم من القرابة والدَّالّة ، فلقىَ دون بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبةً كادت تُفْضى إلى الفتنة ، بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد(٢) وغيره من أمراء الجيش ، إلاّ أن الرشيد كان على موافقته(٣) فيما يرى فيه مصلحتَه ، فاذا فتح الناس عليه باب الفُرْقَةِ أرسل إليهم الفضل أو هَرْثَمَةَ بن أَعْين(٤) فجبرا الوَهْىَ فى أقلَّ من طَرْفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ، ففوضها الرشيد إلى الفضل ثم إلى جعفر(٥) بعدَه ، وعهد بالمراتب إلى إخوته وأقاربهم ،(٦) وهم بمكان من الفَطانة(٧) التى توارثوها مع المجد طِرافا وتِلادا ، فقاموا بأَوَدِ

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٠٧ وابن الاثير ٦ : ٣٩ والأغانى ٥ : ٤١ والمستطرف ٢ : ٩٧ والاتليدى ٩١ والمحاضرة ٢ : ٤ : ١١ والسيوطى وابن خلدون (٢) ابن الاثير ٦ : ٥١ يذكر انحراف بنى شيبان عن البرامكة كما مر (٣) المقدمة ١٥٩ (٤) راجع كتب المؤرخين (٥) و (٦) المقدمة والعقد الفريد (٧) ابن خلكان ٢ : ٣٦١

الوزارة وجمعوا إليهم مراتب السيف والقلم ، يقول سَلْم الخاسر [١] فى شرف الدولة بمحاسن عقولهم .

اذا ما البرمكيّ غدا ابنَ عشر   فهمتـــه أميرٌ أو وزير

إلا أنه كان منتهى نظرهم فى السياسة [٢] إلى جعفر ، هذا السلطان ، وهو حاضر الرّوية ، مؤيّد البديهة ، جامعٌ لخصال الخير ، مؤتمن على الأسرار بارع فى مهمات الأمور ، وليس فى أهل الأدب من هو أذكى [٣] ولا أفطن ولا أعلم بكل شىء ولا أفصح لسانا ولا أبلغ فى مكاتبـة منه ، [٤] خلق جميل ، وأصل نبيل ، وعلم جزيل ، وكان الرشيد يقدّمه على الفضل بما يُسرع فى استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب ، كما يقول فيه الشاعر .

وزير إذا ناب الخلافة حادث   أشار بما عنه الخلافةُ تصدرُ

ووجدتُ فى نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقته فى ساعة من نهار أو ليل ، [٥] وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجلس بنى هاشم على الكراسىّ والوسائد [٦] دونه ، وربما قدمه فى المشورة على أحبّ أهل بيته إليه ، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلاّ برأيه ورضاه ، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بنى هاشم [٧]

---

(١) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٢) العقد ٣ : ٢٧ (٣) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان (٤) الاغانى ٤ : ٨٥ والحصرى ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢ (٥) الاتليدى (٦) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة الاغانى ٤ : ٩٢ (٧) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع نقفور فى اللامس على جانب البحر على اثنى عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة . ابن الأثير ٦ : ٥٧

أن الرشيد غضِبَ عليه فقصد باب البرامكة ، فقال له جعفر أنت تقصدني فهل من حاجة تبلغُها مقدُرتي وتحيط بها نعمتي فاقضيَها لك ؟ فقال عبدالملك نعم . إنّ في قلب أمير المؤمنين عليّ مَوْجِدَةً أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه فيّ ، فقال له جعفر قد رضيَ عنك أمير المؤمنين ، وزال ما عنده منك ، قال عبد الملك وعليّ أربعونَ الفَ دينار دَيْنا ، قال هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأني أُجِلُّ قدرَك عن أن يصلك بالمال غيرُه ، قال وابني إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الألوية على رأسه ، قال لتطِب نفسُك ، إنّ الرشيد قد ولاّه مصر أو قال ماشئتَ من البُلْدان . فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به ، حتى إذا كان الغدُ دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألفَ دينار ، وكتب سِجلّ ابنه على مصر (١) . فهذا أمر يدلك على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المـاتّة المرعية والشفاعة المقبولة عنده ، بحيث إنه يضمن عنه ضمانات لا يجد بدّا من وفائهـا ، كما يدلكُ أن مشاركته في الملك لا تقف على حدّ السياسة فيما يبديه له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنمـا يتناولها في أكثر الأحيـان بما بينهما من الدّالّة التي ليس مثلُها بين الاخوان ، (٢) فما أذكر أني رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضَره ، (٣) بل كثيراً ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة ، (٤) ويجلسان معاً . على محبـة ومصافاة خُلاّن .

---

(١) الاغاني ٥ : ١١٩ والفخرى والابشيهى ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢ (٢) الحصرى ٢ : ١٠٢
(٣) الاتليدى ١٦٩ (٤) الأغاني والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون

وإنْ كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلاً في تدبير مملكتها أتمَّ وأجلَّ في عين الرشيد، وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب، ثم يبيتَ على خطر الفتنة التي لا يأمَن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده، فلم يكن بُدٌّ لصلاح أمره من سلوك السبيل الذي مهّدَه له جعفر لتتم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق، فوقفت مصلحة الدولة والإسلام جميعاً على أن يتبع الرشيد هذه الخُطَّة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدَّم، ولجعفر من بعده الفضلُ اللاحق والمتمِّم.

ولقد شمِلت عناية جعفر خِطَطَ الدولة كلَّها بين مراتب سيف وقلم. إلاّ أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين (١) أشدَّ منه عناية وأقرب من نفسه ميلا إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفُرْسان الذين لم يرَ لهم مع ماهو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد، التي لا يطيق الأعاجم مناجزتها فيهم، إلاّ أن يصرف إليهم أرزاقهم في إبّانها ويرضيَهم بسَعة العطاء من غير مال الخليفة (٢) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة. وأما مآثره في تدبير المملكة فإنها تتناول ضبطَ الأموال وترتيب ديوان الأعمال والجِبايات (٣) على غير مارسم أبو عبد الله في كتابه (٤) على الخراج، وإنما اقتصد من النفقة قدراً أبقاه للزيادة في أرزاق الجند. وأقام على السجلات قوماً مَهَرة في الحساب، (٥) ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه، وجعل لهذا

(١) إنما دون العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف (٢) ذكر المسعودي ١ : ٨٢ أن الخليفة يعطي الجند من بيت ماله (٣) المقدمة ٢١٢ (٤) ذكر الفخري هذا الكتاب ٦١٦ (٥) المقدمة

الديوان شُعَباً ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضِّياع والنفقات (١) وغير ذلك ، وأحبَّ أن تُحْفَظ دفاتر الخليفة للمراجعة (٢) لِيَنْظُر فيما يُتَصَرَّفُ فيه بموازنته للدخل الذى دُوِّن فى سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر فى أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصحَّ عنده مساواة الناس بالأحكام التى لاتفرُق بين المسلم وغير المسلم (٣) إلاّ فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة ، وأقام رجال العدالة فى جميع البُلْدان لكتابة العقود على روابط الشرع (٤) ليكون فى ذلك حفظُ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكَفالة ونحوها ، (٥) .وأمرهم بأن يجلسوا فى الدكاكين والمصاطب ليسهُل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سَنَن العدل الذى يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشمَلهم به الدولة ، فكان (أعزه الله) يقول (٦) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم

ثم إنه نظر فى صلاح الزوراء ودسّ فيها العيون بإمرة عبد الله بن مالك صاحب الشُّرْطة (٧) لملافاة الخلل الذى يطرأ عليها من وفود الأعراب واختلاطهم ، (٨) وأقام العَسَسَ (٩) بالليل لحراسة الدروب (١٠) إلى أن وقع الأمن فى أحيائها ، وخيّم السلام على أرباضها ، وذلك ينذُر أن يكون فى مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ، فلقد ينمى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه

(١) الأغانى ٩ : ٢١ و ٢٦ (٢) ذكر الأغانى هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤
(٣) الماوردى ٣٩٣ (٤) العقد الفريد ٢ : ٢١١ (٥) المقدمة ١٩٦
(٦) العقد الفريد ١ : ١٣ (٧) ذكره الأغانى ١٧ : ٤٦ والمسعودى ٢ : ٢١٢ (٨) ابن خرذاذبة ١١٦ (٨) الأغانى ٢ : ١٥٧ (٩) الأغانى ٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦ (١٠) المقدمة ٤١٩

نازل بها كلَّ يوم لا محالة ، مع أنها مُحْتَشَد النصرانية ومَباءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم ، مع أنهم حَمَلَة العلم المتقلبون في مهاد العمران على سَعَة واستقامة من الملك ، غير أن الترَّف قد غلب على عامّتهم حتى لا سبيل إلى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء (١)

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعاً بلغت منه الثقة به إلى أن يُطوّقه السلطةَ التى تقارن سلطته ويشترك فيها معه ، ففوّض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذى كان يباشره الخلفاء (٢) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدىُّ من بعدهم كما رأيتَ في موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يجلس (٣) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه فى توقيعه على القِصَص التى يرفعها الناس إليه ولكن بالعبارة التى يتنافس (٤) فى بلاغتها العلماء . (٥) فمن بعض ما حفِظت له من هذه التوقيعات التى جرت مَجْرَى الأمثال توقيعُهُ فى قصة رجل شكاه بعض عماله اليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فاما عدلت وأما اعتزلت . » (٦) وتوقيعُهُ فى قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآيةَ (٧) ووقَّع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك

---

(١) وكان هذا من أسباب التوانى فى دولتهم (٢) أبو الفداء ٢ :١١ وابن الاثير ٦ : ٢٩ وأبو الفرج والسيوطى والفخرى ٢١٢ والماوردى (٣) الأغانى ٤ : ١٦٢ (٤) الكنز ٩٤ (٥) ابن خلكان ١ : ١٤٧ و المقدمة ٢٠٧ (٦) ابن خلكان ١ : ١٤٧ (٧) العقد الفريد ٢ : ٢٣٣

عندنا » ووقَّع فى قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطْلِقه »(١) ووقَّع فى قصة متظلم « طِب نفساً فكفى بالله للمظلوم ناصراً » ووقَّع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدَّمتَ طاعتك وظهرتْ نصيحتُك ولا تغلب سيئةٌ حسنتين» ووقَّع وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطه «الخط خيط الحكمة يُنْظَمُ فيه منثورُها . وَيُفَصَّلُ فيها شُذورُها » ووقَّع فى قصة مُتَنَصِّح « بعض الصدق قبيح » ووقَّع فى قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى يُنْصِفَك »(٢) ووقَّع فى قصة قوم شَكَوْا سوء جوار بعض قرابتهم « يرحَل عنكم » ووقَّع إلى بعض عماله « أنصِف من وَليتَ أمرَه وإلاّ أنْصَفَه منك من وَلِىَ أمرَك »(٣) ووقَّع فى قصّة رجل قد استأذنه فى الحج « من سافر إلى الله نجح » إلى غير ذلك من التوقيعات التى يتداولها الأدباء(٤) إلى أن تبلغ القصة الموقَّعُ عليها عشرين درهماً ثمناً(٥) فى أيدى الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذى ليس له ند فى الرجال ، وقد فَضَلَ الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة ،(٦) وزاد الرشيدَ عزّة ومَنَعَة على نحو لم نره قِدْماً فى دول الخلفاء فتولّى الله مكافأته عن المسلمين والاسلام بما هو واسع له من الجميل ، وجعل المجد لائذاً بجنابه والسعادة حافّة ببابه. آمين

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢ (٢) العقد الفريد ٢٣٣ (٣) الوطواط ٣٥ (٤) السيوطى (٥) المقدمة ٢٥ (٦) أعلام الناس وابن خلكان ٢ : ٢٦١

صلاح التجارة والمعاملة

أخرُجُ بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر مايسمح لى المقام ، فانّه لما توفّرت فى أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التى كانت مستودَع الدّعة عنـدنا ومستقر مَلَاذّ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثلون الـكسبَ ويطلبون حاجاتِ الترف من جميع البُلْدان بما تيسر لهم من أسباب الاتصال فى زمن الخلفاء ، فما أتم الرشـيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيـدها لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آنيتَها ومن أصْبَهانَ وشـيرازَ ويَزْدَ شرابَها[1] ومن خُراسان حديدَها ومن كَرْمان رَصاصَهـا ومن قشمير النسيجَ الملون ، ومن الصين الـكَمْكامَ والعود والمسك والسِنَّوْر والسروج والغضائر والدارصينى والخَوْلَنْجان ، ومن اليمن العطر[2] وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاحَ والمصوغات ، ومن عَيْذَاب اللآلئ ،[3] ومن الوَقْواق الذهبَ والأبَنوس ، ومن الهند والسند القُسْطَ والقنا والخيزُران والـكافور والعود والجوز بَوّى والقَرَنْفُل والفاغره والـكَبَّابة والنارَجيل[4] والثياب القطنية والمخملَة والفيَلة ، ومن سرَنْديب ألوانَ اليواقيت وأشباهها والماس والدر والسُنْباذجَ الذى يعالج به الجوهر ،[5]

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٤٤ (٢) القزوينى ٢٠٩ (٣) المسعودى ١ : ٣٩ (٤) ابن خرداذبة ٦٨ (٥) الأغانى ٥ : ٢٤

ومن ناحية الجنوب البقّم الدارىّ ، ومن البحر الغربى المَرْجانَ ويكون بأرض الفرَنْجَة ، ومن الروم المُصْطَكا والجلود والغلمان والرقيق (١) ، ومن الشام الفاكهةَ والسلاح والحديد الذى يقلع من جبل لُبْنان . ومن الروسيا جلود الخُزَر والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جُرْجان (٢) ثم تحمل إلى أصْبهان والجزيرة وآمد ونَصِيبين (٣) ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق (٤) قد حملت إلى العراق ، وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعد المسافة وترامى الشُّقَّة ، ولذلك كان يرَى الرشيد فتح البحر عند السُّوَيْس (٥) حتى يُقَرِّبَ المجالَ من المغرب إلى عُمانَ فسيراف ففارس فأطرافِ العراق ولا سيّما أنّ على البحر الرومى سواحلَ إفْرِيقِيَةَ وتونس ومصر وطرابُلُس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحلَ صِقلية والفرَنْجَة إلى الشّمال ، وسواحلَ الروم والشـام إلى الشرق ، وإنها لبُلْدان كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكنّ جعفراً (أعزه الله) قد ثناه عن هذا الأمر وخوّفه أن تصل سَرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جُدَّة ، فيخرّبون المواطن المشرّفة ، (٦) على حينٍ لا يُتَوَقَّعُ لقدومهم أثر ، فقال جعفر « يا أمير المؤمنين إنّ خَرْق السُّوَيْسِ خرق فى الاسـلام ولو أنك وجدته مخروقاً بأيدى الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سدُّه لأن مصالح التجارة لا تقضى على الاسلام بتضييع الفتوح التى دانت له

(١) ابن خرذاذبة ٨١ (٢) ابن خرداذبة ١١٦ (٣) ابن الأثير ٥ : ١٠١
(٤) الأغانى ٥ : ٢٤ وابن الاثير ٥ : ٢٢٥ والقزوينى ٢٠٩ (٥) المسعودى ١ : ٢٩٩ والمقريزى فى الخطط والسيوطى والمقدمة ٢١ (٦) السيوطى والمسعودى

يبذل الدماء » وهذا رأى لا يبدو إلاّ لمن رُكّب فيه إسجاح الخليقة ومَعْدَلَة النظر ، فان العلماء كلّهم قد ضلوا عن إدراك ذلك ، وإنما خوّفوا الرشيدَ علوّ البحر الرومى على بحر القُلْزُم ، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمَى البحر على أرض مصر وأغرق عيذابَ والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ، ولكنّ قولهم بعيد عن الصحة ، لما يُعلم عن بحر الظلمات إلىٰ ما وراء الأندلس أنه لم يطم ماؤه على سواحل البحر الرومى مع كونه يعلوه من حيث الاقليم ، فما يثبت عند العاقل الاّ أن سطح البحور متساو فى الشّمال والجنوب ، ولم يُسْمَع ببحر أخفضَ من غيره إلا بحرَ لوط فى أرض الأرْدُنّ من إقليم فِلِسْطين ، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوْقيانوس المحيط ، وانما هو مياه تصب فى متحدّر من الأرض .

ولما اتسع نطاق التجارة فى بغداد أصبحت موردًا لأهل الإعواز من البلاد كافةً يتناولون فيها حاجتهم من المال ، فوقع غشّ فاحش فى التجارة وصارت الصيارف من اليهود [1] وغيرهم [2] يُعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل فى آخر العام مثلين [3] وأكثرَ منهما ، فأقام الرشيد مُحْتَسِباً يطوف بالأسواق ويفحَص عن الأوزان والمكاييل وينظر فى معاملات التجار [4] أن تكون جارية على سَنَن العدل ، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء ، إذ الواجب على الملوك أن يمهدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثرَ منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم

---

(١) الأغانى ٣ : ٨٥ (٢) الأغانى ٣ : ٨٣ و ٥ : ١٦١ (٣) كليات ٩٩ والأغانى ٢ : ١٥٤ (٤) الأغانى ١٧ : ١٠٨

يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فان ذلك احتكار يُفْضى إلى فساد العمران كما مرّ فى موضعه من الكتاب . وقد أخبرنى الرشيد فى بعض مجالسى إليه أنه يروم أن يُصلح معاملة التجار ويغيِّر تقدير الدنانير والدراهم على وزن واحد صحيح ، (١) ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصْلَحُ ما يكون للعمران ، وإنْ كان ضرب السِّكَة فى الاسلام قد حدث عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك بن مروان وقيصر الروم كما هو معروف(٢) فقد أصبح اليومَ من الضرورة أن تُقَدَّر أوزَانُها بعد ما ساءت المعاملة فى تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قِدْماً بالذهب والفضة وزناً ،(٣) وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التى يقال لها الكِسْرَوِية والقيصرية ، فلما ذهبت سذاجة الاسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش الغش فى التجارة وصارت تُنْسَب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فَعُنِيَ عبد الملك بتميز المغشوش من الدنانير والدراهم ، فضرب السكة فى دِمَشْقَ (٤) وصرفها فى جميع النواحى والأمصار ، ولكن من غير أن يقدِّر أوزانها ، فبقى منها الخفيف(٥) والثقيل وما هو بينَ ، ولذلك لم تسهُل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبّه لما فاته من تقديرها على وزن واحد وأحبَّ أن يميِّز القديم منها عمَد إلى تعيين السنة على السكة المقدَّرة بعد أن كان يضربها خِلْوا من التوقيت إلاّ « بركة الله » فى أحد الوجهين واسمه فى الوجه الآخر . وهذا

---

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤ (٢) الاتليدى ٢٧٤ (٣) المقدمة ٢٢٧
(٤) ابن الأثير ٤ : ١٧٤ (٥) ذكر الدراهم الخفيفة الاغانى ١٠٤

كان منشأ الخلاف فى أول من ضرب السكة التى ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمرَ بن الخطاب ،[١] ويقول غيرهم إنها لمُصْعَب ابن الزبير ،[٢] ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبى سفيان ، ويزعمون أنه صوَّر نفسه عليها متقلِّداً سيفاً [٣] كأنه فاتهم علمَ موضعِه من الخلافة وحرصِه على متابعة الملة والشرع ، إلاَّ أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس بمُجْمَع على رأى منـه . ولم يقع إلىّ من الدنانير الموقوتة إلاّ ما ضرب هذا الخليفة المقدّمُ ذكره فى السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرّفة ، وعليه جرى الخلفاء بعده فى ضرب السكة ، بأن يرسُموا فيهـا « بركة الله » من وجه ،[٤] وعلى دائرِه « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمَهم من الوجه الآخر يحوِّطونه بتعيين السنة وذكرِ البـلد الذى يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدَّرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطَّبَرى وهو أربعة دوانق ، والدرهمِ المغربىّ وهو ثمانية ، والدرهمِ اليمنى وهو سـتة والدرهم البغلى « وهو الذى يقال إنه ضرب فى خلافة عمر رضى الله عنـه على وزن الدراهم الكِسْروية » وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحجاج أن يُنْظَرَ الأغلب فى المعاملة فكان البغلىّ والطبرىّ وهما اثنا عشر دانقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدَّر الدرهمَ ستة دوانق . وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جُمِـعَ عشرةُ دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل [٥] والناس

---

(١) المقريزى (٢) ابن خلدون ٣ : ٤٥ والماوردى ٢٦٩ (٣) الاتليدى نقلا عن الدميرى (٤) الانس الجليل ١ : ٢٤٠ والمحاضرة ٢ : ١٧٤ والاتليدى ٢٧٤
(٥) المقدمة ٢٢٧

يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج ، إلا أن ما فى أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم فى الخراج الا الدنانيرَ العبَّاسية والدنانير المسماة بالخالدية [١] واليوسُفية والهبيرية ، وهى أجود النقود التى ضربها بنو أمية [٢] على يد عمالهم فى العراق مثل أبى هبيرة ويوسُف بن عمر وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقـدِّرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للغش فى التجارة مجال ، ولا يحصلَ عنف فى جباية المال .

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماع بذكر محاسن دولة الرشيدِ وإنهـا لَدولة خيرٍ وصلاح كما علمتَ ، فما حدّث أهلُ الأخبـار أنّ الاسلام كان فى أية دولةٍ أعزّ جانباً ولا أوسعَ رُقْعة مملكة [٣] منه فى خلافة الرشيد . ولعمرى إنّ الملوك الذين يتعهدهم النصر مثلَه فى جميع ما يباشرون من الأعمال قليل فى العالَم ، فما رأيته والبرامكةُ أعوانٌ له قد نـكِب فى حرب قط ، ولا توجهتْ عليـه هزيمة ، وإنما أعزّ الاسلام باجتماعه فى المشرق كلِّه إليـه ، ورَمى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائرِ الفرَنْجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقـدم لهم من الدول السالفة مقروناً بفضائل العـلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرفَ دولتـه أنه اجتمع ببابه من الوزراء [٤] والأمراء والقواد والعلماء والفقهـاء والأدباء والخطباء والمحدِّثين والقُرَّاء والرُّواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره

(١) الماوردى ٢٦٩ (٢) ابن خلدون ٣ : ٤٥ (٣) الفخرى ٢٣٣
(٤) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٣٣٢ والماوردى ٣٣

مثله ، فإن البرامكة أعوانُ دولتـه ، وأبا يوسف قاضيه ، وَهَرْثَمَةَ ابنَ أَعْيَنَ أميرُ جنده ، والعباسَ بنَ محمد عمَّ أبيه جليسُه ،[١] ومَرْوانَ بنَ أبى حَفْصَةَ شاعرُه ، والأَصْمَعِيَّ محدثُه ، وأبا نُواسٍ نديمُه ، والفضلَ من آل الربيع حاجبُه ، وإبراهيمَ المَوْصِليَّ واسحاقَ ابنَه مغنّياه ، وابن بَخْتَيْشوعَ جبريل[٢] وبنى ماسَوَيْهِ أطبّاؤه ،[٣] والعلماء والأدباء كلّهم قيام على بابه لا يفارقونه فى حَضَر ولا فى سفر ، حتى إنه ليَطلب شاعره فى أطراف الليـل[٤] فيجدُه ببابه مع غيره من محدِّث أو نديم .

وإنما قرَّب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب[٥] والحرصِ على إحراز العلوم ،[٦] حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم[٧] من حيث العلمُ والتواضعُ له ، لا من حيث السيادةُ عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أنّ التواضع طبيعـة فى نفسه ، لأنه لو لم يأته الكبر من ناحيـة العلم لأتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الاعجاب بالنفس ، فكثيراً ما كنت أراه إذا انتصب فى عرشه يحتمل أن يُمْدَح بما يمدح به الأنبيـاء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه ،[٨] غير أنه ربما كان يبتغى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع فى نفسـه من الاجلال له أن تحصُل له الغاية التى يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

---

(١) الخميس ٢ : ٣٣٢ (٢) الفخرى والمسعودى ٢ : ٢١١ وابن الاثير ٦ : ٧٥ والمقدمة ١٦ (٣) أبو الفرج (٤) الأغانى والاتليدى (٥) ابن الاثير ٦ : ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والاسحاقى ٩٠ والدميرى ١ : ٩٥ (٦) الشرقاوى ٢٢٢ (٧) القزوينى ١٠٦ (٨) السيوطى والأغانى ٩ : ٨٦

أما أدبُه وفضله وصحة ما عنده من النظر فى تخيُّر ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذى تقدم الالماع إليه فيما مضى من الكتاب، ورأيته يتوسع فى أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام، فاذا دخلت عليه عرضه علىَّ فى سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله فى جارية(١) تركية له .

يا ربّة المنزل بالفَرْكِ ... وربّةَ السلطان والملك

ترفقى بالله فى قتلنا ... لسنا من الديلم والترك

وقولُه فى قَيْنَةٍ له (٢)

تُبدى صدوداً وتُخفى تحته مِقَةً ... فالنفس راضية والطَّرف غضبانُ

يا من وضعت له خدى فذلله ... وليس فوقى سوى الرحمنِ سلطان

وقولُه(٣) فى رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له الصدر، وفرغ دونه الصبر.

قاسيتُ أوجاعا وأحزانا ... لما استخصَّ الموت هيلانا

فارقت عيشى حين فارقتها ... فما أبالى كيفما كانا

قد كثر الناس ولكننى ... لست أرى بعدكِ انسانا

والله لا أنساك ما حركت ... ريحٌ بأعلى نجدٍ اغصانا

إلى غير ذلك، وكان من الفضل بحيث إنّ مآدبه لم تخلُ قط من عالم أو أديب أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمرىَّ والفضلَ بنَ عِياض(٤) وابنَ

---

(١) الأغانى ١٢ : ١٨ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧ (٣) السيوطى

(٤) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٣٣١ والاسحاق ٩٠ والسيوطى

السّماك الكوفىّ [١] واسحق الفزارىّ وغيرَهم من الأولياء فيحاورهم فى مسائل الدين [٢] ويبكى [٣] من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاويةُ المحدِّثُ الضرير إلى طعامه قام من موضعه وصبّ الماء على يده تعظيما لقدر العلماء ، فقال له معاوية يا أمير المؤمنين إن تواضعك فى شرفك لأشرفُ من شرفك [٤] .

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بنُ ابراهيم النديم وعبد الله الأَصْمَعِيّ والحسن بن هانئ المعَروف بأبى نُواس ، وكلهم إمام فى العلم ، إلاّ أنه غلب على إسحق الغِنـاء ، وعلى أبى نواس الشعر ، وعلى الأصمعىّ الأخبار والنوادر والمُلَح .

فأما إسحق فانه بالمكان الرفيع من الأدب ، [٥] وقد اتّخذ خزانة كتب جمع فيها من مدوّنات العلم ما ليس عند الذين يُعْنَوْن بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ، ولقد رأيت عنده من كتب اللغـة مثلا ما ليس مثلُه فى خزانة ابن الأعرابى ، [٦] وله مقـام سام بين العلماء حتى إنهم ليُهْدُون إليه كثيراً من تآليفهم ودواوينهم كأبى نواس وابن أبى عيينة [٧] وابن الأعرابىّ [٨] وغيرهم تنشيطاً لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسـه إلى محاسنِ الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنىِّ إلاّ فى دور الرشيد والبرامكة ، وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورَته

---

(١) العقد الفريد (٢) سراج الملوك ٣٠ (٣) ابن الاثير ٦ : ٧٨ والطرطوشى ٣٨ (٤) الفخرى ٢٣١ والسيوطى (٥) الأغانى والحصرى ٢ : ٢٠٦ (٦) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الاعرابى خزانة جمع فيها كتب اللغة (٧) الأغانى ١٨ : ١٢ (٨) الأغانى ٥ : ٥٥

فى العلم على جلوسه إليهم فى صفوف المغنين .(١)

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليته القضاء بين المسلمين ، (٢) ووجدتُ فى نفسه من جميل الميل إليه ما كان يحمله على أن يقصِد داره(٣) على سبيل التحبب ، ولقد كنت يوماً بداره وهى بباب الشَّمّاسية(٤) من الجانب الشرقى تِلْقاء قُطْرُبُّل ، (٥) فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار الذى يركبه(٦) فى ساحات القصر وجنانه للنزهة ، ومعه خَمْسُمائة نفر من خدمه وغلمانه وندمائه ، (٧) فقام اسحق بالواجب من إكرام وفادته ، (٨) وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفَى الجمع كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء ، فقال الرشيد لست أُريد هذا ، وإنما شوق فى النفس دعانى إلى الأُنس بقربك .

وأما الأصمعىّ فانه قدِم بغداد(٩) فى خلافة الرشيد فى جملة من وفد عليه من العلماء . وهو إمام فى النوادر(١٠) والأخبار وأيام الناس مشهودٌ له بصدق الرواية ، ولقد حدَّث الرشيدَ يوماً عن ملوك بنى أمية فقال إنّ سليمان كان نَهِماً إذا قُدِّمَ إليه السِّماط لا يصبر حتى يبرُد بل يتناول اللحم بكمه ، وإنّ يزيد كان إذا جلس للشراب يسقُط الخمر فى ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله

(١) الأغانى ٥ : ٦٠ (٢) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغانى (٣) الاتليدى ٢٨٦ والأغانى (٤) الأغانى ٥ :٧ (٥) ذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ و٣٩٧ (٦) الأغانى ٥ : ٣٠ و ٤٦ (٧) ذ ياقوت ٤ : ١١٨ أن الخليفة كان يركب فى كذا وكذا رجالا وخدماً (٨) واتخذ الفرش من الخز المظهر بالسنجاب كذا فى العقد الفريد ٣: ٢٤٠ وهذا نص كلامه فدخلنا دار ابراهيم الموصلى فاذا هى لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مظهر بالسنجاب

(٩) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ (١٠) الشريشى ٢ : ٢٧٩

ما أصدقك فى نقل الأخبار! والله إن ثيابهما عندى وإنّ الدُّهن لفى أكمام سليمان والخمرَ فى ثياب يزيد[١]، على أنه لم يكن بينى وبينه مع طول المدة التى أقمتها فى بغداد قربٌ ولا ائتلاف لانقطاعه عن مجالس البرامكة، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد، فأراه لا يَغْفُلُ عن نادرة مليحة إلاّ ويذكرها له، ولكن بالألفاظ التى تأخذ بمجامع القلوب، وكنت يوماً بين يديه وقد بدرَ من رجل ظريفةٌ فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعى.[٢] وقد أخبرنى بعض أصحابه أنه أقام فى صباه بالبادية أياماً طِوالاً يستطلع فيها عاداتِ العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس والأسواق، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق، وما وقع لبنائهم من الشعراء، فلما أقام ببغداد أخذ يحدِّث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار عَلَماً فى المدينة، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجبَ منه.

وأما أبو نواس فان الشِّعْرَ هو الذى يقدمه اليوم عند الرشيد، وقد[٣] كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يَفْكَه

---

(١) المسعودى ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٢) المسعودى ٢ : ٢١١ والاتليدى ٩٦ والعقد الفريد

(٣) وربما حفظ له شيئاً من أبياته يتمثل بها فى مجالسته الأدباء. فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبى نواس. اذا امتحن الدنيا لبيت تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وما الناس الا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق

العقد الفريد ١ : ٣٦٩

باعرابهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضُرُنى شىء ، فقال بحياتى (١) إلاّ ما قلتَ شيئاً ، قال كان الكذبُ عملى، واليومَ هجرته يا أمير المؤمنين ، (٢) فضحك وقال هذا أحبُّ إلىّ من الحديث ، وله كلام ظريف فى المجون والخلاعة (٣) وحوادثُ تدل على خفة رُوحه .

وكان إسحق يتعصب له (٤) ويُشيد بذكره ويجهَر بتفضيله ويجلِب له الرِّفد من الرشيد ويحطُّ من قدر الأصمعىّ لتنافس بينهما ، (٥) حتى أخذ المقامَ الأولَ بين الندماء وبنى لنفسه فى نهر طابق الدورَ (٦) التى لم يبنِ مثلَها عظماء الناس ، بينما الأصمعىّ يستقرض من أصحابه (٧) حاجته من المال .

ومن خِلال أبى نواس المأثورة أنه يميل مع أهل البيت سراً لا يجسُر على المجاهرة به ، وقد قيل له فى إعراضه عن مدحهم لقد ذكرتَ كل معنى فى شعرك وهذا علىُّ بنُ موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئاً ، فقال والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً له وليس فى قدرة مثلى أن يقول فى مثله وأنشد (٨)

أنا لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل خادماً لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبىّ صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

---

(١) كلمة يقولها الخليفة عند التحبب الأغانى ٦ : ٧٥ (٢) المستطرف ٢ : ٦٠
(٣) الكنز ٩٤ (٤) الأغانى ٥ : ١٠٧ (٥) الشريشى : ٢ : ٢٧٤
(٦) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغانى ٣ : ١٦١ (٧) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر المسعودى ٢ ، ٢٢٣ انه رؤى فى دار الأصمعى خباء مكسور وعليه دراعية خلقة ومقعد وسخ وكل شىء عنده رث . (٨) ابن خلكان ١ ، ٤٥٧ .

الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى علىّ فى بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين ما زلت منقطعاً فيها إلى البرامكة حافظاً لمقامى فى الدولة تحت ظلهم وعنايتهم ، وكنت أتردد فى خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بى فى خلواته إلى أن صرتُ منه بالمنزلة التى لا يطمح إليها غيرى من المقربين إليه ، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده ، فرأيته (أكرمه الله) صالح السريرة شديد الاغراق فى الدين محافظاً على أداء الصلاة فى أوقاتها وشهود الصبح لأول وقتها ، يصلى فى كل يوم وليلة مائة ركعة لا يتركها إلاّ لعلة ،[١] وأذكر أنه لما حصل فى العام لَزْبَةٌ وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتداداً عظيماً أمرهم بكسر الملاهى وكثرة الدعاء والتوبة ،[٢] وذلك دليل على موقع العبادة عنده ، ومظهر يروم منه تأييد الدولة باجلال الدين حتى يكون الاسلام مغتبطاً بنواحيه .

وإنْ كنتُ رأيت له فى تدبير المملكة ذلك التصرفَ الجميل فانى ما وجدته له فى تدبير أهل بيته ومواليه ، وانما يرجع الرأى فى ذلك إلى زوجه أم جعفر ، وهى أنفذُ نساء العباسيين كلمةً فى الدولة ، وقد ربيت فى مِهاد الدَّعة والدلال كما يشير إليه اسمها ، فانما سماها أبو جعفر جدُّها زبيدةَ لغضاضة بدنها ، وقد كان يرقّصها تهللا بها وإعجاباً بملاحتها ، فسماها زبيدة

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥ (٢) المستطرف ١ : ٨٢

لذلك[١] فلما بَنَى بها الرشيد وجدها طُرْفة حديث ومصدر رأى جميل لم ير بداً من الانقياد إليها فى قضاء جميع ما ترومه من الحاجات[٢] ومن ذلك أنّه مكّنَها من بيوت المال فأنفقت من سَعَة ما يُنَيِّفُ على ثلاثين ألف ألفِ دينار ، فبنت مسجداً مباركا على ضَفَّة دِجلة بقُرْبة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ، ومسجداً سامِىَ الحسن فى قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر[٣] بين باب خُراسان وشارع دار الرقيق ، [٤] وحفرت بالحجاز العينَ المعروفة بعين المشاش[٥] ، ومهدت الطريق لمائها فى كل خَفْض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا إلى مكة ، فبلغ ما أنفقته عليها ألفَ ألفِ دينار ، وهذا من الأعمال التى لم تباشرها امرأة فى الاسلام إلاّ الخيزُران أم الرشيد فانها عَمرت كثيراً من المساجد[٦] أيضاً وبنت دار ابن يوسُف بمكة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم مسجداً[٧] جزيل البركة ، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذى خلّفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائةَ ألفِ ألفِ درهم ، [٨] فان لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ هذا القدر الجسيم فان لها فى السياسة رأياً تسمو به إلى التدخل فى أمور الدولة كأفطنِ مَنْ يكون من الرجال .

وقد صيّر الرشيد أمر بيته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد ، وهو حاجبه وسيّد مواليه .[٩] وله فى قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزتُه من

(١) الأغانى ٩ : ١٠٢ والشريشى ٢ : ٢٤٥ والحصرى ٣ : ٢٣٦ (٢) فى المسعودى أنها كانت من الرشيد بالمنزلة التى لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢ : ٢٢٧
(٣) ياقوت ٤ : ٤٢١١ (٤) ابن خلكان ١ : ١٨٩ والمستطرف ١ : ٢٨٩
(٥) المسعودى ٢ : ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشريشى ٢ : ٢٤٥ (٦) ابن جبير ٢٧٦
(٧) المسعودى ١ : ٣٠٦ (٨) المسعودى ٢ : ٢٠٧ (٩) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣

خدم وحرس وغلمان ، والكاتبُ له زياد بن أبى الخطاب (١) يقيم بمقرُبة من مجلس يوسُف بن القاسم صاحب ديوان الانشاء (٢) ومن قام بين يدى الرشيد حين أُخِذَت له البيْعةُ ، وفى ذلك دليل على مكان كُتّابه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غروَ فان له من نفوذ الكلمة ماليس للأمراء والحكام مثلُه ، إذ كان سيدَ دور الخلافة والحارسَ لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلاّ باذنه ورضاه ، وكثيراً ما رأيت الملوك يتزلفون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد فى حاجاتهم ، إذ ليس فى أهل بيته من يتجرأ عليه سواه (٣) حتى كان إذا ركب الخليفة لا يجسُر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيرُه (٤) .

وإلى مسرور الأمرُ فيما يختص بالسراريّ والقيان وإنّهن لكثير فى دار الرشيد يبلغن زُهاء ألفى جارية (٥) يرفلن فى أحسن زِيّ من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهَّب ، غير أنْ المقدَّم عليهن جميعاً ثلاث أهداهن إليه الفضل بن الربيع . سِحْر . وضياء . وخَنَث ذاتُ الخال .

أما حريم الخلافة فانه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمُها دائرةُ أم جعفر ، لها قصر السلام كلُّه ، وهو أظرف القصور وأبهجها زينة وأجملها فى العيون والقلوب موقعاً يقول فيه إبراهيم النديم (٦) .

سُقِيتَ الغيثَ يا قِصرَ السلام ... فنعم مَحِـــــلّةُ الملك الهمام
لقد نشر الأله عليك نوراً ... وخصّك بالسلامة والسلام

ثم دائرةُ أولاد المهدىّ، ثم دائرةُ أولاد الهادى ، ثم دائرة أولاد الرشيد

---

(١) الأغانى ٤ : ٩٩ (٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الاتليدى ٦ ٢
(٤) الأغانى ٩ : ٩١ (٥) الأغانى ٩ : ٨٨ (٦) الأغانى ٥٥ : ٨١

من غير زبيدة زوجه . ولهن جميعاً من الخدم والغلمان ما ينتهى إليه إسراف الملوك فى السّعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والاشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن فى أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكللة بالجوهر اقتداء بعُليَّة أختِ الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعيب فى جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء(١).

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السوادُ لا يتأنق فيه إلاّ بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وإنما ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتأنق فى صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه(٢) أكثرَ من مرة فى مجلس كامل الزينة قد فرشه بالرُّخام الأخضر ولبَّس حيطانَه بالوشى المنسوج بالذهب(٣) فرأيته يفتَنُّ فى طعامه ولكن على غير شره فى الأكل ، يبدأ بالمرق من السكْباج وغيره تنشيطا لجسمه ، ثم يأكل الفاتر(٤) من الطعام من البقول وأشباهها ، ثم الدَّجاجَ وأنواع الطير ، ثم الشِّواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدتهُ لا تخلو من السنبوسق(٥) ، وهى رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتُطرَف بالخردل ،(٦) وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التى تُشَهِّيه إليه ،(٧) فاذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسوقة والربيكة واللوزينج والفالوذج أو غيرها ، ثم الفاكهةَ بعدها ، ثم

---

(١) الأغانى ٩ : ٨٣ (٢) ذكر الأغانى ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس الى طعام الخليفة غير أمير وعالم (٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغانى ٣ : ١٨٤ (٤) المسعودى ٢ : ٢٢٠ (٥) المسعودى ٢ : ٤٢٦ (٦) الاغانى ١ : ٣٩٠ (٧) يبتدئ بالطعام الحار وينتهى بأكل البوارد المسعودى ٢ : ٢٢٠

القتل (١) وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلل ، ولكن فى الصِّحاف التى لم أرَ أظرفَ منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمناً وقيمة ، فكنت أحسَب لشدة تأنقه فى فنون المطعم أنه لو لم ينه النبى صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صِحاف الذهب والفضة (٢) لاتخذها كذلك ونزّل فيها اليواقيتَ والجواهر . فاذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان بماء الورد الممسَّك (٣) فى قماقم الذهب مع شيء من الريحان فيغسِل يديه ويتبخر ، فاذا انتهى من الغَداء دخل مخدعه للقيلولة ، (٤) وإذا فرغ من العشاء جلس للمغنين والندماء . كذلك عادتُه من يوم وَلِىَ الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلهم مُتْرَف يتقلب فى النعمة والاسراف إلا أحمدَ (٥) فانه يحاول العُزْلة ويقعد مقعد صُنَّاعٍ ويتكسب بيده فيما يقولون شيئاً ينفقه على نفسه مع مقدُرة أبيه كلها ، (٦) أمّا القاسم فانه ذو كِبْر شديد ونعمة طائلة وبَذْخ زائد ، وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة ، (٧) وكان أبوه قد طوّقه أمرَ الفِداء الذى وقع بين المسلمين والروم بُعَيْدَ عودتى من خراسان فجرى ذلك على يده (٨) وعُمُرُهُ يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فتزاحم رَكْبُ الملوك على بابه ، ومكّنه أبوه من بيوت المال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشترى الجوارى (٩) والغلمان ، ويقيم المجالسَ للشعراء والمغنين والندماء ويُقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهِبات (١٠) إلى أن يصيب

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٢٠ والابشيهى ١ : ٨٤ (٢) الاتليدى ٩ (٣) الاتليدى ١١ (٤) الأغانى ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢ (٥) ولد له من سرية لبعض نسائه العقد الفريد ٣ : ٥٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٥٧ (٧) الأغانى ٣ : ١٥٩ و ٩ : ٩٦ (٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧ (٩) الأغانى ٣ : ٥٧ (١٠) ذكر الأغانى ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء

بعضُهم فى ناحيته ما لا يضيبه من جوائز الخليفة من المال .

أما الأمين والمأمون وليّا العهد فانهما دونه فى الاسراف ولا سيما الأمينُ فانه يُوهِم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفه ،[١] ويتخذ الوقار برقعاً لوجهه لما يحدِّث به نفسَه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمى وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فان أبا العباس وأبا جعفر والمهدىَّ والهادىَ والرشيدَ كلَّهم أولاد سرارىّ [٢] وأما عبد الله المأمونُ فانه زينة أولاد الرشيد ، وسِمتُه سِمةُ خير وفضل وعفاف ، لم أر فى أبيه خَلَّةً من الخلال المحمودة ولا خلقا من الأخلاق الرضية إلاّ وجدتُها فى نفسه طبيعةً تسمو به إلى أرفع مقام فى أدب الدنيا والدين ، ولم أرَ فى أولاد الملوك غيرَ البرامكة (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكمية [٣] على حَداثة سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم [٤] فى جميع أنواع العلوم مثلَه ، فما أذكر أنى دخلت عليه مرة إلا ولَقِيتُه فى مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيت بحضرته [٥] جماعة من أئمة العلم ومنهم الخُزَيْمى والعباس بن زُفَرَ ومنصور النَّمَرى ، وهو السليم شعِرُه من العيب لولا أن لهُ طعناً فى الشّيعة يبتغى به مرضاةَ العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبَيْذَق لقِصَره وهو المنشد للرشيد أشعار المُحْدَثين [٦] ، وفتى من أمراء آل نَوْبَخْت يقال له الفضل بن

---

(١) ابن الأثير والمسعودى والفخرى (٢) السيوطى (٣) المقدمة ١٨ (٤) الدميرى ١ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣ (٥) الأغانى ٢ : ٢٢ (٦) الأغانى ١٢ : ٢٠

سهل وهو خليل المأمون (١) وصديقه لا يصبر على فراقه فى نهار ولا ليل ، وإذا ركب فى موكبه أركبه معـه على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج ، (٢) وكان بجانب المـأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر ، منهم الـكِسائى وأبو محمد مؤدباه (٣) وهم يتباحثون معه فى مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم (زيدٌ) على الرفع والـكسائى يقول بل (زيداً) منصوبةً بإنَّ فتطارح العلماء الجملة الإعرابيـة التى دار عليها كلامهم وهى « إنّ من خير القوم أو خيرهم نيةً زيد » (٤) فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله فى ذلك اليوم وعرفت انه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقـل عن آداب المـترَفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جاس للاستراحةَ يَثْنِى انصبابَه إلى ما يجد فيـه من التسلية أدباً وفائدة ، ولم يكن شىء من الملاهى أحبَّ إليـه من لَعِب الشِّطْرَنْج (٥) يمارسه كأبيه (٦) لاستنباط الحيل فيه ، حتى لم يكن فى الناس من يفضُله فيه وهو القائل فى الشِّطْرَنْج (٧) .

أرض مربعـة حمراء من أَدَمٍ   ما بين إلْفَيْنِ موصوفَيْن بالـكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبَها   من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على   هـذا يُغير وعينُ الحرب لم تنم

(١) ابن الأثير وذكره الوطواط ١٤٢ (٢) ذكر زينة المراكب هذه الأغانى ١ : ٨٨ (٣) الأغانى ١٨ : ٧٢ والمستطرف ٢ : ١٣ والمسعودى ٢ : ٢١٣ (٤) الأغانى ١٨ : ٧٧ (٥) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤ (٦) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف (٧) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودى ٢ : ٤٠٦

فانظر إلى الخيل قدجاشت بمعركة   فى عسكرين بلا طبل ولا علم

وأما لعبه بالأكرة والطبطابة ورميه فى البرجاس النشابَ . وكرّه بالصّوالجة فى الميدان واقتناؤه ظرائفَ الطير والخيل(١) والحيوان . واتخاذه الديكة ليقاتل بعضها بعضاً والأكباشَ ليناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذّ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يعدّوا أمثالَ هذه الملاهى على سبيل المفاخرة والمباهاة ، فانه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التى تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عُنِىَ بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدرَ العظيم الثمين . رأيت فى بعض مجموعاته صُنْدوقاً أودعه خواتم الخلفاء جميعاً من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم

(١) من المعلوم أنه كان لأمراء العرب العناية التامة بتربية الخيل ووجدت فى العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه فى الحلبة قال فى الجزء الأول : ٦١ ركب الرشيد فى سنة ١٨٥ الى الميدان لشهود الحلبة قال الاصمعى فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الريذ لهرون الرشيد سابقة فابتهج لذلك ابتهاجاً علم فى وجهه وقال على بالاصمعى فنوديت من كل جانب فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعى خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه الى سنبكه فانه يقال ان فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأنشدته شعراً جامعاً ما فيه من قول أبى حرزة : . . . فأمر لى بألف درهم . وذكر المسعودى ٢ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخيل يوماً بالرقة وكان فى أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان فى عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملهما فقال فرسى والله وفرس ابنى المأمون

وفى صدر الدولتين ، فكان جامعاً لجميع خواتمهم[١] إلاّ خاتمَ النبىِّ صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان فى بئر أريس كما تواتر فى الأنباء[٢] ما كفَّ عن طلبه حتى يجده ، وفى هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدبٌ مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلاّ النزرَ اليسير فى جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكةِ (أعزهم الله) فانها فى الجانب الشرقى بازاء دور الخلافة ليس بينهما إلاّ عَرْض دِجلة ،[٣] وهى من الجمال والاشراق بمكان تُسامِى[٤] به قصور الرشيد ، لأنهم بَنَوْها على السَّعة التى لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألفَ ألفِ[٥] درهم ، فهى مظهر الأنس والصفاء ، ومشرِق الأنوار والسناء . مغشّاةٌ بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجِصِّ المجسَّم[٦] ، وقد فرشت مجالسها بالوشى والابْريسَم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم الذهبية[٧] والجامات المنقوشة[٨] والقوارير الفرعونية[٩] ولطائف الصين

---

(١) فى العقد الفريد والمسعودى والمقريزى والخميس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها (٢) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم (٣) الفخرى والاتليدى ١٦٧ والقزوينى ٢١٠ (٤) الدميرى ٢ : ١٥٤ (٥) ابن الاثير ٦ : ٦٢ (٦) كانت العرب تعرفه كما فى المقدمة ٣٥٧ (٧) الكنز ٣٦ (٨) الأغانى ٣ : ٢٧ (٩) الأغانى ٦ : ١٣٠ و ١٠٣ ؛

وغيرها من التحف التى تأتيهم من الملوك فى سبيل المراضاة والاستمالة ،[١] ولُبِّسَت طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة[٢] مما قالته الشعراء فى مدحهم ، وهى تأتيهم من مصنوعات الفرس ، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بنُ مروان ،[٣] ولا يكتبون على البسط والستور إلاّ كلاماً يُتَبَرَّك به ، بخلاف الفرس فانهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

وقد اتصلت عمارة البرامكة فى حىّ لا يخالطهم فيه أحد ، وهى من السَّعة بحيث تنتهى من الجنوب إلى شارع المدينة ،[٤] ومن الشرق إلى دَرْب دينار الصغير ،[٥] ومن الشَّمال إلى باب الشَّمَّاسية ،[٦] وهو الموضع الذى فيه قصر يحيى المعروفُ بقصر الطين ،[٧] المسمّى بذلك معارضةً لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة ، وفى جوارهم موضع يقال له البَرَدان .[٨] يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب ،[٩] لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم

---

(١) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفى ابن الاثير ٦ : ٥٨ انهم كانوا من المنزلة الكبرى فى عيون الملوك بحيث أن خاقان ملك الخزر حمل ابنته الى الفضل بن يحيى تقرباً اليهم فى المصاهرة (٢) رسم الأبيات على الأستار مذكور فى الأغانى ٥ : ٨٦ و ١٠٠
(٣) الاتيدى ٢٧٢ (٤) ذكره الأغانى ٦ : ٧٨
(٥) ابن خلكان ٢ : ٣١١ (٦) الأغانى ٥ : ٨ وذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ وقال انه فى الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الأثير ٦ : ٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد (٧) الأغانى ٥ : ٨ وياقوت ٤ : ١١٤ (٨) الأغانى ٥ : ٨ وذكر المسعودى هذا الوضع ٢ : ٢٦٧ (٩) الأغانى ٥ : ٧٢

والسماحة ، (١) وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك ، فان يحي إذا ركب يعِدُّ صُرَراً فى كل صرة مائتا درهم ، ويدفعها للمتعرضين له فى الأسواق والشوارع . (٢) وقد قالت الشعراء فى ذلك .

ياسميّ الحصور يحي أتيحت لك من فضل ربنا جنّتان
كلُّ من مرّ فى الطريق عليكم فله من نوالكم مائتـــان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضُرنى عبارة تفى بالافصاح عنه ، وانما للعين أن ترى ازدحام الخيل فى ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحَفَد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثلُه ، وإنّ إقبالَ المؤملين عليهم من جميع الوجوه وأبعدِ الآفاق يمتطون إليهم رحالَ الرجاء ويستقون من موارد احسانهم، نَهَلا وعَلَلا لأَشهرُ من أن أحاول نعته بالوصف الذى لا يعبر عنه القلم ، فكأنما بيتهم محطّ الركاب يَضَعْن فيه المدائح ويحملن منه المال .

ولقد رأيت من الأعراب من قصد الفضل من قُضاعة فسأله عن حاجته فاستجداه عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ، وإنما تُعْطَى عشرة آلاف درهم فى عشرة ، فلما أخذ المال انصرف وهو يبكى فقال له الفضل مم بكاؤك آستقلالا للمال الذى أعطيناك ؟ قال لا ولكننى أبكى على مثلك تواريه الأرض ويأكله التراب وأنشد(٣) .

لعمرك ما الرزيّة فقدُ مال ولا فرس يموت ولا بعير

---

(١) الأغانى ٥ : ٧٢ والاتليدى والابشيهى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم (٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦٣ والفخرى ٢٤٠
(٣) الاتليدى

ولكنّ الرزية فقد حرّ يموت لموته خلق كثير

فنظر إلىّ الفضل بعد انصرافه وقال لى إنّ مثل هذا يقصدنا من البلد البعيد ليسترفدنا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة، ومن الأمراء من نغمُره باحساننا كلّ يوم [1] ثم يغمِط النعمة ويدِبُّ فيه مرض الحسد فيكون من أشد الناس بغضاً لنا وسعياً فى فساد ملكنا.

وقد انفجر البرامكة بالكرم [2] حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر فى سعة العطاء، فيقال فلان من الملوك يتبرمك، وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم أنهم يُغِلّون فى كل سنة عشرين ألفَ ألفِ دينار [3] فاذا انقضى الحول لا يبقى منها فى الخزائن دينار واحد، فهم يتخذون الكرم قاعدة فى الحالين من نعيم الدنيا وبؤسها. يقول أبو الفضل [4] (أيد الله ملكه) إذا أقبلت الدنيا فأنفق فانها لا تَفْنَى وإذا أدبرت فأنفق فانها لا تَبْقَى.

وقال أبو نواس فى مدحهم [5].

إنّ البرامكة الكرام تعلموا فعل الجميل وعلموه الناسا
وإذا هُم صنعوا الصنائع فى الورى جعلوا لها طول البقاء أساسا

وقال فيهم نُصَيْب [6].

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع وأرى البرامك لا تضر وتنفع

---

(١) الفخرى ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٢ : ١٩٢ والأغانى ٥ : ١١٩ (٢) الأغانى وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاسحاقى والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان
(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٨ (٤) الاتليدى فى كتاب اعلام الناس
(٥) الأغانى ٥ : ١١١ و ٢٠ : ٣٤ والحصرى ١ : ٣٧٥ (٦) الأغانى ١٠ : ١٠٠

إنّ العروق إذا استسرّ بها الثرى　　أَشِرَ النباتُ بها وطاب المزرع
فاذا جهلت من امرئ أعراقه　　وقديمَه فانظر إلى ما يصنع

وقال أبو النّضير البصرى :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى　　وجدت نسيم الجود من آل برمك

وقيل فيهم وهو منتهى المديح .

أتانا بنو الآمال من آل برمك　　فياطيبَ أخبار ويا حسنَ منظرَ
لهم رحلة فى كل عام إلى العدا　　وأخرى إلى البيت العتيق المستّر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت　　بيحى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتمحو لنا الدجى　　بمكة ما تمحو ثلاثةُ أقمر
فما خلقت إلا لجودٍ أكفُّهم　　وأقدامُهم إلاّ لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابُه　　وناهيك من راع له ومدبِّر

وقال سَلْم الخاسر فى يحيى (١) أعزه الله تعالى

يا أيها الملك الذى　　أضحى وهمته المعالى
أنت المنوَّه باسمه　　عند الملمات الثقال
لله درُّك من فتى　　كم فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر (٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعاً لطيفاً فى القلوب .

نام الخَلِيُّون من همٍّ ومن سقَمَ　　وبتّ من كثرة الأحزان لم أنم

---

(١) الوطواط ٢٤٩　(٢) الأغانى ٥ : ١٣ والاتليدى ٢٣٨

يا طالب الجود والمعروف مجتهداً اعمِد ليحيي حليفِ الجود والكرم

وقال فيه آخر (١)

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد ليحيي بن خالد
فقلت شراءً قال لا بل وراثةً توارثني من والد بعد والد

وقال غيره (٢)

لا ترانى مصافحاً كفَّ يحيي إننى إن فعلت ضيعتُ مالى
لو يمسُّ البخيل راحة يحيي لسخت نفسه ببذل النوال

وقال غيره فى كرم الفضل (٣) رعاه الله تعالى .

حكى الفضلُ عن يحيي سماحةَ خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
إليه يسير الناس شرقاً ومغرباً فُرادَى وأزواجاً كأنهم نحل

واعترضه وقتَ خروجه إلى خُراسان فتى من التجار كان قد شخص إلى الكوفة فَقُطِع عليه الطريق واخِذَ جميعُ ما كان معه ، فأخذ بعِنان دابة الفضل وقال (٤)

سأرسل بيتاً ليس فى الشعر مثلُه يُقَطِّع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأسُ فى كل منزل أقام به الفضلُ بنُ يحيي بنِ خالد

وقال آخر من شعراء البادية (٥)

قد كان آدمُ حين حان وفاتُه أوصاك وهو يجود بالحوْباء
ببنيه أن ترعاهمُ فرعيتَهم وكَفَيْتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناء

(١) أعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠ (٢) الفخرى ٢٣٦ (٣) أعلام الناس
(٤) العقد الفريد ١ : ١١٩ (٥) ذكر فى العقد الفريد ١ : ١١٤ أن البيتين قيلا فى الحكم بن حنطب

وقال فيه أشجع السُلَمى الشاعر(١).

وما قدّم الفضلَ بن يحي مكانُه ... على غيره بل قدّمتـه المكارم
لقـد أرهب الأعداء حتى كأنما ... على كل ثغـر بالمنيـة قائم

وقال أبو النَّضْر البَصرى (٢)

ويَفْرَحُ بالمولود من آل برمك ... بغاةُ الندى والسيف والرمح والنصل
وتنبسط الآمال فيـه لفضله ... ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال غيره(٣).

ولائمة لامتك يا فضلُ فى النـدى ... فقلت لها ما يقدَح اللوم فى البحر
أرادت لتثْنى الفضل عن سَنَن الندى ... ومن ذا الذى يَثْنى السحاب عن القَطْر
مواقع جود الفضل فى كل بلدة ... مواقعُ ماء المُزْن فى البـلد القفر
كان وفود النـاس لمـا تحملوا ... إلى الفضل لاَقوْا عنده ليلة القدر

وقال آخر(٤)

إذا نزل الفضل بن يحي ببلدة ... رأيت بها غيث السماحة يُنْبِتُ

وقال ابن الخياط المـكى(٥)

لمسـت بكفى كفـه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يُعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ماعندى

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه فى

---

(١) الأغانى ١٧ : ٣٤ (٢) الأغانى ٥ : ١٤ و ١٠ : ١٠٠ (٣) أعلام الناس والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

(٤) المستطرف ١ : ١٩٦ (٥) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والاغانى ١٨ : ٩٤ وهو يقول انه أنشدها فى المهدى

تقبيل يده فأذن له فما انتهى إلى الباب حتى فرّق المال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضلَ فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال بعضهم (١) وهو أمدح بيت فى الكرم.

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

وقال مروان بن أبى حفصة فى جعفر وهو صبىّ (٢).

بَنَى لك خالد وأبوك يحيى بناء فى المكارم لن يُنالا
كأنّ البرمكى لكل مال تجود به يداه يفاد مالا

وقال فيه أيضاً (٣).

أفى كل يوم أنت صَبٌّ وليلة إلى أم بَكْرٍ لا تُفيق فَتَقْصِرُ
أُحِبُّ على الهجران أكناف بيتها فيالك من بيت يُحَبُّ ويهجَر
إلى جعفر سارت بنا كل حُرّةَ طواها سراها نحوَه والتهجُّر
إلى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياه عليهم وتَبْكُرُ

وقال فيه (٤).

لدولة جعفر حَمْدُ الزمان لبابك كلَّ يوم مِهْرَجان
جعلتُ هديتى لك فيه وشياً وخير الوشى ما نَسَجَ اللسان

(١) ابن خلكان ١ : ٥٨٦ (٢) هما من بحر القصيدة التى رثى بها معناً ولم يثبه عليها أحد من أولاده وقد قالها فى مدح جعفر البرمكى وألحق بهما بعض أبيات . ومما قاله مروان فى هذه القصيدة فى ثاء معن

كأن الشمس يوم أصيب معن من الاظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذى كانت معد تهد من العدو به الجبالا
أقمنا باليمامة بعد معن مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهى من جيد الشعر . الاغانى ١٨ : ١١٦ والحصرى ١ : ٣٧٧
(٣) الاغانى ٥ : ١٥ (٤) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧ .

وقال العتّابى ، وكان فى نفس الرشيد عليه مَوْجِدة واستعطفه جعفر عليه ، فقال فيه (١) .

ما زلتُ لى غَمَرات الموت مُطَّرَحاً   قد ضاق عنى فسيح الأرض من حيلى
ولم تزل دائما تسعى بلطفك لى   حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

وقال فيه أشجع السُلَمى (٢) .

يريد الملوك مدَى جعفر   ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه   إذا نابها الحَدَث الأفظع

وقال فيه (٣) .

ذهبت مكارم جعفر وفِعالُه   فى الناس مثلَ مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالى نفسُه   والعقلُ خيرُ سياسة النفس
فاذا تراءته الملوك تراجعوا   جَهْرَ الكلام بمنطق هَمْس
ساد البرامكَ جعفرٌ وهم الألى   بعد الخلائف سادةُ الإِنس
ما ضرَّ من قصد بنَ يحى راغباً   بالسعد حلّ به أم النحس

إلى غير ذلك من الأشعار التى لو حاولت تقييدها فى هذا الكتاب لبلغتْ أكثرَ من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد . وقد وجدت للرّقاشى (٤) وحده ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت فى مديحهم ، وهى من البلاغة بحيث إنّ البرامكة (أعزهم الله) يروُّونها لأولادهم تفضيلا لها على شعر غيره من المُحْدَثين .

---

(١) الاغانى ١٢ : ٧   (٢) الاغانى ١٧ : ٣٤   (٣) الاغانى ١٧ : ٣٣

(٤) الاغانى ١٥ : ٣٥ ويظهر من كلام ابن الاثير ٦ : ٦٤ ان الرقاشى كان شاعر البرامكة .

الدولة فى خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول بأن دولته من أوسع دول الاسلام بل دول العالم رُقْعَةَ مملكة ، فانها تنبسط من الهند وفَرْغانة فى الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الزُّقاق ، كذلك كان امتدادها فى أيام أبيه فيما عدَا البلدانَ التى غلب عليها الرومَ فى حروب متواترة قد استمرت بينه و بينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم منذ صدرِ الاسلام ، فان الدولة الأموية قد حملت عليهم المرّةَ بعد المرّة وحمّلتهم خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ، ولم يزل أبو جعفر فى مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفتُرون عن الثورة ويأبَوْن إلاّ نكث العهود ونقض العقود المبرمة ، فلما وَلِىَ المهدىُّ أخرج إليهم الرشيدَ [١] وهو فتى بقيادة يحيى وزيرنا ، فركِب فى عُدّة وأُهْبَة لم يكن مثلُها فى الاسلام ، وتحركت فى نفسه نخوة الجهاد حتى اتَّسمَ بِسِمَة المحاربين فى الجيش ، وحمل الرمح فى يده . [٢] وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها رينى لم تُطِق مقاومته ، فهزم جندها وتفرق المسلمون فى البسائط [٣] يُعَفُّون الآثار و يبيحون الدّمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المَنْجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كيليكية ، وحملت إليه الجزية التى كان يحملها

---

(١) أبو الفداء ٢ : ١٠ والخميس ٢ : ٣٣١ وابن الاثير (٢) الاغانى ١٧ : ٤٨

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٠

أسلافها إلى الخلفاء ، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة فى إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم و بين المسلمين ، ففى نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء فى أمرهم ما بقى لهم مُلْك تجاه دول الاسلام العظيمة .

ثم إنه بعد أن وَلِيَ الرشيد وقع فى نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه ؟ فَعَبَّأَلهم العساكر وشحنها فى أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام ، (١) وسيّر الفُرْسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبثّون الخراب ، ففتحوا وغنموا (٢) وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافو بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم ، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ، ورأت الجند بين يديها وهو شتيت ، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها الى بغداد وهى صاغرة الى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا من عزة الأسلام فى غزوتهم تلك ما أفاضوا فى التحدث به إلى هذا اليوم . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتصدُر راياتُ الاسلام راويات .

ولما هلكت رينى نصب الروم عليهم نَقْفور وكان ملكا شديد البأس إلاّ أنه قليل الخبرة بامور السياسة غيرُ عارف بمكان الاسلام من الصولة والدولة ، بل كان يظن فى المتمصرين من العرب فتورا فى العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دَعَة العمران . فكتب إلى الرشيد فى مُنْتَصَف هذه السنة كتابا بنفض الهدنة التى كانت بينه و بين رينى يقول فيه « من نقفور ملكِ الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد

(١) ابو الفرج : وذكر امارة الاساطيل بسواحل الشام ومصر ابو الفداء ٢ : ١٩
(٢) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبي من اهلها ستة عشر ألفا ابن الاثير ٦ : ٧٠

فان الملكة التى كانت قبلُ كانت أقامتك مُقام الرُّخ وأقامت نفسها مُقام البَيْدَق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا ، (١) وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى فاردُد ماحصل قِبَلَك من أموالها وإلا فالسيف بينى وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسُر أحد أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجوابُ ماتراه لاماتسمعه » (٢) ثم حشد الجنود ليومه ، وركب فى صفوف المترجلين والفُرْسان ، وحمل القواتِ والاقواتَ استظهارا على نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هِرَقْلَة (٣) ونصب عليها القتال ، وهى مدينة للروم لم يطمَع أحد من ملوك الاسلام فى الوصول إليها لخشونة مكانها ، فدكَّ أسوارها بالمَنْجَنِيق ومنحه الله أكتاف الروم فنفلهم رقابَهم وأموالَهم وفى ذلك يقول الشاعر المكى (٤)

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا ... حوائما ترتمى بالنِّفْط والنار

كأن نيراننا فى جنب قلعتهم ... مُصَبَّغاتٌ على أرسان قَصَّار

وهذا كلام ضعيف لين ولكنّ قدرَه عظيم فى ذلك الموضع والوقت ، (٥) ولم تقف هزيمتهم على هرقلة فقط بل كانوا يسلّمون كثيرا من المعاقل

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء انه قال فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن الى آخر الكتاب (٢) الاغانى ١٧ : ٤٥ والطبرى وابن خلدون والسيوطى والمسعودى ١ : ١٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١٨ (٣) ابو الفداء ٢ : ١٩ (٤) الاغانى ١٧ : ٤٧ والمسعودى
(٥) الاغانى ١٧ : ٤٧

والبُلْدان ، فكان ذلك الفتح فتحاً عظيماً لا كِفاء له . وهنأت الشعراء الرشيد . قال أبو العتاهية فى ذلك(١) .

قضى الله أن صفّى لهرون ملكه وكان قضاء الله فى الخلق مقضيّاً
تحيّبت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح نقفور لهرون ذِمّيّاً

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قِبَلٌ رغبوا فى المسالمة والموادعة ، وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول إنّ هذا الفوز كان سهلا على الرشيد فانه قد طوّح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق بأن يُنْظَر فيه ، فان الروم أهل بأس ومراس شديد ، وهو يقاسى(٢) معهم الحروب الصّعاب ، ولم يكن فى شأنه معهم حيلة ولا سياسة ، وانما هى حروب تواصلت تِباعاً وأخذ بعضها برقاب بعض لما يروم من نفوذ السلطان حتى يركّب عليهم سيف الاسلام ، وإلاّ فانّ الجزية التى يُطْمَع فيها لا تفِى بالقليل من الأموال التى تنفقها الدولة ، وهى بمكانها من المهاجمة ومكانِ الروم من المدافعة فى ظلال الأسوار ، وفى ذلك تفاوت بعيد فى خسائر القتال ، والذى يدلّك على قوة الاسلام أنه غزاهم غزَوات كثيرة ما أخفق فى واحدة منها كما رأيت .

---

(١) المسعودى ١ : ١٥٨

(٢) ذكر الاغانى ١ : ٣٨ أن الرشيد قال للاصمعى عقب قدومه من بلاد الروم أنشدنى أحسن ما قيل فى رجل لوّحه السفر فأنشده قول عمر بن أبى ربيعة

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفى العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هذه الابيات . وهى قصيدة مشهورة يستحسن الظرفاء طريقة نظمها لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين .

هذا كان شأنَ الرشيد مع صُهْب السِّبال ، أما السياسةُ التى أتعبت خاطره فكانت منصرفة إلى اذلال العلويين فى المغرب قبل أن تسُود بهم الحال ، وتسودَّ عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثلَ الروم لتجافى عظماء دولته من أهل الرأى والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلاّ ضياع المال وضيعة الرجال ، ولذلك جعل الملك فى إفْريقيةَ لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندَهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على المشرق كله ، فكأنّه وقع بين أمرينِ مخوفين فاختار ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملّك الأغالبة المغربَ حتى إذا قامت دولتهم رسخت فى مكانها ولم تتجاوز الرمال التى بين إفْريقيةَ ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كلّه قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ، ولم يَألُ ابن الأغلب فى مناوأتهم جُهداً وهو لا يبلغ الغاية التى يرومها من إذلال مُلْكهم وتضييع نفوذهم فى المسلمين ، لأنّ جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلُّهم صادق الحملة مدرّب على القتال ولا سيما قبائلُ صِنْهاجة من بطون حِمْير ، (١) وهم أمنع الناس ذِماراً ، وأبعد الفُرْسان مُغاراً . وذلك أمر طيبّ منى النفسَ لا بغضاً فى آل العباس لأنى لا أريد بهم مكروهاً ، وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الأنجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم (٢) كما يقول الفرزدق الشاعر فى مديحهم . فلعمرى إنهم أحقُّ من الأغالبة بهذا الملك الذى أراه اليوم يثبُت فى أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لاتجاههم إلى

---

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢ (٢) الأغانى ١٤ : ٨٧ والاتليدى ٥٤ والشبلنجى ١٧٠

غاية واحدة وسياسة راشدة ، فقد عرَفت أنّ تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفرق دُعاتهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة . وفيما تقدم من الكلام عن أبى جعفر ما يُبيّن لك أنهم لو لم يفترقوا لظفروا . أما اليوم فانهم مجتمعون إلى إدريسَ بن إدريس ، وله دون غيره من أهل البيت « السلامُ عليك يا ابن رسول الله »[1] .

وانما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بايعاز البرامكة الأمجاد ، وهم الآخذون بناصرهم والمتغرّضون معهم[2] والمقلّدون الولايات لكثير من أهل الشّيعة[3] إلاّ أنهم لا يتعمدون فى ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته ، لأنّ المغرب فيما يَرَوْن إذا انسلخ عن بغداد لا يحْدِث فى الخلافة ضرراً لعظم الممالك الاسلامية ، وإنما يضر التجزؤ بالدول اذا كانت الدولة منحصرة فى اقليم غير متسع إلى طَرَف العالَمَ وكان فى جوارها أمة ثانية متغلّبة فانها تسطو عليها شيأ فشيأ إلى أن تلتهمها جملة واحدة ، كما رأينا فى سِيَر الأمم الماضية ، أما الخلافة الاسلامية فإنّ الجهاد فى الأعاجم يعمَل على استمرار ملكها ووقايته ، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك فى أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل اليها فتحفظ خزائنَها من إنفاق المال ، ورجالَها من تغرير القتال . وتبيت

(١) بن خرداذبه ٧٩ (٢) فى تاريخ أبى الفداء ٢ : ١٢ ان الرشيد لما جهز الفضل بن يحي الى قتال يحي بن عبد الله كتب اليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن اليه ويكرم وفادته عليه وفى ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لاهل البيت . وذكر ابن الاثير ان الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين كان يتشيع وان البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦ : ٧٠ (٣) المحاضرة ٢ : ٨

فى شئونها آمنة بحراستهم . اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطاناً ، وأكثر جنوداً وأعواناً ، وهذا بعيد عن أن يكون فى دولة متجزئة من الخلافة ، ولو انضمت جميعاً إلى قيادة واحدة ما ناوأت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك ، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان ، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة ، حتى لقد يجبى إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلا ما لا يجبى إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف .

فكان ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) يرون أن قيام الدولة العلوية فى المغرب داع إلى صلاح الرشيد ، وأنها تكون مجناً للخلافة بما تجاهد لها فى رد الأمم النصرانية . وكان جعفر يقول لى إنه لو لم يكن للرشيد فى هذه البلاد النائية إلا قضاة حاكمون كما كان لملوك بنى أمية فى الأندلس ماظهروا على الفرنجة والجند بين أيديهم قليل ، ولو أنه ائتمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصحهم لكانوا عليه لا له ، فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين ، لأنه إذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس فى يد المسلمين . (١)

وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرنجة من البلدان التى فتحها طارق بن زياد والله يبيد أمماً ويحيى أمماً لا إله إلا هو ذو الملك والسلطان .

---

(١) نذكر هنا أنه قامت فى المغرب بعد ذلك إلى وقت الدول العظيمة التى فتحت الفتوح وأعزت الاسلام

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد إلاّ أن نذكر قدر المال الذى يحمل إليه من جميع الممالك والبُلْدان ، فانه لم يُسْمَعَ عن دَخْل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز القــدر الذى يحمل إلى بيت المال فى زمانه ، مع أنه يسلُك مع الملوك مسلكَ الحلم ، ولا يضرِب عليهم الخراج إلاّ على قدر مَيْسَرتهم . وان كان قد زال عنه القليل مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بُلْدان النصرانيــة التى غلب عليها الرومَ من الأموال التى لا يصح أخذها [١] من المســلمين كالخراج والعشور التى تؤخذ على جميع غَلاّتهــم ، [٢] فقد بلغ المحمول إليــه فى كل سنة نحواً من خَمْسمائة ألفِ ألفِ درهم من الفضة وعشرةِ آلافِ ألفِ دينــار من الذهب ، ما عدا الغلالَ والمصنوعاتِ كما ستراه . فحمل الناسَ كثرةُ هذا المحمول على أن يعُدُّوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولون إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب ، [٣] إلاّ أن ذلك غلو وإفراط فى تعظيم الشىء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار ؟ ويبعُد أن يكون فى العالم ألفا ألف ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صحَّ أن تُحمل كلُّها إلى بيت المال ولا يبقى منها شىء فى أيدى الناس لمعاملاتهم . وتقديرُهم هذا وان كان بعيداً عن الصحة يدلُّ على الكثرة وأنَّ المال يحمل إلى بغداد بالصُّبَر [٤] لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصــفه إلى

---

(١) ابن جبير ٧٦ (٢) الزرقاوى (٣) مقدمة ابن خلدون (٤) القزوينى ١٠

خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بنى العباس، ولا يبعُد أنّ عمالهم كانوا يحجُزون من مال الجزية قدراً لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانيــة وأربعين درهماً تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصنّاع وأهل الحرف واثنى عشر درهماً من ذوى الفاقة والاعسار[١]: دون أن يكون فى الدواوين عَمَلٌ لذلك. ولما قام وزيرنا[٢]: أيده الله بأعبــاء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يُقَرَّر الدخل فى السجل من قبل أن يحصُل فى يديه، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلاّ فيما يؤخذ من المكوس على السِّلَع وما يتصرف به العمال من نفقات[٣] ولاياتهم وليس هو إلاّ القليلَ فى جانب الكثير من دخل الدولة.

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال إلى حال. وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل. فقد كان حاصل السواد وهو أرضٌ[٤] ما بين المَوْصِل وعَبّادان فى الطول وما بين عُذَيْب بالقادسية إلى حُلْوان فى العَرْض عشرين ألف ألف درهم فى زمن الحَجّاج[٥] لكثرة الظلم، فلما ارتفع عنهـا الجور ساد فيها العمران[٦] حتى صار يُحمل منها اليومَ نحوُ ستين ألف ألف درهم. وكان حاصلُ فارس وأصبَهان وكَرْمان فى عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم. فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيهـا العدل حمل منها البرامكة خمسة

---

(١) المقريزى والمستطرف ١ : ١٣٨ (٢) هو جعفر بن يحيى البرمكى
(٣) ذكره المقريزى ٢ : ٩٧ (٤) الماوردى ١٩٩ (٥) المستطرف وابن خرداذبة ٣٦ (٦) المستطرف ١ : ١٢٥

وأربعين ألف ألف درهم. وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعد ماجباها عمرو بن العاص فى زمن الخير اثنى عشر ألف ألف دينار »(١) تدلى إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال، فلما تولاها البرامكة جبوْا منها للرشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار،(٢) واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم.

ويُحمل إلى بغداد غيرَ هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لارزاق الجند وعلَف خيلهم قدرٌ من المصنوعات والغلات التى تكون فى البُلْدان فيحمل من السواد مائتا حُلَّة من الحلل النَّجْرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذى يطبع به على طرف الرسائل السلطانية، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألفَ رطل من السكر، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسود. ومن مَكْران خَمْسُمائة ثوب من المتاع اليمانى وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون. ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندى. ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلثمائة ثوب، ومن خراسان ألفا نُقْرة من نِقار الفضة وأربعة آلاف بِرْذَوْن وألف رأس من الرقيق يُتَّخذون خدماً فى دور الخلافة، ويكون لأمراء بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الإهْليلَج وألف وثلثمائة قطعة من صفائح الحديد، ومن جرْجان ألف شُقَّة من الإبْرِيسَم.

---

(١) المقريزى ١ : ٩٨

ومن قُومَس خمسمائة نُقْرة من نقـار الفضة . ومن طَبَرِسْتان ونهاوَند ستمائة قطعة من الفَرْش الطبرى ومائتـا كُسْوة وخمسمائة ثوب وثلثمائة ألف منـديل وثلثمائة جام . ومن الرَّىّ وقَزْوين عشرون ألف رطل من العسل ، ومن همَذان ألف رطـل من رُبّ الرمان واثنـا عشر الف رطل من التين ، ومن الموصل وما اليها وأعمال نِينَوَى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثنا عشر ألف زِقّ من العسل وعشرة بُزاة مُرَبّاة لصيد الملوك وعشرون كُسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أرْمِينية قَدْر من البُسُط ومن قنَسْرين والجُنْد ألف حمل من الزيت ، ومن جُند فِلِسْطين ودِمَشْق قدر كبير من الفاكهة اليـابسـة وثلثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفْرِيقية مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمن شيء كثير من المتـاع ، وكذلك من نجد وعُمـان واليمـامة والحجاز وكِنْـكوَر وحُلْوان ومِهْرَان وشَهْرَزُور وأذربيجان ومصر وجند الأُرْدُن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى تصرف على الجند وتنفق فى مصالح الدولة (١) .

وهذا المال كلُّه يتصرف فيـه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلاّ فيما يعرِضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين الموازنة بين دخل الدولة وخرجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المـال منذ صَدْرِ هذه الدولة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) لما أدركه الموت قال للمهدىّ فى وصيته إنه خلّف له من الأموال ما إنْ كُسِر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق

---

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ج ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرداذبه

الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك .[١] ولقد أخبرني يحي (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلّف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ،[٢] فلو لم يكن إلاّ هذا فى خزائن الرشيد[٣] لكفى دولته فخراً على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المَنَعَة لأنه ما دام بيت مالها عامراً فلا تزال ممتنعة على العدوّ ، وأما البهاء فيأتيها من المال وإنفاقه فى الوجوه التى ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون فى نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء اليه وانتفاعه بعلمهم فى دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يجيزهم على موضعهم من العلم بما لا يكاد يُحْصى من الجوائز ، وإنّ الذى كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره اذا حضر وقته هو مجلس الغِنـاء ، على أنى لم أره فى السنين الماضية أحفلَ منه فى هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشِط له وقام بِلُبْسَته التى يلبَسها فى الصيف ، وهى غِلالة[٤] رقيقة يتوشح عليها بازار رشيديّ عريض العَلَم مضرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير[٥] يُجيز بها

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧ (٢) المسعودى ٢ : ١٩٤ (٣) ذكر ابن الاثير ٦ : ٧٦ انه كان فى بيت المال لما توفى الرشيد تسعمائة ألف ألف ونيف
(٤) ذكرها الأغانى ٥ : ٣٣ (٥) الأغانى ٩ : ٥٨

من يطيب منه المسموع وتصلُح عنده الصنيعة ، ومن حوله جماعة من بنى هاشم والفضلُ وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان بحانبه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنُّون جلسوا فى صفوفهم بناحيتين من المجلس للمناظرة(١) بينهم فى الغناء . فنهم المتعصبُّون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصِّرون عن أدائه والمغيِّرون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدى . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحق أن إبراهيم تغنَّى بلحْن قديم أضاع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغييره فقال أنا مَلِك وابن ملك أغنِّى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا فى ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيلُ بن جامع وفُلَيح بن العوراء ويحيى المكى وعمرو بن بانة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن مُحْرز والهذلى وغيرهم ، وبَقِىَ مع الموصلى المترفِّعون عن الأغراض والآخذون بمحاسن الغناء من حيث طرائقُ الصناعة مثل مخارق وعَلَّويه وعَريب وبذل وسُلَيْم بن سلام ومحمد الرف وزبير بن دَحْمان وأحمد بن يحيى المكىّ ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم(٢) وكان قوم إبراهيم بن المهدى قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثرَ عدداً من حزب إسحق ، لأنهم كانوا يتقربون بكَفالته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحق وجهَروا بتفضيله رجع الى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون فى أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعونه ، فلم يكن من مفسد له إلاّ الذين تقدَّمت

---

(١) ذكر هذه المناظرة الأغانى ٥ : ٢٦ بين الموصلى وابن جامع

(٢) من كتاب الأغانى

أسماؤهم وجماعةٌ من أولاد العباسيين مثل ابراهيم وأخيه يعقوب وإختهما عُلية وعبد الله بن الهادى وعيسى بن الرشيد وغيرهم[١] ممن يترفعون عن أنْ يقيَّد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وان كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس فى الناس أعلمُ منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبعُ على الغناء . ولقد رأيته إذا غنّى بمجلس الرشيد قَرُبَ كل من فى دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعوه فيه لحسن صوته ، وقليلا ما كانوا يسمعونه إذ كان لا يغنى إلاّ على حال تَصَوُّنٍ عن الغناء وَتَرَفُّعٍ إلاّ أن يدعوَه إليه الرشيد فى خَلْوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحبُّ أن تُشَرِّف جعفراً[٢] بأن تغنيه صوتاً فيغنّى . ولقد كنت ذات يوم فى خدمة أميرنا (أعزه الله) فغنى ابراهيم على أبيات لمروان بن أبى حَفْصة يقول فيها[٣] :

طرقتك زائرةٌ فَحَىٍّ خيالَها زهراءُ تَخلِطُ بالجمال دلالَها

---

(١) أنظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء فى الكتاب التاسع من الأغانى

(٢) كذا فى كتاب الأغانى وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحبباً لأخيه وهى « لاتنقص من قدر جعفر شيئا فقد ذكر » صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزلته كانت عظيمة حتى اذا دعا ابراهيم بن المهدى لجعفر قال له ابراهيم جعلنى الله فداءك انما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك وأعاد القصة نفسها فى الكتاب الثالث صحيفة ٣٤ وذكر فى الكتاب الأول صحيفة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبى أنت ما دعاك الى أن تحمل عبدك هذه المنة التى لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسايرة الرشيد لجعفر انه كان اذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعاً له

(٣) الأغانى ٩ : ٧٢ والاتليدى ٢٨٧

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم ... جبريل بلغها النبي فقالها

فلما بلغ قوله «جبريل بلغها النبي فقالها» هزّ حلقه فيه ورجّعه ترجيعاً زُلزلت الأرض منه ، فما أظن أحداً يقدر على أداء الأصوات مثله الا اسحق المخالفَ له على هواه والمقرّ بما له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقاً الى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى فى ذلك اليوم ابراهيم أبو اسحق وكان ذلك باشارة مسرور العبد اذ كان أمرُ المغنين مفوضاً اليه ، (١) واذا أحبّ الرشيد أن يسمع صوتاً (٢) أشار اليه فأشار هو الى المغنين فغنى إبراهيم .

ولى كبد مقروحة من يبيعنى ... به كبداً ليست بذات قُروح
أباها علىّ الناسُ لا يشترونها ... ومن يشترى ذا علة بصحيح

واللحن فيه ماخورى (٣) لا يعرفه أحد مثله . ثم غنّى على أبيات قالها فى بعض قُرَى الرَّىّ

أنا فى الرىّ مقيمُ ... فى قُرَى الرىّ أهيمُ
ربما نبّهنى الإخــوانُ والليلُ بهيمُ
حين غارت وتدلّت ... فى مهاويها النجومُ
للتى تُعْصَرُ لمّا ... أينعت منها الكُرُوم

ولحنُها من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مَجْرى البِنْصَر (٤) ثم غنى .

ألا يا اسلمى يادارَ مىّ على البِلى ... ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائك القَطْر

---

(١) الأغانى ٦ : ٧٤ والمسعودى ٢ : ٢١٩ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢
(٣) الأغانى ٥ : ٣٦ (٤) الأغانى ١ : ٢

الشعرُ لذى الرُّمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى [١]. ثم غنى

وقفتُ على ربع لميةَ ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثُّه تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرُّمة أيضاً والغناء ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر، [٢] فأجاد إبراهيم حتى كأنَّ كل ما فى المجلس يجيبه ويردد الصوت معه لحسن غنائه، فطرِب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما فى شعر ذى الرمة لأنه كان يحفظ أبياته كلَّها فى صباه، فكان إذا غُنِّىَ فيها صوت أعجبه أكثرَ من جميع الأصوات التى يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر، ففَطَن إبراهيم لذلك وطلب إليه أن يُقْطِعَه شعرَ ذى الرُّمة ويحظُر على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير [٣].

ثم أشار مسرور إلى إسماعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين على إسحق فغنى.

لم تمش مِيلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس إلاّ دونها الكِلَلُ
تمشى الهُوَيْنَى كأنّ الريح تَرْجِعُها مشىَ اليعافير فى جيئاتها الوَهَلُ

الشعر للأعشى [٤] والغناء الأول لابن فيه سُرَيْج بلحن الرَّمَل بالبنصر [٥] ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الأول بالوُسْطَى [٦] على أبيات عمر بن أبى ربيعة.

---

(١) الأغانى ٥ : ٣٩ (٢) الاغانى ١٦ : ١١٦ (٣) الأغانى فى الكتاب الخامس (٤) العقد الفريد ٣ : ١٧٣ (٥) الأغانى ٦ : ٨٢
(٦) الأغانى ٦ : ٨٢.

كأَنّ أحور من غزلان ذى بقر   أعارها شَبهَ العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلِفُنى   فما أَمَلُّ ولا توفى المواعيدا
كأنّى حين أُمسى لا تكلمنى   ذو بغْية يبتغى ما ليس موجودا

ثم غنى بلحن الهزَج بالوُسْطَى [١] على هذين البيتين .

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا   فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأن النوم يَغْشَى عيونهم   سِراعاً وما يغشَى لنا النومُ أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب [٢] ممن يحب الخلاعة فى الأصوات ، فهو يميل إلى ظَرْف الغناء والنَّغم الكثيرِ العملِ [٣] كما يميل إلى ظَرْف المعاشرة والافتنان فى خلاعة الملبَس [٤] .

ثم أشار صاحب السِتارة إلى إسحق بن إبراهيم صاحبِ هذا الفن فجاءه غلام من غلمان الدار بعود هنديّ [٥] كان مودعاً له فى خِزانة المجلس [٦] قد أُصْلِحَت أوتارُه قبل ذلك الوقت ، لأن العِيدان لا تُصْلَح فى مجالس الملوك ، [٧] فضرب عليه نغماتٍ صاح لأجلها القوم جميعاً ثم غنى

قل لمن صدّ عاتبا   ونأى عنك جانبا
قد بلغتَ الذى أرد   تَ وإن كنت لاعبا

الشعر والغناء له ولحنُه من الثقيل الثانى بالسبابة فى مجرَى الوُسْطَى ، [٨]

---

(١) الاغانى ٦ : ٧٧ و ٨٢ (٢) المستطرف ٢ : ١٨٨ والاغانى ٤ : ٩٨ و ٦ : ٦٥ (٣) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال أنه أحلى المغنين نغمة (٤) الاغانى ٦ : ٩٦ (٥) ذكر العود الهندى الاتليدى ١٣٠ (٦) الاغانى ٥ : ١٠٩ (٧) الاغانى ٥ : ٥٨ (٨) الاغانى ٥ : ٧٥ و ١٢٦ و ٩ : ٥٤ و ٥٧ والشريشى ١ : ٣١٢

ثم غنى بلحن وضعه مَعْبَد فى أبيات لأبى صخر الهُذَلِيّ.(١) وهى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوًى كلَّ ليلة ... ويا سَلْوةَ الأيام موعدُك الحَشْر
وإنى لتعرونى لذكراك هِزَّةٌ ... كما انتفض العُصْفور بلله القَطْر
هجرتُك حتى قيل لا يعرفُ الهوى ... وزرتُك حتى قيل ليس له صبر

فطرِب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوانَ من غنائك، وأبو صفوان كنية يلقبهُ بها عند التحبُّب،(٢) فغنى بهذين البيتين.

الطـلول الدوارسُ ... فارقتهـا الأوانس
أُوحِشَتْ بعد أهلها ... فهى قَفْر بَسابس

غناء لم أجد أحسنَ منه موقِعاً فى القلوب، وكنت فى ذلك الوقت جالساً بقرُبة من أبيه فقال «لو لم يكن من بدائع إسحق غيرُ هذا لكفى». «الطلول الدوارس» كلمتان و «فارقتهـا الأوانس» كلمتان أيضاً وقد غنى فيهما استهلالا وصاحَ وسجَع ورجَّع النغمة واستوفى ذلك كله فى أربع كلمات وأتى بالباقى مثله. فمن شاء فليفعلْ مثلَ هذا أو ليقاربْه». ثم قال «والله ما فى زماننا فوق ابن سُرَيْج والغَرِيض ومَعْبَد، ولو عاشوا حتى رأَوْه لعرفوا فضـله واعترفوا له»(٣) والغناء لاسحق خفيفُ ثقيلٌ بالبِنْصر. ثم وجد فى نفس الرشيد إقبالاً عليه وطرباً من صناعته فغنى لحناً صنعه فى شعر للمنخَّل اليَشْـكُرِيّ يقوله فى بعض بنات الملوك المناذرة(٤)

---

(١) الاغانى ٥ : ١٦ والوطواط ٩٠ والاتليدى ١٤٣ (٢) الأغانى ٥ : ٥٢
(٣) الأغانى ٥ : ٨٧ و ١٢٨ (٤) الأغانى ٩ : ١٦٦ و ١٨ : ١٥٢

ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليومِ المطيرِ
فدفعتُها فتدافعت مشىَ القَطاةِ إلى الغديرِ
فلثمتها فتنفست كتنفس الظبى الغريرِ

فأجاد فى الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب « والله ما الغناء الذى يُلين العريكة ويُفسح فى الرأى والصدر ويُحدث فى النفس طرباً إلاّ غناء هذا الرجل » .

ثم أشير الى فُلَيح بن أبى العوراء فغنى على لحن صنعه فى بيتين لعَدِىّ ابن الرّقاع العاملىّ (١)

وكأنّها بين النساء أعارها عينيه أحْوَرُ من جآذِرِ جاسِمِ
وَسْنانُ أقعده النُّعاس فرنقت فى عينه سِنَةٌ وليس بنائمِ

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البِنْصر صنعه (٢) فى بيتين للمؤمّل من شعراء الدولة الأموية .

ألا يا ظبيةَ البلد برانى طولُ ذا الكمد
فردّى يا معذبتى فؤادى أوخذى جسدى (٣)

وهو يعارض فيه اللحن الذى صنعه أبو اسحق فأجاد ولكنه قصّر عن أن ينحو نحو صناعة المَوْصِلىّ ، وإن كان قد مضى فى بعض كتبى السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة ، (٤) إلاّ أنه قد وجد اليومَ من

---

(١) المستطرف والشريشى ٢ : ٢٨٠ (٢) الأغانى ١٩ : ١٤٧

(٣) فى قول الشيخ ابن الفارض

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى يضركم لو كان عندكم الكل

التفات الى هذا البيت (٤) ذكر مثل هذا الأغانى ٤ : ٩٨ و ٩٩

برَعه و برَع الناس كلَّهم(١) فى طيب المسموع ومحاسن الصنعة .

ثم أشير إلى مُخارق(٢) من حزب إسحق ، وهو طيِّب الصوت يُعَدّ هو وإبراهيم بن المهدىّ وابن جامع وعمر بن أبى الكَنَّات من أحسن الناس صوتاً(٣) فغنى بصوت رخيم .

يا ربعَ سَلْمَى لقد هيجتَ لى طربا زدتَ الفؤاد على عِلاَّته وَصَبَا

فكنت أحسَب أن الدنيا قد صارت أحزاناً(٤) لِما ألمَّ فى غنائه من إبراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى .

إنى استحيتُكِ أن أفوه بحاجتى فاذا قرأتِ صحيفتى فتفهَّمى(٥)

وعليك عهدُ الله إن أخبرتَهُ أحداً وإن أظهرتُهُ بتكلم

الشعر لابن هَرْمة والغناء لعبادل من مُغَنِّى الحجاز ، ثم غنى .

فبتُّ فيما شئْتُ من نعمة يمنحنيها نحرُها والفمُ

حتى إذا الصبح بدا ضوؤه وغارت الجَوْزاء والمُرْزم

خرجت والوطءُ خفىٌّ كما ينساب من مكمنه الأرْقم

الشعر لاسمعيل بن يسار والغناء له بلحن الرَّمَل(٦)

ثم غنى يحيى المكىّ بلحن صنعه فى بيتين لمحمد بن أميّة من كتّاب إبراهيم بن المهدى(٧)

أحبُّك حباً لو يفَضُّ يسيرُه على الناس مات الناس من شدّة الحب

(١) الأغانى وابن خلكان والاتليدى وحلبة الكميت (٢) ضبطه ابن خلكان ١ : ١١ بضم الميم (٣) الأغانى ٩ : ٣٥ (٤) الأغانى ٢ : ١٨٩
(٥) الشعر مذكور فى الحصرى ٣ : ١٨٣ (٦) الأغانى ٤ : ١٢٣
(٧) الأغانى ١١ : ٢٤

وأعلم أنى بعـــد ذاك مُقَصِّر   لأنك فى أعلى المراتب من قلبى

ثم غنى بلحن خفيف الرَّمَل(١)

طرقتكَ زينبُ والمَزارُ بعيد   بِمِنًى ونحن مُعرِّسون هُجود

فكأنما طرقتْ بريا روضةٍ   أُنُفٍ تُسَحْسِحُ مُزْنُها وتجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القِسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ما أطرب الناس غناؤه وهو شيخ مُسِنٌّ

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحق(٢)

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّل   وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجْملى

أغرَّكِ منى أنَّ حبَّك قاتلى   وأنَّك مهما تأمرى القلبَ يفعلِ

ثم غنى(٣)

أتيتكِ عائذاً بكِ منـــك لما ضاقت الحيل

وصيّرنى هواكِ وبى لَحَيْنِى يُضْرَب المثل

فان سلمت لكم نفسى فما لاقيتُه جَلَل

وإن قتل الهوى رجلا فانى ذلك الرجل

الشعر لمحمد بن أبى محمد اليزيدىّ ويُكْنَى أبا عبد الله ، والغناء له ثقيل أول بالبِنْصَر إلى أن قال .

وقفت على ربع لسَلْمَى وعَبْرَتى   تَرَقْرَقُ فى العينين ثم تسيل

أسائل رَبْعاً قد تعفَّت رُسومه   عليه لأصناف الرياح ذُيول

واللحن له هزج خفيف بالسبابة ،(٤) فطرب الرشيد وقال لو كنتَ

---

(١) الأغانى ٦ : ٢١   (٢) ذكر المسعودى ٢ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين

(٣) الأغانى ١٨ : ٨٣   (٤) الاغانى ٦ : ١٢

ـكَمَ الوادى ما زدت على هذا الاحسان فى هزجك (١).

ثم غنى حسين بن مُحْرِز لحن صنعة يحيى (٢) المقـدَّمُ ذكرهُ فى هذين البيتين.

هل هيجتك مغانى الحى والدورُ ... فاشتقت إن الغريب الدار معذور

وهل يَحُلّ بنـا إذ عيشنا أنِقٌ ... بيضٌ أوانسُ أمثالُ الدُّمى حُور

ثم غنى.

خمس دَسَسْن إلىّ فى لطف ... حُورُ العيـون نواعمٌ زُهُرُ

فطرقتهن مع الجرىّ وقد ... نام الرقيب وحلّق النَّسْر

الشعر للاحْوَص والغناء لمَعْبَد رَمَلٌ بالسبابة فى مجرى البِنْصَر، (٣) فأجاد لـكنه لم تظهر له صناعة يسمو بها إلى مقامات المتقدمين فى الغناء، وكذلك جميعُ من غنى بعده فى ذلك اليوم إلاّ الزبيرَ بن دَحْمان فانى وجدت لغنائه موقعاً حسناً فى النفوس وكنت أرى الرشيد يتمايل طرباً من غنائه إذ غنّاه.

رَضِيتُ الهوى إذ حل بى متخيّراً ... نديماً وما غيرى له مَنْ ينادمه

أعاطيه كأس الصبر بينى وبينه ... يقاسِمُنيها مَـــــرة وأقاسمه

الشعر لبشّار بن بُرْد والغناء له هَزَج بالوسطى (٤) ثم غنى.

أسرى بخالدة الخيـال وما أرى ... شيئاً ألذّ من الخَيال الطارق (٥)

أهواكِ فوق هوى النفوس ولم يزل ... مذ بنتِ قلبى كالجَناح الخافق (٦)

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رَمَلٌ بالوُسْطَى ثم غنى.

---

(١) الأغانى ٦ : ١٢ (٢) الأغانى ٦ : ١٩ (٣) الأغانى ١٦ : ٩٢

(٤) الأغانى ١٧ : ٧٣ (٥) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦ (٦) الأغانى ٩ : ٥٠

حَيِّيا خَوْلَةَ منى بالسلام ۞ دُرَّةَ البحر ومصباحَ الظلام

لا يكن وعدُكِ برقاً خُلَّباً ۞ كاذباً يلمع فى عُرْض الغمام

واذكرى الوعد الذى واعدتِنا ۞ ليلةَ النصف من الشهر الحرام

الشعر لأعشى همَدَان والغناء لاحمد النصيبىّ ولحنه من القدر الأوسط من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر وعروضه من الرَّمَل (١) فأجاد فى هذا الصوت الأجادة التامة حتي ايس فى المغنين من يقاربه بلحن الثقيل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها إلاّ صوتاً لَعبْثَر صنعه فى بيتين لابن الدُّمَيْنَةِ (٢) :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى ۞ على كبدى من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

وليست عشيّاتُ الحِمَى براجع ۞ عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا (٣)

ولحناً واحداً صنعه فى شعر وضاح اليمن .

إنّ الوُشاة إذا أتو ۞ كِ تنَصَّحوا ونَهَوْكِ عنْ

إنّى تهيجنى اليكِ ۞ حمامتان على فَنَن

فاسقى خليلكَ من شرا ۞ ب لم يكدره الدَّرَن

الريحُ ريح سفَرْجَل ۞ والطعمُ طعم سُلافِ دَنّ

حتى إذا ظن فى نفسه اقتداراً على الصناعة وأراد أن يعارض اسحق باللحن الذى صنعه فى شعر العباس بن الأحنف وهو .

لاجزى الله دمعَ عينى خيراً ۞ وجزى الله كلّ خير لسانى

---

(١) الاغانى ٥ : ١٤٦ (٢) الاغانى (٣) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠

كنتُ مثل الكتاب أخفاه طَيٌّ   فاستدلوا عليه بالعنوان

سُقط في يده وقصّر دون بلوغ المرام . وكان في جملة المغنين رجل أعمى يقال له أبو زَكّار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخرَ من غنى في ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه في هذا البيت .

يا راكب العِيس التي   وفدت إلى البلد الحرام

وثنىّ بآخر لابراهيم الموصلى صنعه فى بيتين لعمر بن أبى ربيعة (١) وهما قوله .

ليت هندا أنجزتنا ما تَعِدْ   وشفت أنفسَنا مما نجد

واستبدّت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنّى بهذه الأبيات .

يأيها القلب المطيعُ الهوى   أنّى اعتراك الطربُ النازحُ

تذكرُ جُمْلا فاذا ما نأت   طار شَعاعاً قلبك الطامح

هلا تناهيت وكنت امرأ   يزجُرك المرشد والناصح

مالك لا تترك جهلَ الصِّبا   وقد علاك الشَّمَط الواضح

ولحنُها ثانى ثقيل بالسبابة فى مجرى الوُسْطَى (٢) فأحسن كلّ الاحسان فى تأدية النغم كأنّه لا تظهر صناعته إلا بغناء مافى معناه زجر وتذكير من الأبيات (٣)

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ وذكر ابن خلدون فى المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوغر صدره على البرامكة . وقد أنكر ذلك ١٥   (٢) الاغانى ولكن لم يذكر لابى زكار صناعة بها   (٣) انما نسبت لأبى زكار صناعة النغم المحزن لأنى طالما ذكرت البيتين اللذين غنى بهما جعفراً قبل أن ينكبه الرشيد وهما قوله

ولما تولى النهارُ أومأ الرشيد إلى المغنين بأن يحُلُّوا صفوفهم ، ثم فرّق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من الصناعة ، فمن مصيبٍ ألفَ دينار ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك . ثم فرّق فيمن يتخلل الغناء بضرب المعازف دون ما فرقه على المغنين من المال ، فأصاب الجوائزَ السنية أربعةٌ منهم وهم منصور زَلْزَل (١) وكان يضرب على عود من العيدان التي صنعها مُعارِضَةً لعيدان الفُرْس وهي عجب من العجب ، (٢) وكأنما تُزلزل المجالس بحسن نغمها ، (٣) وبُرْصوم الزامر (٤) وهو أحسن الناس زمراً بناي ، كان إذا زَمَر فيه يحْدِثُ النَّغم الذي يريده مع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدميّ . وجعفر الطبّال وهو يحسن التوقيع على الطبل (٥) وكان يضرب بالكُوبة (٦) في ذلك اليوم ، ورابعهم الغريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدُّف . (٧) ولما انصرف المغنون لم يبقَ في مجلس الخليفة إلاّ إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة ، وقد طلع علينا من هواء دِجلة في ذلك الوقت نسيمٌ طابت النفوس به انتعاشاً بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرُّها ، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في

فلا تبعد فكل فتى سياتي   عليه الموت يطرق أو يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوماً   وان كرمت تصير الى نفاد

فلم تتمثل لي صناعته الا بمثل ما ذكرته لك بلسان الراوية   (١) ذكر صاحب العقد ٣ : ٢٣٩ أنه مغن من الطبقة الثانية ولكنه قال بعد ذلك انه كان أضرب الناس للوتر   (٢) الأغاني ٥ : ٢٤   (٣) ابن خلكان ١ : ١١   (٤) ذكره الأغاني ٦ : ١٢ في غير موضع والعقد الفريد ٣ : ٢٥٩ وقال انه كان مغنياً   (٥) الأغاني ١٤ : ٥٤   (٦) ذكرها القناوى ٢١   (٧) الاغاني ٢ : ١٢٩

موضعنا شمس الغروب وهى ترسل علينا شعاعاً متناثراً كالذهب يهتز فى نواحى المجلس باهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقُص بنا سروراً بأهله وعزةً بمقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلاّ المحفوظَ فى ذهنى من غنائهم مجرداً عن بيان طرائقهم فى الأصوات وصِناعتهم فى وضع النغمات ، لأنى لو أخذتُ فى ذلك ما وعتهُ الصحف الكثيرة الواسعةُ [1] . وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى غُرَّة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرَّفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية

الرسالة السابعة

فى ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد فى محاورة فقهاء ، وحلَق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليِّين ، ومراواة رُواة ، ونُوَب مغنين . [2] وذلك من الحظوظ التى لا يتفق مثلُها لغيرى من المتصلين بالملوك ، لأنى كنت أقرب الناس مكاناً إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحُظْوة لديه بحيث

(١) راجع كتاب الأغانى ان شئت فيا مطولا (٢) واحدها نوبة وقد ذكرها الاغانى ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب

إذا جلست إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الأخوان ، فكان يمد إلى مخدة [١] يجعلها تحت فخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلمّ بحديثك ، [٢] وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء . وكنت إذا انفردت بمجلسه دون أحد من المقربين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكللات بالأزهار [٣] مزينات باللؤلؤ والزبرجد [٤] وأفخر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهى إلى هدْء من الليل ، فاذا أتاه من الحرَم [٥] التفاحُ [٦] المنقوش المطيب [٧] وغيرُه من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم عليّ أن أجلس إلى طعامه ، [٨] وكان يحب أن أحدّثه عن علوم الفرس وصنائعهم لِمَا طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيراً وصلاحاً ، وينعم فيها العلم روْحاً واستر واحاً . حتى إذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداه حقق لهم جميل أملهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياعَ العامرة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ، بعد أن رأى جعفرا وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة

---

(١) الاغانى ٥ : ١٢٢ (٢) الاتليدى ١١١ (٣) الأغانى ٧ : ٣٦
(٤) الاغانى ٤ : ٦٢ (٥) المسعودى ٢ : ٥٦ (٦) وجدت فى بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين ببهجته والانف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد ٣ : ٣٧٥ (٧) الاغانى ١١ : ٣٥ (٨) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠ والقناوى ٣٦

بتعريبه [١] ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرَّب ذهبا ، (لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة [٢] (أعزهم الله) وهم الذين استنهضوا همم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل الكاغَد لنسخ أسفارهم ، وقد رأوا الرقوق التى تستعمل فى الصكوك ورسائل السلطان لا تكفيهم فى تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغَد [٣] ذريعةً إلى نشر العلم الذى عُنُوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا إلى انتفاع الأمة به إلاّ سلكوه ، وقد أعقبهم هذا المسلك فخراً تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأُحْدوثة فحسدهم الرشيد على ذلك ، وفى نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قد رأيتَ فى كتبى السالفة إليك ، فأنفذ رسله فى إحراز الأسفار القديمة ، وكتب بإشخاص التراجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم من أمم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التى تفهمها العامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهَروا فى استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها ، [٤] فرقَوا من الأدب المقامَ الذى لم ترقَهُ أمة قبلهم فى المشرق . وهذا من الأمور التى تدل على ذكاء العرب [٥] ونُبْل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التى يرومونها من جميع المطالب فى بُرْهة يسيرة من الزمان ، فانا لا نجد فى أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون فى مثل المدة التى وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عند ما صار الأمر إلى بنى أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢٣٦ (٢) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه
(٣) المقدمة ٣٦٨ (٤) راجع المقدمة وكتاب حاجى خليفة (٥) المسعودى ١ : ٢٣٦

الأعاجم سلطانَهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعدَ من الأندلس شمالا . وما مثلهم فى سرعة هذه الفتوح إلاّ مثلهم فى سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنيـة ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلُغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذى ينطق بما عندهم من الهمة والفطانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقـل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحاً [١] أصابوا الرأى بالزيادة فيـه بعد البحث والتمحيص ، [٢] وذلك غيرُ ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر فى العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم فى خلافة أبى جعفر [٣] لأنه كان يعزِّز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزِم على أهل الكتابة أن يدوِّنوا الأسفار الكثيرة لاذاعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفاً عندهم من قبـله إلاّ علمُ الرواية وأخبارُ العرب وعلمُ الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلمُ العروض الذى وضعه الله تعالى فى صدورهم وبضاعةٌ مُزْجاة من النِّجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفُرْس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحَب عليهم أذيال الدَّعة والنعيم بعـد أن فرغوا من أعمال الحروب التى وقعت فى صدر هذه الدولة وجهوا همَّهم إلى النظر فى فنون الأدب لتجديد ما طُمِس من معالم العلم ، فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة

---

(١) حاجى خليفة ٣ : ٩٢ (٢) ابن خلكان ١ : ٢٦٣ (٣) السيوطى وأبو الفرج ٢٤٦

عهد بالعمران ما وُجد ما تحويه من العلم أعظمَ مما تحويه كتب العرب .
وإنى أذكر أنّ الرشيد لما ركب إلى الرّقة فى بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقاً من أسفارهم[١] ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها الا نخبة مما فى خزائنه وقد وجدت فى قصر له بناه بالقاطُول ليخرج إليه للتنزه[٢] خِزانةَ كتب تحتوى على أكثرَ من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهداً على ما نروم ذكرَه من كثرة الصحف التى دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والاطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حَلْقة كبيرة فوّض أمرها إلى طبيب أعجمى يقال له « فرات ابن شحتانا » وهو من تلاميذ تياذوق[٣] الذى كان طبيباً بدار الحجاج أمير العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصارى[٤] دون المسلمين ولست أحسَب السبب فى إعراضهم عن هذا العلم إلاّ ظنَّهم كفايَة ما لديهم من المجرّبات التى توارثوها من مَشْيَخة الحىّ وعدمَ حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة فى كسب الرزق وترفعَهم عنها كغيرها أنَفَةً . وذلك خطأ عليهم شَيْنُه وخُسرانُه ، إذ قد خلت منهم فى دور الخلافة مراتب أُسْنِدَت إلى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم فى هذا العلم وعرّبوا كتب جالَيْنُوس وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا إليها كثيراً مما عرَفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم

(١) الأغانى ٥ : ٦٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦٦ (٣) أبو الفرج ٢٠٠
(٤) فى الأغانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين

على مقالات ارسيخاس[١] وديعقراطيس[٢] وغيرهما من العلماء الذين يُرْجَع إلى كلامهم فى طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مُظهِرَ الطب فى النصرانية رجلٌ يقال له ما سَوَيْهِ أبو حنا وكان أميًّا لا يعرف القراءة إلاّ أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المَرانة له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذى لا يُدْفَع ، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا فتخرَّجا عليه فى علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل ابن بختيشوع فبرعوه فى شفاء الأمراض .

فأما يوحنا فانه صار طبيباً بدار الخلافة ودوّن رسالة طويلة أودعها ما عَرَض له من التجربة فى معالجة أهل السَّقام ، واتخذ مجلساً أفرده للنظر فى استنباط طرق العلاج باجتماع الرأى مع غيره من الأطباء ، وكان الرشيد قد ولاّه ترجمةَ الكتب[٣] التى وصلت إليه من مدوَّنات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما فأحسن تعريبها كل الاحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التى نال منها مشقة عظيمةً . وذلك بخلاف الكتب التى عرّبت فى خلافة المهدىّ وأبى جعفر فانها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها ، إذ كانت عارية من القواعد التى وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من الأطباء ، وكانت إلى الجهل والخرافة أقربَ منها إلى العلم والحقيقة ، فلم يجد التراجمة فى تعريبها عناء يُجْهِد النفس . أما الكتب التى عربها ابن ماسويه فانها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفَسِه .

وأما جبريل بن بختيشوع فانه تبحّر فى جميع العلوم الداخلة فى علم

---

(١) المسعودى ١ : ٩٢ (٢) حاجى خليفة ٣ : ١٢١ (٣) أبو الفرج ١٣٧ .

الطب ، وكتب في حياة الحيوان رسائل[١] تدل على سعة إطلاعه ، وكان جعفر[٢] (أعزه الله) شديدَ الحب له والاحتفاظ به حرصاً على ما وسع صدرُه من العلوم ، فقرّبه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذه فى دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدّماً[٣] من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يُشير به من هذا العلم حملهم على الاعراض عن الدجّالين ، وهم الشيوخ الذين بعُدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخَرَف منهم فيزعمون أنهم يُطبّون الناس بالمواعظ[٤] ليملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخُرافة ، فوُفّق بعلمه إلى بلوغ الغاية التى رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التى تميت الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة « ثانية من الأطباء كلُّهم من أمة النصرانية إلاّ عيسى أبا قريش الصَّيْدَلانىّ ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رُزق الشهرةَ بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشّر الخيزُران فى خلافة أبى جعفر بأنها تحمل مولوداً ذكراً يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاماً أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيباً فى دار الخلافة ،[٥] وقد سمعتُ من يقول إن الخيزُران انما قربته لمهارته فى الحِجامة لا فى الطب ، فان صحت الرّواية كان عندى أحقّ بالثقة فيه حجاماً من الثقة به طبيباً ، إذ لست أثق من الطب إلاّ بما يحفظ الصحة للصحيح ، أمّا وسائل العلاج التى يزعمون أنها تُبْعِد العلةَ عن العليل بعد تمكُّنها منه

(١) حاجى خليفة ٤ : ١٢٥ (٢) أبو الفرج ٢٣٥ (٣) أبو الفرج ٢٣٨
(٤) المسعودى ٢ : ٥٨ (٥) أبو الفرج ٢٩

فما أنا من الثقة بها على شيء ، لأنى أحسَبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة ، وطالما وجدت للاطباء فى العلة الواحدة آراء متباينة ، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف فى الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه إلاّ وجه واحد . أما الحِجامة فانها على خلاف ذلك ، والرأى فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله ، وإنى وإنْ كنت على بُعْدٍ من الطب لا أجد بُدًّا من الاقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركّبات العقاقير التى لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا غرو فان للطب صناعة لا تُبْلَغ الغاية منها إلا على طول التجربة والاختبار فى المَرانة والممارسة ، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين فى كل عصر وأمة ، وقد قال علىّ عليه السلام[1]

ألا لن تنال العلم الا بستة   سأُنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبُلْغة   وارشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الالماع إلى ذكر النِّجامة وأنها من العلوم التى كانت معروفة قِدْماً عند العرب ، غيرَ أنّ الاجتهاد فيها كان محصوراً فى نفر قليل من أتباع الأقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الاسلام ، فلما جاء أبو جعفر قرّب اليه المنجمين وقدم عليهم نَوْبَخْتَ[2] المنجم المشهور عندنا بين أعاظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل ، فاتخذ فى الزَّوْراء حَلْقة شهدها

(١) الكنز ١٣٩ والشبلنجى ١٠٢   (٢) ذكره القزوينى وابن الاثير وغيرهما فى استشارة أبى جعفر اياه فى بناء الزوراء

كثير من الناس ، إلاّ أنه لم يخلفه فى علمه كالمَوْصِلِيّ المنجم ، فانه كتب فى الأصطرلاب سِفراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولا يُميرها العلماء جانبَ الثقة والاعتبار ويرجعون إليها فى علم النجامة والافلاك

ثم نجم بعده فى المسلمين على بن عيسى الأصطرلابى [١] وإبراهيم الفَزارى المنجم ومهرا فى استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت فى خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة فى علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم [٢] فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور فى الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامعَ من مساحات الممالك والبُلْدان أذكُر مما قيّدهُ فى أقاليم الاسلام أنّ عمل أمير المؤمنين من فَرْغانة وأقصى خُراسانْ إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرضَ من باب الأبواب إلى جُدّة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا [٣] ، وعملَ الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعملَ إدريس ١٢٠٠ فى ١٢٠ فرسخاً ، وعملَ فاس لأبى المنتصر ٤٠٠ فرسخ فى ٨٠ فرسخاً . [٤] ثم نبَغ بعدهما تيوفيل بن توما الرّهاوى [٥] وكان المقدمَ على جميع المنجمين فى خلافة المهدىّ (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيليون فى العُصُر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة ، [٦] وأميروس هذا شاعر مُجيد

---

(١) المسعودى ٢ : ٤٠٠ (٢) المسعودى ٢ : ٤٠٠ (٣) المسعودى
(٤) ذكر ابن خلدون فى المقدمة منجماً من الروم يقال له توفيل الرومى وأنه كان فى أيام بنى أمية (٥) أبو الفرج ٢٢٨ (٦) المقدمة ٥٣١

كان يغترف المعانى من بحار التصوّر ويُبرزها فى الصورة التى يعجز عن مثلها الشعراء ، فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفاً لا يسمو إلى متناوله إلاّ العقولُ النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو (١) فى كتابه بمديح يرفعه إلى أسمى مقامات العقول .

أما المنجمون فى هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ماشاء الله اليهودى وأحمد بن محمد النهاوندى ، ودونهما فى الشهرة ثالث يقال له محمدُ بن موسى (٢) المنجم . فاما ماشاء الله فيقال إن له حظاً فى علم الغيب ، (٢) وكان فى جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبى جعفر بعد نَوْبَخْت وكسَبوا الانعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة آخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التى تبحث فى علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندى فانه فى الموضع الأجل من علم الرَّصْد ألّف فيه كتاباً سماه المشتمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرَض له من أمور الفلك بما رصَد فى مدينة جُنْديسابور ما لم يسبق اليه أحد من المنجمين ، ودوّن فى الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتاباً آخر صوَّر فيه الدنيا كلَّها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبُلْدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخاً والفرسخَ اثنى عشر ألفَ ذراع والذراعَ اثنتين وأربعين إصبعاً ، والأصبعَ ست حبات وتسعين مصفوفاتٍ بعضُها إلى بعض ، (٣) وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر فى معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

---

(١) الأغانى ١٥ : ٨١ (٢) أبو الفرج ٢٤٨ (٣) ذكرها المسعودى ١ : ٢٧٨

وقد أهدانى هذا المنجم نسخة مصورّة من كتاب المستمال فى السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرنى أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج إليه من المراجعة والاصلاح بسبب مايعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت .

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول فى هذا الباب إنّ الفُرْس برعوا فى النجامة على العرب ، لأنى رأيت هؤلاء يتجافَوْن عنها ويعُدُّونها هى والسحرَ [١] الذى ينهَى الشرع عنه علماً واحداً ، بخلاف جماعتنا من الفرس فانهم يوجهون عنايتهم إلى العلا فى مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرَصْد وما يُنبىء عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظمَ من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرِّبَ لهم فى الاسلام أبو جعفر المنصور [٢] كما ذكرت ذلك فى مواضعَ من الكتاب لأجل أن يُطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها وينبئوه عن جدب الأرض وخِصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للملوك ، ثم قرّبهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الاصطرلاب [٣] فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال ولينظروا فى النجوم ويُدركوا علم الأبعاد ويُوَقِّعوا زمن الكسوف [٤] وعقدوا لهم مجلساً يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات

---

(١) القناوى ٥١ (٢) السيوطى (٣) ذكر صاحب الأغانى والاتليدى أن جعفرا استشار الاصطرلاب يوم نكبه الرشيد (٤) العقد الفريد ٢ : ٣٨٥ و ٢٤ المقدمة

الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من الأفلاك التي تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا الى مَنْ له علم بالنجامة أن يُعرِّب كتاب المجسطي لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الحلق ، (١) فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركونا في هذا العلم إلاّ بما يلتمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذى يسمونه بعلم الأزياج (٢)

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذى هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب فيه فى صدر الاسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يدونوه فى الصحف ، فلما أسرع الموت فى العلماء وكانوا كلّهم شيوخاً فزِع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يدونون(٣) الحديث مثل ما وجدوه فى الناس محفوظاً بطريق الاسناد ، ولكن من غير أن ينظروا فى الرواية النظرَ الجلىَّ ولا أن يعتمدوا فى النقد الأصلَ المرعىَّ . فكتب ابن جريج بمكة ، (٤) ومالك بنُ أَنَسَ بالمدينة ، ومَعْمَر باليمن ، وسفيان الثَّوْرِىّ بالكوفة ، وهشيم بن بشير(٥) بالعراق ،

---

(١) وقال ان المأمون أول من اتخذها فى الاسلام وانها كانت معروفة عند اليونان كما يستدل على ذلك من العقد الفريد (٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجى خليفة ٣ : ٥٦ (٣) الزرقانى ١ : ١٠ (٤) الزرقانى ١ : ١٠ (٥) ابن خلكان ١ : ٥٢ والأغانى ٥ : ٥٤

والأوزاعى ببيروت[1] من ساحل الشام ، وحماد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبى عروبة بالبصرة ، وذلك كله فى خلافة أبى جعفر[2] رحمه الله . وكان أصحهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكُ ابنُ أنس وهو رأس المحدثين ، [3] رأيتـه إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقلت له فى ذلك ، فقـال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدثَ به إلاّ متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلا ، ويقول أحبُّ أن أتفهّم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان وما فى أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة فى وضع علم الـكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقعَ فيه التخالف ، ثم أخذوا فى تميز المحفوظ من الحديث كلّه لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أوّلَ من أخذ فى ذلك فقيهُ الاسلام أبو يوسف ، وكان من عِلْيَةِ أهل الحديث وهو الذى آخذ الناقلين بأغلاطهم[4] ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الـكذب ،[5] ثم أخذ أخذَه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو اسحق الفَزارى وعبد الله بنُ المبـارَك وهما أشهر الائمة لأيامنا

(١) حاجى خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الاثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٠٧

(٢) السـيوطى (٣) ابن خلكان ١ : ٦٢٦ (٤) ابن خلكان ١ : ٢٧٦

(٥) العقد الفريد ١ : ١٩٩ و ٢١٣

هذه ، والرشيد لا يسمع الحديث إلاّ عنهما . ولا يلتمس الرد على الزنادقة إلاّ منهما . فكان إذا آخذ على الزندقة جماعةً يقولون له وهو يضربهم الحدودَ أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبى صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نَطَق به ؟ فيقول لهم وأين أنتم يا أعداء الله من أبى اسحق وابن المبارك ينخُلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً (١)

ولقد أخبرنى هذان الامامان أنهما يؤلفان فى فقه الدين وعلم الكلام رسائلَ يذكران فيهما مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخَلْق القرآن ويزعمون أنه يحوى غيرَ العربى الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان (٢) فاشيان اليومَ بين الناس ، والأولُ منهما أشد خطراً على الاسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهى الدّعامة عما يُعْلَم عن العرب أنهم خالطوا الأمم فى تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظاً استعملوها فى أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربىّ الفصيح ، فما ورد فى القرآن من الألفاظ الأعجمية إنما دخل فى العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق (٣) بحيث إنه لا يكاد يُرَى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وفى هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قامعة لافترائهم على الله مخمدة لنار الفتنة التى كمَنت طىَّ مذهبهم ، وهذا من الأمور التى ينبغى أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون

(١) السيوطى (٢) الدميرى ١ : ٩٨ والكشكول والاتقان ١ : ٦٨ أو ابن الاثير والاتليدى ٢٤١ وغيرهم (٣) الاتقان فى تفسير القرآن ١ : ١٤٩

آخر أمرها بواراً على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا البُلْدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوّة الاسلام .

ولقد عثرت فى مدوّنات الفقه على كتب جليلة أجلُّها كتابٌ لأبى حنيفة فى الكلام [١] اسمه الفقه الأكبر، وله فى هذا العلم الشأْو الذى لا يدرك ، وكتابٌ لمالك بن أنس سماه الموطَّأ ، وذهب فى استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرد به عن مذهب أبى حنيفة ، وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره [٢] تفضيلا له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضاً على كثير مما دونه العلماء فيما يُشْتَقُّ عن الفقه من علوم الأحكام ، منها لأبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله ، ومنها لابن شُبْرُمة وابن أبى ليلى ، [٣] وقد أفردا نظرهما فى علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب ، وهو الكتاب الذى أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية ، لأنى وجدت قِبَلَ صاحبه من قوة الفطنة [٤] وصدق الحَدْس ما يؤكد لى أنه إن مُدّ له فى العمر فسيبهر الفقهاء .

أما الكتب التى وقفت عليها فى علوم الحديث فانها أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، [٥] غير أن الافادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أنّ جملةَ ما فى غير كتبهم مراجعةٌ وإعادة لما سُبقوا إلى تدوينه ، فكان أنفعَ للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر فى غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر فى نقل ما سبقهم إليه العلماء .

---

(١) حاجى خليفة ٤ : ٤٥٧ (٢) الزرقاوى ١ : ٩ (٣) حاجى خليفة ٤ : ٣٩٦ (٤) ابن خلكان ١ : ٩٢ (٥) كتاب حاجى خليفة

فى تدوين اللغـــــة

أما اللغة فان العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية فى الاصلاح وتدقيق النظر ، لأنه قد سبق اهتمامُهم بها اهتمامَهم بماسواها من العلم اضطراراً إلى تفسير القرآن ، إذكانت الـكتابة مجهولة عنـدهم فى صدر الاسلام ولم يكن يكتب بالعربية غيرُ بضعةَ عشَرَ إنساناً [١] وكانت ألفاظ العرب بعضُها محفوظ فى صدور الرجال ، وكثيرُها ضائع بين الرمال ، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرُقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرّقاً من لغاتهم ، وقيدوها فى الصحف بطريق الرواية والاسناد .

وكانت حروف الـكتابة فى أول الأمر موضوعة بغير علامات [٢] وظلّ الناس يقرءون فى مصحف عثمان وهو بتلك الـكتابة نحواً من أربعين سنة حتى كثر التصحيف لوجود الحروف المتشابهة ، [٣] وما أستغربُ أن يقرأ بعضُ الناس وما يجحد بآياتنا إلاّ كل جبار والأصلُ ختّار ، وعذابى أصيب به من أساء والأصل أشاء ، وهم أحسن أثاثاً وزياً والأصلُ ورِئيا ، والذين كفروا فى غرة وشقاق والأصلُ فى عِزّة إلى غير ذلك ، فوكّلَ عبدُ الملك بن مَرْوان إلى النَّضْر بنِ عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجاً فتميز بعضها عن بعض ومُحِيَ التصحيف فى القراءة .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦ (٢) حاجى خليفة ٣ : ١٥٤ (٣) ابن خلكان ١ : ١٥٧

وضبطُ اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دوّن اللغة مجموعةً فى كتاب واحد الخليل بن أحمد الذى تقدّمتُ لك فى الكلام على البصرة ذِكرَه ، وقد ضمن كتابه [١] أصول اللسان العربى وقيد ألفاظه فى مواضعها من الاشتقاق الا ما كان دخيلا عليه من كلام الأعاجم فانه اكتفى من ذكره بالاشارة إلى عجميته ، وأسند روايته فى ذلك كله إلى أكابر الحُفّاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن على بن حمزة الكِسائى مؤدب الأمين والمأمون [٢] من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه [٣] والفرّاء والأخفش وعلمهُم النحوُ فقط إلا الفراء فانه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها ، [٤] وقد بلغتنى جلالته فى العلم ولكن لم يجمعنى وإياه مجلس إلى هذا اليوم [٥] ومنهم أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البَصرى وقد وقع إلىّ كتاب له فى فقه اللغة لتعليم الرشيد [٦] قبل تشرفى بتأديبه ، وقد أودعه كلام العرب وقيودَ لغتهم وذكر المترادفاتِ التى وردت لهم فى

---

(١) هو أول قاموس كتب فى اللغة العربية (٢) المسعودى ٢ : ٢١٣ والابشيهى ٢ : ١٣ (٣) وقت أبو الفداء ٢ : ١٦ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال انه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائى البحث المشهور فى قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فاذا هو هى وقال الكسائى فاذا هو اياها وانتصر الخليفة للكسائى فحمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر الى شيراز وتوفى هناك . (٤) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨

(٥) ذكر أبو الفداء أنه ولد فى أيام يزيد بن عبد الملك وتوفى سنة ١٨٧ بعد البرامكة

(٦) ابن خلكان ١ ٠ ١٥٢

جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها فى مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التى تصف الأشياء على ازدياد فى معناها أو نقص يبعدها عن الكناية

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربى ، (١) لأنى قد وجدت مباينةً بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غيرَ اللغة عند أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوى هو الحافظَ لمحاسن اللغة التى كان ينطق بها البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضرى قطعةً من كلام العرب يخالطها كلام السُّوقة (٢) وألفاظُ المُعَرِّبين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمًّى فى لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التى نجد أسماءها فى كتب الأعاجم ، كما أن فى لغات الأمصار إضراباً عن تسمية الأشياء التى لا توجد إلا فى بادية العرب

ثم انى وجدت عند أهل اللغة قصوراً تسامحوا فيه وتغاضَوْا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرِّفون الكلام يسرُدون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا إلى ما كانت تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التى كانت تسميه

---

(١) يظهر هذا مما نقله الاصمعى وغيره من كلام العرب (٢) ذكر الأغانى كلام السوقة فى زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ فى غير موضع أما ابن خلدون فيقول فى المقدمة ١٥ أن ملكة اللسان كانت محفوظة فى الأمصار الى عهد الزمخشرى وأمثاله من فرسان الكلام

بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثلَ ذلك مع إغفالهم ما نحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد فى تصريف الأسماء إلى ما يُشْتَقُّ منها من المعانى مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر وذلك من الأضداد التى لا أظن أنها تجتمع فى كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فان الوثوب بمعنى الجلوس فى لغة حمير ، وبمعنى الطَّفْر فى لغة قريش[(١)] . إلى غير ذلك[(٢)]

الشعر فى البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه فى صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلاّ وهو يقدر على قول الشعر طبعاً رُكّب فيهم قلّ القول أو كثُر ،[(٣)] وكان أهل الجاهلية ينطِقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلاّ المفاخرة بين الأقران كما سمِعت الأصمَعىّ يقول « الشعر جَزْل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجده فى شعراء هذا الزمان فانهم يغصِبون أنفسهم على الانشاد بما يستميحون الملوك

(١) فى القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير (٢) قيد العلماء فى كتب اللغة كثيراً من الأفعال التى تشترك فى معنى الشىء الذى له نقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فربما عبروا عن الشىء ونقيضه من هذه الأسماء والافعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلا لا ينحدر منه الرجل الا أن يكون قد صعد اليه ثم لا يعقب الصعود الا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب الا بعد أن يكون حاضراً فانه لا يحضر الا بعد أن يغيب وهذه هى الألفاظ التى يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وانها لكثيرة فى كلام العرب (٣) الأغانى ٢٠ : ٥١

من الأرفاد. وعنـدى أنه كلما تباعدت أجيال الأعراب . وامتزجت بهم الأغراب . وتجافوا عن سكنى البـادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم فى سوق مِجنّة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز [١] فقدوا كثيراً من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلفوا طبيعتهم شيأ لا يقدرون عليه فيقولون البيت ويحككونه أياماً [٢]

وإنما سهّل على المتقدمين الإجادَة فى هذا الفن أنّ شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون نابغةً فيما سواه ثم ان كلام العرب [٣] كان سائراً فى أيامهم على الألسنة فلم يعانوا الى البلاغة تكلفاً [٤] فيما قصدوا من المذاهب التى كانوا يُفردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بهـا موصوفين ، كاسترسال امرىء القيس فى ملاذّ الشـباب بحيث أتى فى نعت محاسن النسـاء بما ليس لقولٍ غيرِه موقعُ مثلُه من القلوب، وإنْ هو إلاّ أرق المتغزلين حيث يقول .

أفاطم مهلا بعضَ هذا التدلل — وإن كنتِ قدأزمعتِ صَرْمى فأجملى
أغرّكِ منى أن حبـك قاتلى — وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعل ؟

وكجِدِّ عنترةَ بن شـداد فى الفروسـية إذ أتى فى الحماسة [٥] بما لم

---

(١) هى الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف فى موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك فى أول يوم من ذى القعدة الذى هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيء للحج فيؤمن بعضهم بعضاً ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون الى حضور الحج ثم يحجون (٢) الأغانى ٣ : ٢٥ (٣) الأغانى ٥ : ٢٥٢
(٤) الأغانى ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧ (٥) الأغانى ٣ : ١٨٨

يأت به أحد مثله كقوله .

لو سابقتنى المنايا وهى طالبةٌ قبضَ النفوس أتانى قبلها السَّبق

وكفتح حاتم الطائى يدَه فى سَعَة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر السماحة والمكرمات فى جميع شعره ويقول (١)

أماوىّ إن المال غادٍ ورائح ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكْرُ

أماوى أن يصبح صداى بقفره من الأرض لاماء لدىّ ولاخمر

تَرَىْ أنّ ما أنفقتُ لم يك ضائرى وأنّ يدى مما بخلتُ به صِفْر

وكارتفاع السموأل بن عادياء فى درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسمى طبقات الشعر وهو الذى يقول

إذا المرءلم يدنَس من اللؤم عرضُه فكل رداء يرتديه جميل

تعيّرنا أنَّا قليلٌ عديدنا فقلت لها إنّ الكرام قليل

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلَّ يوماً حيث كان قتيل

وكانقطاع أميَّةَ بن أبى الصَّلْت إلى العبادة بحيث إنه أتى فى ذكر أحوال الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر (٢) وإن قوله

يوشِك من فرّ من منيته فى بعض غِرّاته يوافقها

من لم يمت عَبْطَةً يمت هَرَما للموت كأس والمرء ذائقها

لأحكم ماقالته العرب فى وصف الموت (٣) الى غير ذلك مما لا يتسع له المجال فنقف منه عند هذا الحد

---

(١) الاغانى ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨ (٢) الاغانى ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التى تدل على أَنَفَة النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة ، بما نعلم من إنشادهم إياها ارتجالا بين العشائر فان الحارث بن حِلِّزة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفّه وهو لا يشعر من الغضب حتى فَرَغ منها ، (١) فيظهر من ذلك أنه كان لهم فى الشعر سر ضاع عن المحدثين سره لانقلابه فيهم من الطبيعة إلى الصناعة ، لأن العرب كانوا شعراء جميعاً وكلهم يرتجز فى حرب أو استجداء أو مفاخرة ، (٢) وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طَرَفة من أصحاب المعلقات

ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال هذا من كلام النبوة ، (٣) ثم إنّ النساء كنَّ يقلن الشعر أيضاً فى أيامهم حتى إنّ بعضهن قد فضُلن كثيراً من الرجال مثلُ ليلى والخنساء وكلتاهما شاعرة فصيحة ، ولقد وجدت من كلام ليلى فى وصف الشجاعة ضروباً من الابداع كقولها (٤)

مهفهف الكَشْح والسِّرْبال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناسُ مُمْساه ومُصْبَحه فى كل فج وان لم يغزُ يُنْتَظَر

ووجدت فى تأبين الخنساء لصخر توجعاً كثيراً بالبكاء عليه حيث تقول

يذكّرنى طلوعُ الشمس صخراً وأذكره لكل مغيب شمس

---

(١) أبو عبيدة والأغانى ٩ : ١٧٨ (٢) الأغانى ١٨ : ٦٤ (٣) العقد الفريد ٣ : ١٢٢ (٤) الأغانى ١١ : ١٧

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يبكون مثلَ أخى ولكن ، أعزِّى النفس عنه بالتأسى

وتقول فى رثائه وهى تصف محاسنه

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضَى مُصْعِدا

وتقول وهو أفخر بيت قالته العرب

وإنّ صخراً لتأتم الهداة به كأنّه عَلَم فى رأسه نار

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير[1] يرفعها الى مساماة البلغاء من الرجال

وقد أجاد المتقدمون فى براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة ، وهم يصفون الرُّكبان والطيْف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفيةَ الرياح رسومها ومخاطبتَهم إياها فيما مضى لهم من عهود الأنس ويصفون ألم الفراق ووحشةَ الديار وما يخالج قلوبهم من الصبابة فى وقوفهم بالعيس على اطلال الديار[2] إلى ان يتخلصوا من هذا الاستهلال إلى مايرون إنشاده فيما

---

(١) الاغانى ٦ : ٨٣ و ٩ : ١٦٣ و ١٤ : ١١٦ والعقد ٢ : ٢٣ وديوان الحماسة والأتليدى ٢٥

(٢) انما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الظاعنين من ماء الى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد وألم الصبابة والشوق لتميل نحوه القلوب وتنصرف اليه الوجوه ويستدعى اصغاء الاسماع فاذا استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له وعقب بايجاب الحقوق ودخل

يأخذون به من المذاهب ، ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلاّ الذين يتوسطون بالبلاغة فى مطلعهم فيستمرون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلون علوًّا حسناً ثم لا يزالون صاعدين فى بلاغة تعجز الفصحاء ، ولكنهم نفر قليل مثلُ امرئ القيس وزهير بن أبى سُلمى والنابغة الذبيانى وهم المقدَّمون على جميع الشعراء ، وموضعُهم من البلاغة واحد ، (١) إلاّ أنه غلَب على ذى القروح التجملُ بالمعانى وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسالُ فى البراعة ، وعلى زهير العنايةُ بتقويم الألفاظ . وقد سمعت الأصْمَعِيّ يقول وقد سئل من أشعر العرب ، الذين شرّق شعرُهم وغرّب ؟ فقال « زهيرٌ اذا رغِب ، والنابغةُ اذا رهِب وامرؤ القيس اذا طرِب . وعنترة إذا ركِب. والأعشى إذا شرِب ، (٢) ولئن يكن فى تفضيل الشعراء بعضِهم على بعض عسرٌ لا يؤمن معه الزلل ما أنا براءٍ فى أبياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة فى الفخر حيث يقول(٣)

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم ... بهن فُلُولٌ من قِراع الكتائب

ولا إلى براعة زهير فى المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله (٤) .

وإن يك من خيرٍ أتَوْه فانما ... توارثه آباءُ آبائِهم قبلُ

ولا إلى جمال الوصف الذى نظمه امرؤ القيس فى معلقته نظمَ اللآلئ

فى شعره وشكا السهر والتعب وسرى الليل وقرر ما ناله من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعث فى ممدوحه الميل الى المكافأة وفضله على الاشياء وصغر فى جنب قدره الجزيل وهزه إلى الفعل الجميل ، الحصرى ٢ : ٢٧٤ (١) الاغانى وكتاب الموازنة (٢) الاغانى (٣) خزانة الادب ٥١١ والاغانى ٩ : ١٥٨ (٤) الاغانى

فى شذور الذهب فقد لا تحضر البلغاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذى ذهب مذهب المعجزات ، فان العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهى معلقة فى الكعبة إلى أن ظهر الاسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دُونَ طبقة هؤلاء من الجاهليين فان لهم من محاسن الشعر موضعاً لا يتعدَّوْنه إلى التصرف فى المذاهب الواسعة كانفراد أبى داود بوصف الخيل ، وعَلْقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حَجَر بوصف الخمر إلى غير ذلك ، (١) وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدى (٢) فان له أبياتاً حِساناً ذكر منها هذا البيت الذى هو أشجع بيت قالته العرب .

قالوا الطِّعان فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فانا معشر نُزُلُ

ولكنى وجدته إذا تعالى فى شعره كثيراً لم يؤمن وقوعه فى الانحطاط ، (٣) وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذى يبعُد عن الأذهان ، وهذا شىء يصح أن نَعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجاً إلى السلامة من العيب إذ يجوِّزون للمتقدِّمين ما لا يجوزونه للمتأخرين .

---

(١) الاغانى ١٥ : ٩٥ و ٩٦ (٢) الأغانى ٩ : ١٤٠

( ) الموازنة والأغانى .

الشعر فى الحضارة

ولقد وجدت فى شعر الاسلاميين المتقدمين علوًّا كادوا يسامون فيه أهل الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعترف لهم بمحاسن البلاغة مثل الأَحْوَص وذى الرُّمة وحسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والقَطامى وجرير والفرزدق والأخطل وجميل وكُثَيِّر وكثير غيرهم ، فان لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجده إلاّ فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم فى المذاهب التى كانوا بها آخذين إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة فى كلام حسان بن ثابت حيث يقول .

لنا الجَفَنات الغُرُّ يلمعن فى الضحا   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وكالاستئثار بالفخر فى شعر الفرزدق الذى يقول فيه (١)

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا   وإن نحن أومأنا إلى الناس وَقَّفوا

وكالتوجع فى الرثاء فى قصيدة الهذلىّ التى يجزع فيها على فقد أولاده إلاّ طفلا صغيراً بقى له ومن جملتها البيت المشهور (٢) .

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنَع

وكالتشبيب فى شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبى ربيعة (٣) بحيث إنّ لهم فى ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك لا ما يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غيرَ الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

---

(١) العقد والأغانى والكشكول (٢) العقد والأغانى (٣) صاحب الاغانى يفضله على شعراء زمانه وربما فضله فى النسيب على شعراء الجاهلية

ثم إنّ الشعر يقع فى الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيراً من البلاغة التى كانت فى لسان الجاهليين لابراز المعانى فى فصيح الكلام إلاّ أنه لا ينحط عنه فى الأوصاف البارعة وتناول المعانى من حيث الشعرُ نفسُه ، فلقد نجد لبعض المحدَثين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم فى طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضعَ الذى كان للجاهليين ، والعذرُ لهم فى ذلك أنّ شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسموَ كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغاتُ إذ ذاك كثيرة فى عشائرهم ، أما اليومَ فان اللسان الذى نزل به القرآن معروف لدى كل انسان فلا يُضْطَرُّ الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضُل بها لسانَ غيره لتوحد لغة قريش فى الامصار كافة . وإنما وجب عليه أن يبتدع المعانى التى لم يَسْبِق إليها غيرُه دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ، [1] لأن الألفاظ السُّوقية لا تمنع [2] أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر فى الاسلام [3] إلى طبقات ثلاث أقربُها إلى فصاحة البداوة أبعدُها عن حضارة الاسلام . أولُها عصر عبد الملك والشعرُ إذ ذاك فى ثلاثة من تميم [4] وهم جرير والفرزدق وهو من نَبَغَة [5] الشعراء والأخطل النَّصرانى وهو المجيد فى مدح الملوك [6] ووصف الخمر ، وكان المقدمَ عليهم

---

(١) ذكر الاغانى ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الالفاظ (وذلك فى زمن الرشيد) (٢) الاغانى ٣ : ١٣٣ و ١٧٣ (٣) أى فى المتمصرين من الشعراء دون أهل البادية (٤) الاغانى ١٩ : ٦ (٥) الاغانى ٩ : ١٤٧ (٦) الاغانى ٩ : ١٤٧

جريرٌ وقد فضّل الشعراء [1] بقوله فى المديح .

ألستم خيرَ من ركِبَ المطايا وأندى العالَمين بطونَ راح

وقوله فى النسيب [2] .

إنّ العيون التى فى طرفها حَوَر قتلننا ثم لم يُحْيِينَ قتلانا

يصرَعن ذااللبّ حتى لاحرَاكَ به وهن أضعفُ خلقِ الله إنسانا

وهذا من الكلام الذى تتناهى إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد مِنْ بعده مثلَه إلاّ فى شعر جميل وكُثيِّر وقد استرسلا فى وصف حياة الشباب وانقطعا إلى النسيب [3] من مذاهب الشعر ، يقول كثير [4]

أريدُ لأنسى ذِكرَها فكأنما تمَثَّلُ لى ليلى بكل سبيل

ويقول جميل

وما زلتمُ يا بُثْنُ حتى لو أننى من الشوق أستبكى الحمامَ بكى ليا

وما أحدث النأىُ المفرِّقُ بيننا سُلُوّا ولا طولُ الليالى تقاليا

على أننى راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلُصَ منه لا علىّ ولا ليا

ومن كلامه [5]

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟

وأول الأبيات قوله .

لقد فرِح الواشون أنْ صَرَمَتْ حبلى بُثَيْنَةُ أو أبدت لنا جانبَ البخل

---

(١) الاغانى ١٠ : ٢ وفى غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣ والعقد الفريد ١ : ١٥١ (٢) الموازنة ٤ (٣) الاغانى ٤ : ٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣ : ١٧٢ (٤) الاغانى وتزيين الاسواق وابن خلكان والمستطرف

(٥) الاغانى والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

يقولون مهلاً يا جميل وإنني لأقسم ما بى عن بثينة من مهل

والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه فى النسيب إلاّ قولُ الأَحوَص[١]

إذا قلت إنى مشتفٍ بلقائها فَحُمَّ التلاقى بيننا زادنى سقما

وأما الطبقة الثانية فانها عصر أبى جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هى زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثرُ من أن يأخذهم الاحصاء ولكنى لا أرى فيهم إلاّ أبا العتاهية وأبا نُواس ومُسْلِم ابنَ الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فانه انقطع فى شعره إلى ذكر أحوال الآخرة[٢] وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعانى الجليلة ما أبرزه فى أحسن صورة . من ذلك قولُه « روائح الجنة فى الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان ،[٣] والناس يقولون إنه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكنى لا أرى ذلك خطأً يعاب به كمن يتطاول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام فى هذا العلم الذى وضعه ولا سيما فى بحر المتدارَك ، فانّ من العَرُوضيين من زاد فيه على ما ذَكَر ،[٤] وقد كان أبو العتاهية من الحُظْوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه فى حَضَر ولا فى سفر ،[٥] ثم آل أمره إلى الزهد[٦] فلبس الصوف وعزَفت نفسه عن الدنيا وكان يقول[٧] .

كأنّ كل نعيم أنت ذائقُه من لذة العيش يحكى لَمْعَةَ الآلِ

---

(١) الاغانى ٤ : ٥٧ (٢) الاغانى ١١ : ٣٢ (٣) الاغانى ٣ : ١٤٣

(٤) المسعودى ٢ : ٢٦٥ (٥) الاغانى ١١ : ٣٢ (٦) الاغانى ١١ : ٣٢

(٧) الاغانى ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ما هو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير والموعظة [١] فيبكى الرشيد من ذلك فيهمّ الجُلاّس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه إنه يرانا فى عَمًى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نُواس فان مذهبه فى الشعر مُضَادٌّ لمذهب أبى العتاهية وأكثرُ ما يتضمنُ شعرُه الغزلُ والزهو وذكر المنادمة والخمر تبعاً لما نعرفُ لهُ من ممازحة الملوك ، [٢] فهو يذكر إبليس والخمر فى شعره كما يذكر أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفائقة قوله

بسَم الصباح لأعين النُّدَماء وانشق جيب غِلالة الظلماء

وله فى صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق [٣] ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا مما يدل على اقتداره فى الشعر وان كان مذهبه غيرَ محمود عند أهل الصلاح ، وهو عندى شاعر الشعراء حقيقة ، [٤] وإنى أفضل شعره على شعر أبى العتاهية لأن قصائده كلّها سالمة من العيب ، [٥] أما أبو العتاهية فانه وان كانت له استخراجات لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد ، [٦] وقد ذكر لى ورّاقٌ فى درب القراطيس [٧] كنت آلفُ حانوته أنه مرّ به أبو العتاهية يوماً وعنده ديوان

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والطرطوشى ١٧ والكشكول
(٢) الاتليدى وحلبة الكميت وتزيين الاسواق (٣) المسعودى ٢ : ٤٢٢
(٤) ذكر صاحب العقد الفريد فى باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه (٥) القيروانى وابن خلكان (٦) الأغانى ٣ : ١٨٠ (٧) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

لأبى نواس فوقع نظره على هذا البيت[١]

لن ترجع الأنفسُ عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

فسألنى لمن البيت فقلت لأبى نواس فقال والله إنى أحب أن يكون لى هذا البيت بنصف شعرى ،[٢] وأظن أنه لو وقف على قوله .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد[٣]

أو قوله وهو أمدح بيت للمحدَّثين

وكّلتَ بالدهر عيناً غير غافلة بجودِ كفك تأسو كلَّ ماجَرَحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت اسماعيل بن نَوْبَخت فى مجالس البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناسَ يقول إنّ الأَصْمَعِيّ أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف أنْ يقال فيه من أبى نواس ، لأنى ما رأيت فى أهل الأدب من هو أوسع علماً فى كل شىء منه وليس له فى الشعراء من مُبَارٍ ، يملَـق له بغبار . وكفى فى تحقيق فضله عليهم أن كلامه كلَّه موزون[٤] فانّ الشعر رسخت فى صدره ملكته وصار فى نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى فانه أرق الشعراء غزلا وألطفهم صنعاً وأكثرهم من المعانى حظاً[٥] إلاّ أن ميله مع أهل البيت وقولُه الشعر فى مديحهم هو

---

(١) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت فى الأمثال السائرة وأبدل بالشطر الثانى قوله « حتى يرى منها لها واعظ »

(٢) الطرطوشى ١٠

(٣) لاغانى واليتيمة ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠

(٤) ابن خلكان

(٥) ذكر له ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيـــات فى عرض التاريخ وقال انها حسنة جداً وذكر الحصرى أيضاً جملة أبيات وقال ان الطائى كان يعول عليه وعلى أبى نواس وان مسلماً أول من لطف البديع . وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع

الذى جعله مقصياً عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل فى نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره ، وقد أبدع مصاغه ورصّعه بدرر البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يامسلم أنت القائل .

أُنس الهوى ببنى علىٍّ فى الحشا وأراه يطمح عن بنى العبـــاس

فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحاً علّهُ يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامتهِ من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذى أقول .

أنس الهوى ببنى العمومة فى الحشا مستوحشاً من سائر الايناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العبّاس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين فانه من أشعر الناس (١) وامتحنه فسترى منه عجباً فرق له الرشيد وفى نفسه من الميل الى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعر بيت لك ، فقال يا أمير المؤمنين أفرِخ روعى أفرَخَ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فانى لم أدخل على خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع فى الانشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له التى تقول فيها « الوَحْل » فانى رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذى أوله .

أديرا علىّ الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذَحْلى (٢)

حتى إذا انتهى إلى قوله .

---

(١) كان مسلم ابن الوليد من أشعر الناس ولكنى لم أر له ترجمة فى الأغانى ولا فى ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠ (٢) فى المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة

إذا ما علت منا ذُؤابةَ شارب   تمشت بنا مشيَ المقيدِ فى الوَحْل

ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى فى الوحل ؟ ثم أمر له بجائزة وخلّى سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة المقدَّم ذكرُهم فى الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت فى بغداد كثيراً غيرهم من الشعراء مثل العُمانى وأبى مُصْعَب وأبى الشيص وأبى عبد الرحمن العطوى وغيرهم ، واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون فى فنون الشعر ويبتدعون القول الذى لم يشرَكهم فيه غيرُهم إلى أن ينظموا القصائد التى ليس فى أبياتها حرف معجم . إلاّ أنهم قد كانوا فى أيام أبى نُواس ومسلم بن الوليد فضاع بينهما فضلُهم ولم يكن لهم ذكر فى مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى فى بعض كتبى السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم أربعةَ نفر(١) ابن سُرَيج وابن مُحرِز وهما مكيان ومالك ومَعْبَد وهما مَدَنيّان ، اذ كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودُومةُ الجندل واليمامة ، وهذه البلاد مجامع أسواق العرب ، (٢) وكانت النساء يشاركنهم فى صناعة الأصوات ، وقد نبغ فيهن عَزّة الميلاء فى الغناء الموقَّع الى أن صارت أحسن

---

(١) الأغانى ١ : ٩٨   (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

الناس ضرباً بعود ،[١] وكان لها أستاذة يقال لها رائقة فاحتذت فنها فى تنسيق الأنغام ، ثم قدم الحجازَ سائب ونشيط وغنيا بالفارسية ، فأخذت عزة عنهما نغما وألّفت عليها ألحاناً كثيرة لينة كما نجد فى غناء النساء ،[٢] ثم ظهر طُوَيْس المغنى فصنع الرَّمَل والهزَج [٣] وأولُ ما غنّى به على لحن صنعه قولُه [٤]

قد براني الشوق حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مِسْجَح الغناء المنقول من الفارسى [٥] وشَهَره بين الناس ، وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا الى أن ظهر معبد فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الأصوات البديعة ما فضَل فيه غيرَه من أهل زمانه المعاصرين له

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذاً عندهم عن الأذان ،[٦] فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس فى اللحون الثمانية[٧] عرّبوه فى خلافة أبى جعفر[٨] أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم فى الغناء ونبغوا فيه النَّبْغَةَ التى ما كنت أحسَبهم يصلون إليها فى زمن من الأزمان ، وما مكّنهم من استكمال هذه الصناعة إلاّ أمران . الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتنُّ فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقيل ،[٩] وابن

(١) الأغانى ١٦ : ١٣ (٢) الأغانى ٥ : ٥٧ (٣) الأغانى ٤ : ٣٨
(٤) الأغانى ٤ : ٣٧ (٥) المستطرف ٢ : ١٨٨ والعقد الفريد ٣ : ٢٣٧
(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧١ (٧) الأغانى ٨٩٥ (٨) ابن نباتة
(٩) الأغانى ٦ : ٦٦

سريج بالرَّمل ، وحكم الوادى بالهزَج [١] وأحمد النَّصيبىّ بالانصاب [٢] وفليح ابن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والموْصِلِىّ باللحن الماخورى ، أما خفيف الرمل فانهم يشتركون فيه جميعاً بحيث لم أجد مغنياً إذا تغنّى لنفسه يكاد يغنى إلاّ خفيف الرمل ، [٣] والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائزَ ومن الأمراء وأهل النعمة أجرةً واسعة على غِنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يُخْرِج بِدَر الدنانير لأجازة المحسنين [٤] منهم لم ولقد سئل حُنَيْن المغنى وقد دُعِىَ إلى مَأْدُبة لا يعهد فى صاحبها السماحة ، لا ترضَى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسّمها بين الناس ، أفتلومونى أن أُغْلِىَ بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبون للعلم ومقرِّبون اليهم أهلَ الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين ابراهيمُ المَوْصِلِىُّ وابنه اسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلاّ أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو اسحق اللحن الماخورىّ الذى لم يشركه فيه أحد من المغنين ، وكان يَظُنُّ لصعوبة المأخذ فى ابتداعه أن إبليس هو الذى ألقاه عليه فى المنام ، فلقد طالما تهوّس بالغناء وأمعن فى تنسيق الألحان على أتم ابداع وأحسنه موقعاً فى النفوس حتى توهّم أن الأرواح هى التى كانت تُظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجِز عنها غيرُه من الأنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء

---

(١) الأغانى ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣ (٢) الأغانى ٥ : ١٦١

(٣) الأغانى ٧ : ٣٦ (٤) الأغانى ١٤ : ٥٥ .

ما لإبراهيم فى العـلم بهذا الشأن ثانى
إنما عُمْر أبى اسحق زَيْنٌ للزمان
جنة الدنيا أبو اسحق فى كل مكان
منه يُجْنَى ثمرُ اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجادة ابنه اسحق وقد وضع ألحانًا لا يقدِر شبعان ممتلئ ولا سَقَّاء يحمل قِرْبةعلى الترنم بها ، وصَنَعَ غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنّم به إلاّ قعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم ،[1] لأنه سما فى اقتداره على الغناء إلى أن يجعل فى نفس السامع تحركا لما يُغنَّى بمعناه من الأشعار ، فيحملها على الكِبْرفى معرض المديح ، وعلى الحماسة والاعجاب فى مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة فى استرسال الهوى ، وعلى البكاء والغصة فى موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلا عن إجادته فى ضرب العود ، ولقد كنت يوماً بدار الرشيد وفى مجلسه عشر جوار يضربن على العيدان فوقع خلل فى مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين وتراً[2] تتحرك بين أناملهن ،فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مدتهم أجيالا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

---

(١) الاغانى ٣ : ٧٩ (٢) الاغانى ١ : ٢٠ وفى الحصرى ٢ : ٢٠٦ قال اسحق انما يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه ويطابق مغناه

وقد كتب إسحق رسالة مطولة فى الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تميزاً لم يقدر عليه سواه[١] حتى لقد خطأ يحي المكى فيما دوّن من الغناء ويونس الكاتب فى الرسالة التى نسب فيها الأصوات الى من ابتدعها من المغنين[٢] إلاّ أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغانى ونسبتها إلى أصحابها فضلا أعظم من فضل يحي فيما حاول تميزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه فى رواياته ،[٣] لأن هذا هو المذهب الذى يتعصب له إسحق ويناظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مرّ فى موضعه من الكتاب .

ومن حذق إسحق فى صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلاّ فيما اقتبسه من تقسيمات أقليدس[٤] وما هو إلاّ النزر اليسير فى جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميز[٥] أجناس الغناء كله ، وجعل الثقيل الأول أصنافاً ، فبدأ فيه باطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ثم بما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوُسْطَى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثانى القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذى تقدم من تميز الأصابع والمجارى وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحناً واحداً ، وذلك بخلاف الذين دوّنوا

---

(١) الاغانى ٦ : ١٨ (٢) الأغانى ٥ و ٦ (٣) الاغانى ٦ : ١٧
(٤) الاغانى ١٥ : ٨ (٥) الاغانى ٥ : ٥٢

الغناء قبله و بعده فانهم أضاعوا صناعة الغناء القديم إلاّ أحمدَ بن يحي المكي المقدم ذكره فى كتاب له فى الأغانى ونَسَبها يقال له المجّرد ، [(١)] فانه أصل يرجع اليه ويعول عليه ، ولست أعرف كتاباً بعد كتاب إسحق يقارب كتابه أو يقاس به ، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه فى تغيير أصوات المتقدمين، و رجع إلى الغناء القديم الذى سبق إلى التعصب له مغن يقال له « سِياط » وفد على المهدىّ رحمه الله وأنا مقيم فى الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به ، ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة [(٢)] أن إبراهيم وإسحق تلميذاه [(٣)] وإليهما المنتهى فى إجادة الغناء .

لُمْعَة فى علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التى استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة عندهم فى صدر الاسلام بل فى صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم [(٤)] حكمة اليونان التى كانوا يحفظونها فى خزائنهم بالأديار، أما اليوم فانا نجدها فى سكان الأمصار من العراق ومصر والشام و بعض أهل الحجاز إلاّ أعراب البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم ، وانما همّهم ارتياد المسارح والمزرع لحيواناتهم كما سبق الالماع إليه فى صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة [(٥)] رياضية ومنطقية

(١) الأغانى ١٥ : ٦٥ (٢) الأغانى ٦ : ٦٥ (٣) الاغانى ٦ : ٩
(٤) المقدمة ٤١٩ (٥) حاجى خليفة : ٤٦٢

وطبيعية وإلٓهية . فأما العلوم الرياضية وهى النجامة والعَدَد والهندسة والغناء فانهم نبغوا فيها النَّبْـغَة التى لم تكن المتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم فى الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل المَوْصِل وخُراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وأرصادها ، كما أنك رأيت فى الكلام على الغناء أن لابراهيم وابنـه اسحق فيما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تتزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقـابلة وهى صناعة استخراج العـدد المجهول من قِبَل المفروض المعلوم[١] إلاَّ بموضعَهم من النجامة والغناء فى تحريرها وإصلاحها والاعتبار فى الأقسام التى تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هى العلوم التى يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التى لا غاية بعدها فى الاصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذى أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل ،[٢] وقد عُرِّبت رسائلها فى خلافة أبى جعفر ثم أعيد تعريبها فى هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل[٣] جمل مقالات اقليدس فى جلد كبير سماه كتاب الأركان ،[٤] وفيه خَمْسَ عَشْرَةَ مقالة يبحث فى الأربعة الأُول عن السطوح ، وفى الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفى السادسة عن نسب السطوح بعضِها إلى بعض ، وفى السابعة إلى التاسعة عن العدد ،

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) ابن نباتة (٣) هو مهندس ذكره الاغانى ٦ : ١٩١ (٥) المقدمة ٤٢٤

وفى العاشرة عن المنطَقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفى المقالات الخمس الباقية بحث واسع فى المجسَّمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فنَّ الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب فى الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضاً علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس[1] من اليونان أيضاً فعرفوا ما يقع من الأشكال والقطوع فى الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء[2] بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخَطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك[3] فان اجادتهم فيها كانت دون اجادتهم فى العلوم الرياضية ، لأنَّ طبائعهم ما تهيأت للعناية إلاّ بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التى لا مطمح وراءها الا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافياً لمكان أهله من الخشونة ومُقامهم فى القفر بين الابل والوحش والمنازل الخالية[4] فان شعر المتمصرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعراً أرق من النسيم[5] وذلك لغزارة المياه فى أراضيهم ونماء الرياحين فى جناتهم وظهور ريح الصَّبا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذاهب إلى الغرب

---

(١) المقدمة ٣٥٩ (٢) المقدمة ٣٥٨ (٣) حاجى خليفة ٤ : ٤٦١

(٤) الكشكول والاغانى (٥) راجع كتاب المقرى وغيره من تواريخ الاندلس

ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التى ينفح فيها الطيب على غصن أندلسها الرطيب فيقول[١]

وإذا ما هبت الريح صَبًا صحت واشوقى إلى الأندلس

وديار الأعراب قفر وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجده فى شعر الأندلسيين .

أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب فى المنطقيات لأرسطو الحكيم[٢] عُرِّبت فى خلافة أبى جعفر[٣] بمناظرة عبد المسيح الحِمْصى وهو من أشهر النقَلَة بعد سلام الأبرش ،[٤] وقد اشتملت على رسائل ثمان ، أربع منها فى صورة القياس وأربع فى مادته ،[٥] وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخَطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العلم إلاّ ابنَ العلاف[٦] خطيبَ هذا الزمان فى رسالة له فى الخَطابة بدأ فيها بذكر سحبان وقُس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التى تلزم الأدباء فى الخَطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ وإكثار المعانى فى قليل من الكلام

---

(١) المقرى (٢) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها فى صورة القياس وأربعة فى مادته وهى كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم أن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لابدمن الكلام فى الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها فصارت تسعاً . المقدمة ٤٢٩ (٣) المسعودى ٢ : ٤٠٠ (٤) حاجى خليفة ٣ : ٩٧ (٥) المقدمة ٤٢٨ (٦) ذكره ابن خلكان ٩٢

وأما العلوم الطبيعية وهي علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبي جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض وغير ذلك .[1] وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما في منوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة ، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون في استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموى قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودوّن فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره ،[2] وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة في علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من النبأ إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار فبقيت الكيمياء مفرّقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيّان الطرسوسي تلميذ جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه فكتب سفراً جليلاً في علل المعادن[3] ودوّن الكيمياء في سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونبذ فيها من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرّباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين

---

(١) الاغانى ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ — (٢) ابن خلكان ٥ : ١٤٦٧
(٣) حاجى خليفه ٤ : ٢٤٦

منها القوة النفسية وهى السيمياء ، ومنها القوة العلمية وهى الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية فى السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثله حكماء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر[١] أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التى بلغها منها ، وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن[٢] فى هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الألهية وهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم فى علوم الدين كما رأيت وفى علم الكلام الذى وضعوه تحفظاً[٣] من العلوم الحكمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف ،[٤] وقد رأيت لهم كتباً فى السياسة المدنية[٥] يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التآليف التى فيها رأى ونصيحة ،

---

(١) المقدمة ٤٦٣ (٢) المقدمة لابن خلدون (٣) ابن خلكان ١ : ٦٨٧ (٤) حاجى خليفة ٣ : ١٠٠ (٥) ذكر هذا ابن خلدرن فى المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٢ : ١١٢ و ١١٤

أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلاّ بضاعةٌ مُزْجاة لأنهم لم يُعْنَوْا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرّرهُ فى نفوسهم من الفائدة وفى معايشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو ولىّ المؤمنين لارب غيره ولا معين سواه

أدب السير والحكايات

نُفْرِد هذا الباب لذكر الحكايات والقِصص فانها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأولُ من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة [١] والذى كان قائماً بديوان الانشاء فى خلافة أبى جعفر ، [٢] له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة [٣] ومقالاتٌ فى البلاغة تُشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلاّ أن أهل زمانه قد اتفقوا،وهم دونه فى العلم ، على أن يقولوا إنّ كلامه كان أكثر من علمه ، [٤] لأنهم ما أحبّوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له فى تعريب كتاب هندى يقال له كليلة ودمنة [٥] وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم

---

(١) العقد الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩
(٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الفخرى ٣١ (٤) ابن خلكان الأغانى ٨ : ٧٦
(٥) ذكره المسعودى ١ : ٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى أن عبد الله بن المقفع كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها الى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتباً كثيرة

والطير وأشير فيه إلى سلائقنا من الحلم والمكر والجراءة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروباً من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسىّ وأدبىّ ، فأما السياسىّ فانه داع إلى العدل وزاجر عن البغى ، وفيه بيان سلوك الملوك فى آدابهم وتدبيرهم لأمور ممالكهم وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأنّ الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يُقَرِّب إليه أهل النميمة والفساد . وأما الأدبىّ ففى بيان المعايش فى ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد فى تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغى لهم فى سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يُعَدّ كتابهُ من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إنّ كسرى أنو شِرْوان أنفذ طبيبه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم(١)

وقد وضع ابن المقفع فى أول ترجمته فصلا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوفِ تنقسم إلى أربعة

---

(١) ذكر الحصرى أن سهل بن هرون ألف فى زمن المأمون كتابه المسمى « ثعلة وعفرة » يعارض به كتاب كليلة ودمنة وانه كان ظريفا عالما حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الأوائل فى كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

فأحدها ما قصد إليه من وضعه على ألسنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة فى صوره فيتخذه الملوك والسُّوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطُل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة ،(1) وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عُرِّبت عُرِّيت إلاّ هذا الكتاب فانى رأيتــه فى العربية أفصح منه فى الفارسية ، وقدكان صِبْية البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطَن لذلك أبان بن عبد الحميد(2) ونظمه لهم بالشعر حتى يسهُل عليهم

(1) المقدمة ٢٥٧ (2) ذكر فى العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيى فيها حلاوة شمائله وبراعة أدبه يقول : أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح

كاتب حاسب أديب لبيب ناصح زائد على النصاح
شــاعر مفلق أخف من الر يش اذا ما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة ونفــاذ أنا فيــه قلادة لوشاح
لو رمى بى الأمير أصلحه اللـــه رماحاً صدمت حد الرماح
ثم أروى عن ابن سيرين فى الفقــه بقول منــور الافصاح
لست بالضخم فى روائى ولا الفد م ولا بالجعــد الدحداح ؟
لحية كثة وأنف طويل واتقـــاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح النا س، بصير بخافيــات ملاح
لم وكم قد خبأت عندى حديثاً هو عنـــد الأمير كالتفاح
أيمن النـاس طائراً يوم صيد فى غدو أو بكرة أو رواح

استظهاره ، يقول فى مطلع ذلك الكتاب (١) .

هذا كتاب أدب ومحنه   وهو الذى يُدْعَى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رُشْدُ   وهو كتاب وضعته الهند

إلى آخر الأبيات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضلُ نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة التى ورثها عن أبيه . فقد كان عبد الحميد من فحول الكتّاب الذين فتقوا أكمام البلاغة وفكوا رقاب الشعر ، (٢) وكان نخراً للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان ، وأخذت بمجامع الجَنان ، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً فى دولة الأمويين قال لمروان سأُصْدِر عنك كتاباً إلى أبى مسلم فان قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم (رحمه الله) وكان عالما بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقُوا الكتاب على طيّه فانما فيه سحر غالب » على أنى لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقةٌ بأن تكتب بماء الذهب وتُتْحَف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من كتب السِّيَر والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (٣)

أعلم الناس بالجوارح والصيد   وبالخرد الحسان الملاح
كل هدا جمعت والحمد لله   على انى ظريف المزاح

(١) الاغانى ٢٠ : ٧٣   (٢) العقد الفريد والمسعودى ٢ : ١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده .   (٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

وفيه أخبار ملوك الهند و بناتهم وما يتخللها من الأمثال التي توسع المقول أدباً مع فكاهة وترويض أفكار ، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسمّوه ألف ليلة وليلة ،[١] ومعنى هزار أفسان ألف خرافة ، وكان السبب في وضعه كما هو معروف أنّ ملكا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غيرةً عليها من الرجال ، فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهر زاد وفي بعض النسخ شيرزاد ، فلما اتصلت به أخذت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته اليه ، ووقفته على حيلتها عليه . وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد أو دينار زاد[٢] كانت موافقة لها على ذلك ، وفي هذا الكتاب دون المائتي سَمَر لأن كل سَمر كان يُحدّث به في ليال عدّة ، وهي من أظرف الحكايات التي وضعتها الفرس في غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النُّساخ والكتاب وأضافوا اليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأنس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية لا يخالطها من كلام الفرس الا القليل ، وهي وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب في أنهم يتملكون فؤاد السامع برقة مأخذهم في تجميلها

(١) المسعودي ١ : ٢٩٦ (٢) كتاب الفهرست

ورونقها ، كالذى زعموا أن صياداً ألقى شبكته فى البحر وظل نهارَه طولَه لم يظفَر بسمكة ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاقت به الحيل جرّ الشبكة فاذا هى ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيض بثمنه عن نَصَبه فى ذلك اليوم ، فاما جذَبها إلى الشاطئ وجد فيها قُمْقُماً من نحاس وعليه خاتَم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض خِتامه فصعِد منه دخان خيّم على السماء ، فنظر فى الدخان فاذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضَح منـــــه جانٌ من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرَقاً بحيث لا يتنبه السامع الى أن هناك خرافةً ، فاذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصيادُ من الجوهر والمال بعد أن خامره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض ، والتمس فى نفسه مثْلا لهذا المسكين فوجده كثيراً فى الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سراً يريده الكاتب من وراء الفكاهة

وإجماع الرأى على أنْ ليس فى حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعاً ، فان فيهـا من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليـه من وصف معايش الناس وأخلاقهم وما يتقلبون فيه من الأحوال التى توسعوا فى وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة ، جميل العائدة . فأما الحكايات التى ذكروا وقوعها فى الاسلام فلا تبعُد عن الأحوال التى تحدث ببغداد فى أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزِجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوّقون إلى الوقوف عليهـا مما اتفق وقوعه للملوك ، مثلُ حكاية الخليفة الثانى وحكاية الخليفة والصياد إلى حكايات غيرها يظرّفون بهـا الخبرَ عن

الرشيد وجعفر ، أمّا ما ذكروه عن تطوافهما [١] مع مسرور ليلا في الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد فان ذلك ليس بالموضوع ، وقد ذكرت مثله في رسائلي السالفة إليك غير أني جردته عن المبالغة التي يزيّن الرُّواةُ بها أحاديثهم ، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلهما لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وانما أقبل خلق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث كان يتعذر عليهم معرفة غثها من سمينها ، ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البُلْدان البعيدة الشُّقة المتفاوتة السبيل ، فلو حدثهم بأنّ في الشام مدينةً من النحاس [٢] أو بالعراق بلداً صار غديراً ثم انقلب ماؤه إلى عمـــارة وأسماكُه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرُقون هذه البلدان كلَّ يوم وعهدُهم بها على غير انقطاع ، وإنما نُقِل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوَقْواق وما وراءها من بُلْدان العجائب فاوسعوا صدروهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة .

ومن أظرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء . وغانيـة هيفاء . وشاعرة فصيحة

---

(١) الاتليدى ١٢٦ والأغاني ٦ : ١٣٧ وغيرهم (٢) المسعودى وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين

وعجوز ذات دهاء ، وما توسعوا به فى كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم فى التلاق ، وتوجعهم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التى ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذى يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تتمثل فى الضمير على سبيل التخيل ، كالذى يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كلُّ من فيها نساء وتجارُها نساء وجندُها نساء وكلُّهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضَى بينهن أياماً من النعيم أقلُّ ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة فى البحر على سبيل التسلية خرجت له من الاصداف صَبيَّة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجِنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذى يحرك القلب ويملك الجَنان .

وقد حلا لى من حكاياتهم أيضاً حكاية السندباد [1] وهى تشتمل على الحوادث التى وقعت له فى أسفار سبعة أتى عليها جميعاً فى طلب المال وفى كل سفْرة عجيبةٌ لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التى وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الاخطار لنيل العلا والفخار ، بما تمتلك به أنفسَهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البُلْدان التى نزل بها السندباد . وعلى بعض ألسنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسُن أن يكون فى كلامهم حتى نفَوا العجمية

(١) ذكرها المسعودى فى موضعين من كتابه أحدهما فى صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئاً والثانى فى صحيفة ٣٨ وقال انه كان فى عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بثلثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

عنها . وهذا كلام فيه بُعْدٌ عندى ، لأنى طالما سمعت رُواتهم يحدثون بمثل ذلك ، وفى مطلع الحكاية أن الحمّال اشتد به الحر فحط حَمْلَته على باب التاجر فى ظل يتردد اليه النسيم الرطيب، وتفوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عِزَّة ذلك التاجر فى كثرة غلمانه ، ويسمع تغريد القَمارىّ والشحارير فى جنانه . وينشَق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لانقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطَّرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد اليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنُّعْمَى ، وعيش الشَّظَف والبلوى .

ولست أظن فى هذه الحكايات السندبادية إلاّ أن واضعها رجل قد عانى الأسفار، وتقلب على متون البحار، حتى عرَف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار، وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تَقَلُّب الكتاب فى أيدى الأدباء الذين عزّ علم جميعهم عن أن يضمُّه صدر واحدٍ من الرجال ، وإلاّ فان فى وصف الحروب من ذكر الكرّ والفرّ وحيل الفُرسان ما لا يستنبطه إلاّ من طال وقوفه فى ساحات القتال، وكذلك فى نوادر الزواج والطلاق من المُعَمَّيات ما لا يَسْتخرج فَتْواه إلاّ فقيه مجتهد فى الأحكام الشرعية أيّما اجتهاد ، ولولم يكن هذا الاستدلال صحيحاً لوجدنا فى اختلاف الأقلام دليلا واضحاً على اشتراك الأدباء فى تأليفه ، لأنا نجد فيهم من يسترسل فى المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفُرسان أنه قتَل فى معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس فى الامكان إحصاء عددهم فى يوم واحد فكيف بقتلهم ؟ ثم نجد مَن رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدَّه إلى ذكر المبالغة التى بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار

للنظر فى عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه فى كلامهم عن العرب من ذِكر المحاسن التى تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوئ التى تفانوا لأجلها فى طلب الثأر وإدراك الغنائم ، أو مثل ما قصدوا إليه فى حوادث زماننا هذا من ذِكر أخبار النساء كما هى ، إلى غير ذلك من وصف العادات المُتْرَفة التى وقعت فى بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذى أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها فى أدب الحكايات

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار فى أطراف البُلْدان حتى تجاوزوا الصين الى ما وراء فَرْغانة ،[1] فاستفادوا بذلك غيرَ ما كسبوه من الأموال أحوالا شاهدوها وعادات جَرَوْا على سَنَنِها ومبانىَ حاكَوْا منها الزينةَ والإحكام ، وشرائع تفقّهوا فى استخراجها للأحكام .

(١) يستدل على ذلك مما دونه رحالة العرب وعلماؤهم فى الجغرافيا

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحيّ بغريب ما نظروه ، وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بي من أنّ في بعض الأمم رجالاً عِراضَ الوجوه سودَ الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار ،⁽¹⁾ وفي جلودهم نُقَط حمر وصفر وبيض ، وأنّ منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسُه كرأس الكلب ، ومن جسمُه كجسم الثور أو الأسد ،⁽²⁾ ولقد سمعت من يحدّث أنّ من البلغار من طولُه أكثرُ من ثلاثين ذراعاً يأخذ الفرَس تحت إبطِهِ كما نأخذ الطفل الصغير ، ويكسر بيده ساقه كما نقطع باقة البَقْل⁽³⁾ إلى غير ذلك . واستأظن هذه الأساطير التي يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلاّ أنهم رأوْا رسومَها على الآثار التي خلّفها الهنود والفُرْس والقبط السالفةُ من قوم فرعون وغيرهم من أهل الأعصر الخالية فحدّثوا بها رجماً بالغيب ، أو تحصيلا لليقين من الرَّيْب . ظنّاً منهم ان أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت في قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قَصاَ عنا من البلدان .

ولمّا دارت هذه الأساطير بين الناس ، وتناقلها الندماء والجلاس ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ في الأوراق حتى لا يتشوّه على تمادي الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظاً في صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من

---

(1) ابن خرداذبة ٦٣ (2) القرماني ٥ : ٥٤ (3) المستطرف ٢ : ١٦٢

أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقّتون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقّته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى فى أيام كسرى ، وهذا فى حَرب البَسُوس إلى غير ذلك [١] وأمّا الحوادث التى وقعت فى الاسلام فقد أرخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصحّ فى النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأنَ الرُّواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهرُ من أن يذكر ، والحوادثُ إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ، ولم يسلَم لهم من الفساد إلاّ علمُ الأنساب الذى حفظته فيهم العصبية [٢] حتى اتصلت أنساب أشرافهم إلى أولاد ابراهيم (عليه السلام) مثلُ أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات .

وأولَ من سبق إلى تدوين التاريخ محمدُ بنُ اسحق [٣] فى كتابه عن المغازِى والسِّيَرَ وأخبار المبتدأ ، [٤] ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنَّفا ، [٥] ثم أخذ أهل العلم فى تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف بالواقدى كتاباً فى فتوح الشام ضمنه كثيراً من سِيَرَ الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التى سُعِّرَت نارُها على عمّال الروم ، إلا أنى رأيته يسوق الحديث فى كلامه عن الجند والقتلى جُزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفاً من المسلمين وإلى حصن كذا كذا وكذا رجلا والى البلد الفلانىّ كذا خلقاً عظيما مما لو جُمِع إلى ما فرّقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدرَ نصفه فى جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة

(١) راجع كتاب الأغانى (٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد
(٣) حاجى خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير انه مات سنة ١٥٠
(٤) المقدمة ١٧٠ (٥) المسعودى ٢ : ٤٠١

النقل ، وكذلك اكثاره فى عدد القتلى من الروم كأنْ يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن فى جندهم مثله فى جميع ما لهم من البُلْدان ، فربما انفرد الواقدى فى علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دوّن التاريخَ بعده حَمّاد الراويةُ وعبد الله الأَصْمَعِيُّ وهما يعرِفان أخبار العرب وأيامَهم وأنسابهم ويُمليانها عن ظهر قلبيهما إلاّ أن الخلل فى رواية حماد أنّه يقول الشعر على لسان المتقدمين [1] فيما يروم إسناده اليهم من نكتة أو من خبر ، فهو إلى المؤاخذة بما يُدْخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقربُ منهُ إلى الثناء على مايضعُه من الشعر الذى لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روَى لهم ألفين وتِسْعَمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائةُ قصيدة كبيرة سوى المُقَطَّمات [2] . وأما الأَصْمَعِيُّ فليس ثَمَّةَ من الأمور التى ننتقدها عليه إلاّ أنه كثير الرواية واسعها حتى يكونَ فيها بعض المِرْية عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدقَ بل لكثرتها فيما نَقَل بمدوّناته ، وهذا لا ينْقُص فضلَه فى العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشىء الذى يزيد قدرُه على أن يكون مثله فى صدر رجل .

ثم إنى وجدت الأَصْمَعِيَّ وحمادا كليهما قد وقعا فى الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهلُ الرواية قبلَهما و بعدَهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعاً عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الاسلام حتى

(١) الاغانى وابن خلكان (٢) الأغانى ٥ : ١٦٥

لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم (١) كما يقولون ، وأمّا القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبدأها وغايتها ولا أن ينظروا فى عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت به دولهم بعد أن تسلّموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون فى انتقاد الأشياء تَذْكِرَةٌ للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التى يُسْتَرْشد بها والمساوئ التى ينبغى الاستنكافُ منها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلّقه فى هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما تمهروا فى استخراجه من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات ، (٢) إذ كان لهم غير من ذكرنا من العلماء كثيرٌ من النقّاشين والمصوّرين والصناع مما يدل على أن لهم صوراً على الورق الصقيل (٣) تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلةً وليست بداخلة وفيها كلُّ غريبة من الأبداع ، ورأيت من رسومهم على الآنية والأعمدة والقباب ما يبهَر البشر فى إحكام الصناعة مع الحلاوة وتمام الزينة مع الحسن والطَّلاوة ، وهذا كلُّه قد توصلوا إليه فى عصر الرشيد وملوكِنا البرامكةِ (أعزهم الله) وقد سُمِّىَ بالعروس (٤) لخِصْبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه فى جميع البُلْدان الاسلامية . ولعمرى أن فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهداً ناطقاً ببلوغ الغاية من

---

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره (٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حاجى خليفه (٣) كليلة ودمنه (٤) المسعودى ٢ : ٤٠١ والشرقاوى ١٢٢ وفى الحصرى ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة روض الأزمنة

العمران . إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم فى كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب فى أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى الله عليه وسلم) والله نسأل أن يُجَمِّل حالنا بالستر الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا ربّ سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفرده لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرَنْجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفْرِيقِيَة . كان الرشيد يومَ وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة [1] قد استدعانى إليه فأصبته فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمراً عظيما ، فاستدنانى [2] إليه وقال إنّا أتانا من ملك الفرَنْجة رسولٌ يقرئنا منه السلامَ ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحجُّ إلى بيت المقدس من ملّته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائفَ نروم منه أنْ يتقبلها فى سبيل المودّة لغاية نرغب فيها إليه هى التعصُّب على بنى أمية الذين يعزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ، [3] فإذا وافقنا على

---

(١) هذه اللفظة لقب رومى للقياصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت فى ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظة انبرور بحذف الذال وهى تشبه أن تكون منقولة عن الفرنساوية (٢) فى الأغانى ٤ : ٤٨ أن الخليفة يستدنى من يحبه (٣) راجع المقرى وابن الاثير تجد كلاماً مطولا فى هذه الحروب

ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة ، واجهَد فى أن تسترقّ قلبه بخلابة لسانك ، وتقدّمْ إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفّيه حقّه يوم الفتح ، ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونُجرى الأرزاقَ الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحبْ معك هذا اليهوديَّ الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مُتْرَف جليلُ القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدّمنا إلى مسرور أن يُصْحِبَك بالخُدَّام مع الدوابِّ والخيام إلى بَيْروت من ساحل الشام ، فاذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرْنا الليثَ أن يوجّه معك طائفةً من الحرس إلى عَيْذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافِقنُا حاجّين ، فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحِراسة ، ويهدى قلبَك الصوابَ وهو ولىّ التوفيق .

فلما أذِن لى بالانصراف أتيت البرامكة لأستطلعهم رأيهم فى المصلحة فلقيت جعفراً متنزهاً فى البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال اخرُج عما بنفسك وحدّثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنَّى ذلك ؟ فقال علم الله أنى أنا الذى أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرَنْجة رسولَ خير ومودة وسلام . ثم أومأ إلى الجلاّس فتنحَّوْا عن موضعنا فاستدنانى إليه وقال بم أوصاك ؟ فقلت بكذا وكذا من الأمر ، فوجَم ساعة ثم قال سبحان الله إلامَ يتمادى به تغريرُ القتال ؟ لقد أشرت عليه بأن يعدِل عن مناجزة الأمويين ، لأن لنا فى الشرق ما يشغَلنا عن قتالهم ، وفى الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة فى كل حين ما ان ضعفُنا عنهم مرة

واحدة فسدت دولته فساداً لا تقوم لها من بعد قائمة . وان يكن الرشيد عن موعظتي غنياً بما عنده من العقل والسلم فان الملوك قد تطمح نفوسهم إلى ما وراءه الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ » ،(١) فالنا وللأمويين وقد كفانا الله شرّهم ، فان كانوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحَرَب الى ما وراء البحور ، وليس لنا أن نُلقِيَ برجالنا في المواضع المُجْحِفة ونوردَهم موارد الهلاك ، فاني أرى الجند يتفانَوْن قبل الاشراف على تلك المتالف ، كما اني أحسَبُ الأنبرذور على ما يؤثر عنه من إيثار الرفق ولزوم التؤدة بعيداً عن موافقته على ما يروم من الايقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون في ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد عَمَروا أمصارهم ودوّنوا دواوينهم وشكُّوا في حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعُدَّة والكُراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم شَيْبُ الغراب ،(٢) ولقد كان أولَى بالرشيد أن يرَى دول الأندلس درعاً منيعاً للاسلام وسيوفاً مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمَنْ إنْ أرسل الجند أن يخونه القوادُ أو مات الأنبرذور عن خَلَف لا يرعَى العهودَ أن يوجه من يقبض على عمّالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فان رغِبَ عما فرَط منه وإلاّ فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ أمنيته .

(١) سورة المائدة (٢) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق الى الأندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أحبوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبقي الرمق وبلغ استقتالهم في سبيل الملك الى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر « ابن الاثير ٦ : ٤ »

فلما كان الغدُ بكَر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام وَ يَمْحَضُه الرأىَ والنصيحة ولكن من غير أن يقوّم ما بنفسه من الميل ويعدِل به عن ركوب هذا المركَب الوعر. فاستدعانى إليه وسلمنى كتابه إلى الأنبرذور وأمرنى بأن أتجسَّسَ أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت. وأوصانى برجل من الأمويين فى دِمَشْق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يُخْشَى منه استمالةُ أهل الشام إلى الفتنة رفعتُ ذلك إليه ليتدبر أمره ،(١) ثم قال وإذا مثلت بين يديه « يريد قيصر الروم» فقل له عن أمية إنهم قومٌ قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادة وسعَوْا فى الأرض فساداً وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبى صلى الله عليه وسلم . ثم أذِن لى بالانصراف ، وكان يظهر من الميل الىّ وجميل العطف علىّ بحيث كان يدعونى بلفظة الحبيب(٢) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه .

وكان فى لطائف الخليفة إلى الأنبرذور فيلٌ عظيم أبيض كان عند المهدىّ (رحمه الله) أرسله له بعضُ ملوك الهند ،(٣) وثياب فاخرة من الوَشْيِ المنسوج بالذهب ، وبُسُط ديباج من طَبَرِستان ، وأعطار من اليمن

(١) ذكر الاتليدى ١٢١ والابشيهى ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموى فليراجعها هناك من أحب (٢) ذكر الأغانى ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه ياحبيبى ونقل صاحب العقد من نوادر اسحق انه لما دخل على المأمون استدناه اليه فدنا منه قال اسجق فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضننى بيديه وأظهر من اكرامى وبرى مالو أظهره صديق لى مواس لسرنى ٣ : ٢٤٠

(٣) ذكره الأغانى ٩ : ١٣٦

والحجاز، ومسك وصندل وأعواد نَدّ من الهنـد، وسُرادق عظيم مجلّل بأنواع الحرير وكلاليبُه من الذهب الملبَّس بالوَشْى، ومِزْوَلة كبيرة تدل على الأوقات فى ليل ونهار، وهى من عمل صُنّاع بغداد، وشِطْرَنج بديع الحسن قد اتـخِذت أدواته من العاج المنقوش، صَنَعهُ نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمـه على الأداة التى تُمَثّل الشاه، وهى من الحسن بحيث إنّ الناظر إليها يُـكْبِر صناعتها وقد مثّل فيلا يلُف خُرْطومه على فارس وعلى رأسه جنـدىّ قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فُرْسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هَوْدج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حِمْير،(١) وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الحِذْق ما يستحق عليـه الثناء، لأنه مَثّل أصحابَ الفيلة كما هم، وجعـل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساورَ وعلى أبدانهم القَراطق وهى لباس الهنود، واتخذ عُدَدَ الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والأزمّة، وقلّد الفُرْسـان شيئاً من السـلاح ما عدا الجندىّ الذى أخذه الفيل بخُرطومه فانهُ يعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه، وقد طُرِح سـلاحُه على الأرض وعليه سِمَةُ التوجع والانكماش(٢) مما يشهد للممثِّل بأنه من مَهَرة الصناع.

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رُسم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الـكوفة ثم إلى دِمَشْق ثم إلى بَيْروت على ساحل البحر، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقاً بالفيل

(١) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥ (٢) هذه الأداة لم تزل الى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك

والدواب المثقلة بالأحمال، فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التى مصّرها الحَجّاج ،[١] وهى بمنتصَف ما بين بغداد والكوفة ،[٢] ثم عطفنا إلى الأنبار ،[٣] ثم إلى مدينة الكوفة فنزلت بها فى رَحْبة خُنَيْس الأنصارى من أجداد أستاذى أبى يوسف رحمه الله[٤]، وهى فى مقابلَةَ الباب الكبير المعروف بباب الفيل ،[٥] وقد طاب لى المُقام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت[٦] (شرفهم الله) ولا سيما فى قوم كِنْدَة من ملوك النصرانية ، وهم من غُلاة الشيعة[٧] وأكثرُهم عالمٌ وحكيم وأديب ، كان بينهم معدِنَ العلم ومظهر الحكمة ، وقد لقِيت منهم إسحق الكِنْدِىّ وهو عامل الرشيد على الكوفة ، قلّده الامارةَ بايعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة ،[٨] ويبغون من إلْفِ الرعية فيما بينهم تعظيمَ الاسلام فى انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد جرَوْا فى ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله) وهو الذى قرّب بعض النصارى إلى أبى جعفر كما تقدم فى موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق ،[٩] وهى ذات ماء وشجر ونخيل ،[١٠] وقدّرْتُ أن تكون فى الكِبَر كنصف بغداد ، فحَق تسميتُها بالكوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم تكوّف الرمل إذا ركِب

(١) القناوى ١٣٥ (٢) ياقوت ٢٤ : ٨٨٣ (٣) المسعودى ٢ : ١٤
(٤) ياقوت ٢ : ٧٦٢ (٥) الأغانى ٥ : ١٦٦ (٦) هذا معروف فى كتب المؤرخين وذكر أبو الفداء ٢ : ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل مع الامام على كرم الله وجهه (٧) الوطواط ١٢٥ (٨) المحاضرة ٢ : ٨ (٩) ابن جبير ٢١٣
(١٠) القناوى ١٣٦

بعضه بعضاً ، (١) وقد زارنى فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ، ولكنى لم يتهيأ لى زيارتهم لقِصَر الوقت ، ولقد وجدت إسحق أميرَهم من العلم والعقل بالموضع الذى أكتفى من الدلالة عليه بأن آسَفَ لبُعْده عن الاسلام . وهو يسكُن داراً مباركة تعزَى إلى عَقيل بن أبى طالب ، (٢) وهى بازاء المسجد المبارك الذى قال فيه بعض الصالحين إنّ ركعتين فيه تعدِلان عشراً فيما سواه من المساجد ، وإنّ البركة منه إلى اثنى عشر ميلا من حيث أتيتَه ، (٣) وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر فى عُمُد المساجد كلّها ما هو أطولُ من عمده (٤) ثم زرت مشهد علىّ عليه السلام (٥) وتبركت به وقرأت عنده شيأً من القرآن .

ولما انفصلتُ عن الكوفة تخلّفتْ عنى الدوابُّ المحمَّلة، فانقطعت فى الفلاة مع جماعة من الحرس، ورحنا نقطع القفر بعد القفر، حتى إذا عظُمت علىّ مَشقّة السفر تذكرت طِيبَ بغداد وظرائفها (٦) وحننت إلى مجالس البرامكة والدارُ عندهم جامعة ، وأوقاتُ الأنس بها رائعة ، فكنت أقول متمثلا بكلام إسحق النديم (٧) .

---

(١) تقويم البلدان ٣٠١ (٢) الأغانى ٤ : ١٨٢ (٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥ (٤) ابن جبير ٣١٣ (٥) تقويم البلدان ٣٠١ (٦) القزوينى والأغانى ٥ : ٩٤ و ١٧ : ٧ وفى غير موضع (٧) الأغانى ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت فى صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت فربما لم يكن الشعر له بل كان من نظم اسحق لأنه كثيرٌ ما كان يذكر بغداد ويتشوق اليها وهو فى أسفاره مع الرشيد ويقول

ذكر الأحبة فاستحنّ وهاجه للشوق نوح حمامة وحمام
لم يبد فى الصــدر الا أنه حيا العراق وأهله بسلام

على أهل بغـــدادَ السلامُ فانني . أزيد بسيرى عن ديارهِمُ بُعـدا
إذا ذكرتْ بغدادَ نفسى تقطّعت . من الشوق أوكادت تذوب بها وجدا

ولم أزل مجدًّا فى السير حتى بلغتُ دِمَشْقَ فى اثنتى عَشْرَةَ ليلة ،(١) ولو أنى سرت تحت جَناح الليل لبلغتها فى ثمانيـة أيام (٢) فا دونها ، فنزلت فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشىّ العدوىّ (٣) فى دار بناها عويمر أبو الدَّرْدَاء ، وهو أول من وَلِىَ القضاء بدِمَشْق ، وكان القضاة قبله يسكنون قصرَ الحَجّاج (٤) المعروفَ بالقصر الـكبير.

أمّا الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وفيرة الغَلاَّت ، إلاّ أنها نـكِدَةُ الحظ فى تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلّت عِمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب الـكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قُبَيْلَ أن ظهر الاسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب التى تسعّرت نيرانها بين بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين للروم ، فانتقض عمرانها ودرَست سبلُها وتداعت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت فى عظمة لم يكن مثلُها فى الدول إلا قليلا ، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النَّفاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رابحة فدرَست تلك المحاسن وتقلّصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غيرُ رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وانما دعا أهلَها إلى الفساد وجلب عليهم المَذَلّة وطمح بأبصار الملوك إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان فى نفوسهم من التحزب

---

(١) الأغانى ٥ : ١٦٦ (٢) الاتليدى ٢٦٣ (٣) قضاة الشام
(٤) الاتليدى والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشدُّ من الفتنة ، [١] فكان ظهور المرسلين فيهم سبباً لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد . وهذا هو الأمر الغريب الذى لم يُسْمَع بمثله فى البُلْدان ، فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبيين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس فى شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتاً من شَمْلهم ومتفرقاً من كلمتهم وأغراضهم ، إلاّ أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألّا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لا تحصل ، إلّا بالاجتماع والعُصْبة ، سنةَ الله فى خلقه . أنظر إلى الدول الرومية كيف عبث بها العدوحين وقع فيها الانقسام والتجزؤ . وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلاّ عند ما تخالف عليها صِبْيَتُهم [٢] فيما يرمون إليه من طمع النعيم ، وانظر إلى أهل البيت السلالةِ الشريفةِ والذُّرِّيَّةِ الصالحةِ كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرّقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة ، فلما اجتمعوا فى المغرب إلى إدريسَ بنِ ادريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجُف له الشرقُ ،

---

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والاسلام فان مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريدان به الى يومه مثل ذلك

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد انه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا .

فان تنظر الى ذلك كلّه وإلى كثير مما وقع وما هو واقع فى الممالك تجدْ أنَّ الأمم لا تقوم دولهم إلاّ برابطة الاجتماع والعَصَبيّة ، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال يُنْذِرْ أمرُهم بالانحلال وتتداعَ أحوالهم إلى الاضمحلال .

وصف دمشق وأنها بهجة البلدان

ولما وفدت على دمشق وسرَّحت الطَّرف ناحيةَ الغُوْطة امتلأت عيني من خضرة الأرض حتى تخيّلت نفسى فى جنة من جنات السماء ، ولا غرو فانّ مياهها وأشجارها ورياحينها لأفضلُ مافى الدنيا من المُتَنَزَّهات ،[1] يسير الرجل فى رياضها يومَه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضِه على بعض ، وهى فى أسمى مقام بين مدن الاسلام : بعد دار السلام . قد اشتبكت فيها العِمارة[2] وتنزهت عن المِثْل فى النضارة . لكنها ليست بالمفرطة فى الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميلَ منها إلى العرض ،[3] وهى لا تخلو من السّقايات[4] فى أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات[5] وتحتوى من الخلق على العدد الكثير ، والناسُ على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عاداً أولُ من نزلها من الناس وإنها هى إرَم ذاتُ العِماد ،[6] ومنهم من يذهب إلى أن بانيَها الغادرُ غلام

---

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩ (٢) القزوينى ٢٦ (٤) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرى ٣٠ وابن جبير وابن بطوطه وياقوت ٢ : ٥٩٠ (٥) ابن جبير ٢٨٥ (٦) ابن خرداذبة ٧١ القرمانى ٥ : ١١٨ والشريشى ١ : ٢٠٧

نمرود[١] أو دمشاقُ بن كنعان ، ومنهم من يزعُم أنّ الذى اختطّها هو دمشقس مَوْلَى الاسكندر الرومى ،[٢] ومنهم من يرى غير ذلك . إلاّ أنه ليس فيما يقولون حجةٌ تُرجع بهم إلى محاسن التحقيق فى وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزُون بناءها إلى الروم ، فان الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويلَ بعد أن أتى موسى كليمُ الله على ذكر دِمَشْق فى غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فى ذلك فإنْ هى إلاّ مدينة أوّلية[٣] قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفْنة وبنى أمية دهراً طويلا ونالت من العزة والعِمارة ما قلّ أن يناله غيرُها من المدن ، ولو كان البناء الذى شاده فيها الملوك من الحجر الصّلد ثم بقى ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دِمَشْقُ زينة الدنيا ، ولكنّه شُيّد من طين ولَبِن فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثارَه[٤] فلم يبق منه إلا قلعةٌ من الحجر تُعزى إلى الروم[٥] وقصرٌ يُقال له قصرُ جَيْرون عليه أبواب عجيبة من النُّحاس[٦] وبناء يقال له البَرِيص فيه كثير من العُمُد ، وتزعم العامة أنه كان يجرى منه الشراب فى قديم الزمان إلاّ أن أركانَه اليوم قيامٌ وقعود . وحيطانَه رُكّعٌ وسجود ،[٧] وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز[٨] وللوليد بن عبد الملك[٩] وهما جميع ما تخلف عن ملوك بنى أمية ، لأن ما نجا من مِعْوَل الزمان لم ينجُ من مِعْوَل أبى جعفر ،[١٠] كما مرّ فى موضعه من الكتاب .

---

(١) الكنز ٢٣ (٢) القرمانى ٥ : ١٩٣ (٣) تقويم البلدان ٢٥٣
(٤) قلائد العقيان ٥ (٥) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣
(٦) المسعودى ١ : ٢٤٢ (٧) المسعودى ١ : ٢٩٧ (٨) ابن جبير ٢٩٣
(٩) المقدمة ١٥٤ (١٠) ابن الاثير والمسعودى ٢ : ١٤٣ والخميس ٢ : ٣١٤

ولقد وجدت أهل دِمَشْق أحسنَ الناس خَلْقاً وخُلُقاً ، يكرمون الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم فى صورة السائل ، [١] ولو أن فقيراً أعرض عن كِسْرتهم لقالوا ويحَنا لو علم فينا خيراً لتناول من طعامنا ، [٢] وقد بلغنى عن فضلائهم أنهم يزهدون فى الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين فى جبل لُبْنان ، [٣] غير أنى لا أطلِق هذه الروايةَ الاّ على فئة قليلة من الصالحين ، لأن جمهورهم مائل الى اللهو والطرب ولا سيما فى يوم السبت ، فانهم لا يشتغلون فيه الاّ بالمجون والتهتك ، لا يبقى فيه للسيد حَجْرٌ على المملوك ، ولا للوالد على الولد ، ولا للرجل على المرأة ، [٤] وهذا أمر غريب لم أره فى غير دِمَشْق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم فى ذلك ، لأنى رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين فى المنازل والأحياء ، قد تألّبوا على كنيسة معظَّمة عندهم تعرف بكنيسة مريم ، [٥] ويقال إنها من أعظم بِيَعهم بعد بيت المقدس .

وبقيت فى دِمَشْق ثمانيةَ أيام الى أن وفد الغلمان بالدواب المحمَّلة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الأمويّ الذى أتعب خاطرَ الرشيد أمرُه فلم أجد له غَرَضاً فى السياسة ولا هو طامح الى ملك ولا إمارة ولا يحدّث نفسَه بشيء مما يُقْلِق بال الرشيد حتى يخافَه على أمره ، فأمسكت عن السّعاية به لأنى رأيته وهو خِلْو من هذه الأغراض مثلَ التاجر الكثير المال والجاه ليس إلاّ ، وقد تهيأ لى باستطلاع خبره أن أقف على سِيَرِ غيره من أقارب الخلفاء متابعةً لما نُقِل اليّ من خبره فوجدت فى الأولين عقلا وسياسة

(١) الابشيهى ١ : ١٢ (٢) ابن جبير ٣٨٨ (٣) ابن جبير ٣٨٩
(٤) القزوينى ١٢٨ وابن بطوطة ٢ : ١٩٧ (٥) ابن جبير ٣٨٥

إلا أنه لما صار الأمر إلى صبيتهم المترفين استرسلوا فى القصف والتهتك،[١] وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية ، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثيابَ الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترف ملوكهم الى الوليد بن يزيد[٢] وهو الذى أخذت الخلافة فى الانحلال بين يديه ، وتحركَ الدعاة عليه فى خُراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة بأمور الملك وعُكوفه على اللهو والطرب[٣] وقيام خلافته بين الكأس والوتر ،[٤] وقد استرسل فى التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده فى بيت المال ، لأنه أفرط فى الكرم افراطا فاحشاً حتى إنه لم يقل « لا » فى سؤال سئله ،[٥] وكان اذا وصل الشعراء عدّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألفَ درهم ،[٦] وكان يتأنق فى صنوف الملاذّ من المطعَم والمشرب والملبَس فيقال انه لبس القَلَنْسُوة من الوَشْى[٧] مُذْهَبَة ، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيّرها فى اليوم مراراً[٨] لشغفه بها ، وكان يتختّم بالياقوت ، ووقع من خواتيمه الى بنى العباس[٩] خاتَم يساوى أربعين ألفَ دينار ، ويقال فى حسنه إنه كان اذا أُخْرِج من مَخْبسه أضاء المكان من شدة لمعانه . وكان يسترسل فى الطرب الى أن يوجّه رُسُلَه[١٠] فى طلب المغنين من الحجاز وغيره ، فتجد أنه لم يثقُل أمره على الرعية من وجه واحد ، وانما هناك وجوه قد ساقت عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قِتْلة . هذه نُتَف من أخباره.

---

(١) الأغانى ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم
(٢) الدميرى ١ : ٩٠ (٣) المسعودى ٢ : ١٤٦ (٤) ابن خاقان ٤٤ فى قصيدة ذكرها هناك (٥) أبو الفرج ٢١٠ (٦) الأغانى ٦ : ١٤٨
(٧) الأغانى ٦ : ١٤٦ (٨) الأغانى ٦ : ١٢٩ (٩) المستطرف ٢ : ١٩١
(١٠) الأغانى ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودى ٢ : ١٤٦

حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها بَرْقُ الأفق ،(١) وهي اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر . وقد أخبرتني في بعض حديثها أن الجوهر كان في صباها متداولا بين الناس ، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين ، (٢) وهذا شيء من الافراط في الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المُتْرَفين . ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعبده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية .

ولما طال مُقامي بدمشق تهيّأ لي أن أزور أماكنها المشهورة ، فزرت موضعاً يقال إن هابيلَ وقابيلَ نزلا فيه ،(٣) وموضعاً يقال له باب الساعات(٤) يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارَةٌ تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة . وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرّفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين (٥) في جبل قاسيون ومقابرَ الشهداء (٦) وجبّانة الباب الصغير (٧) وبينها قبور ملوك بني أمية (٨) متهدمةً والرخام عليها متكسر ، (٩) وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها بَرْزَة (١٠) يزعم الناس أنها مولد

---

(١) الأغاني ٢ : ٨٧ (٢) الأغاني جزء ٦ (٣) القزويني ١٦٢
(٤) ياقوت ٢ : ٥٨٨ (٥) ابن جبير والشريشي ٢ : ٢٣٦ والطبقات ١ : ٢٩ والمسعودي ٢ : ٤٢ (٦) قضاة الشام (٧) ذكرها ابن خلكان
(٨) الخميس ٢ : ١٤ (٩) المسعودي ٢ : ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير ٥ : ١٣٠ (١٠) ابن جبير ٢٧٥

الخليل إبراهيم (عليه السلام) [١] حضين الملائكة ، وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رضّ بها قابيل رأس أخيه هابيل [٢] ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم ، [٣] وفى حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبياً ماتوا فيها من الجوع . وإنى لأستحي أن أنقل حديثهم كما قالوه فانهم يقولون سبعين ألف نبى [٤] كأنَّ كل من عاش فى الشام نبى أو ولىٌّ ، وفى طرف الجبل مما يلى الغرب رَبوةٌ [٥] يقول المفسرون إنها هى المذكورة فى قوله تعالى « وآويناهما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعِين » ويرد عليهم آخرون أن المراد بها ربوةٌ فى الإسكندرية [٦] من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوَى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقّين عن الآخر بل اتصلا كرُمّان مشقوق ، [٧] ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة فى جميع جوانبه ، ولا إشراقَ كاشراقه حسناً وجمالا واتساعَ مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة [٨] أكبرها نهر يزيدَ ونهر ثَوْرَى [٩] وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بَرَدَى وهناك بعض قرى مثل نَيْرَب ومزّ [١٠] والسهم وسَطْرَى ، [١١] وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلاّ ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه ،

---

(١) ياقوت ٢ : ٥٨٩ (٢) القزوينى ١٢٦ (٣) ياقوت ٢ : ٥٨٨
(٤) القزوينى (٥) ابن بطوطة ١ : ٢٣٣ (٦) المحاضرة ٢ : ٣
(٧) ابن جبير ٢٨١ والقزوينى (٨) تقويم البلدان ٣٥٢ (٩) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨ (١٠) ابن جبير ٢٧٩ (١١) كليات ٢٠٢

وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله صحةً وطيباً ،(١) وإلى ما يليهـا من طرف الجبل موضعٌ يقال له عين برما (٢) كان معموراً لأيام معاوية بن أبي سـفيان بجماعة من أهل خُراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية كليل العين ، و بقى الأثر من عِمارته وذهبت العين .

ولقـد كانت دِمَشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محْصاةٍ من فضلات العمران ويعيبها كثرةُ الوحول فى أزقتها وتراكُمُ الطين فى ساحاتها ، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا فى ازالة الأقذار (٣) منها وقاية من الطاعون الذى كان يقع بها تِبـاعاً فى السنين السالفة ، (٤) وهذا هو الأثر الذى تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقيـة عنهم بتشييدهم البناء على الهندسة التى لا نجد أعظمَ منها وقعـاً فى القلوب ولا أتمَّ حسناً وجمالاً فى العيـون ، كالذى يبلغنا عما بَنَوْه فى الأندلس(٥) من القصور التى حارت فى جمالها عقول الفرَنْجَة ، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم فى دِمَشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصُّفَّاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر ،(٦) وهى تتناهى فى البهاء والاشراق الى أن يضرب بها المثل(٧) فى احكام رسومها وجلالة بنيانها ، ولو لم يكن من تمام زينتها الا الأعمدة المزخرفة منصوبةً فى أروقتها فُرادَى وأزواجا لـكفى البصائرَ روعاً

(١) الكنز ١٤٤ (٢) المسعودى ٢ : ٨٣ (٣) أبو الفداء ١ : ٢٠٧
(٤) راجع ابن الأثير والمسعودى والعقد الفريد . وفى مروج الذهب من كلام عن الكوفة انهـا ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبائها ٢ : ١١٦
(٥) راجع المقرى والعقد الفريد وابن الأثير (٦) الوطواط ١١١ (٧) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤

ووسع الأبصارَ ابتهاجاً . واذكر أنه لما أدخلني صاحب الوقوف رياضَها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة [١] لم يتحول نظري عن القصر لما راعني من حسنه المفرط وأُعجِبْتُ به من الزينة التي يُكْبِرها الناظر ويقف عندها وِقفة الذاهل الذي به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن [٢] مُخَرَّمة وخرْجات مزينة وطيقان مجسمة بالجص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتَحِيرُه وتميل إليه الأبصار فلا تَمَلُّه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى

هو أفخر مأثُرة لملوك بني أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكرُه ، وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد [٣] والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البُلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، [٤] حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقَوْا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العِمارة وعن أيّ بناء شَرَع فيه خليفتُهم ، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان ابن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد ، وليس في بلاد الاسلام كلّها مثلُ هذا الجامع حسناً وإتقاناً [٥] وجمالَ رسم وتمامَ زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيانَ الثَّوْرىّ أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألفَ صلاة [٦]

(١) الوطواط ١١١ (٢) ذكرها الاغاني ٥ : ١٠ (٣) ابن جبير وياقوت ١ : ٥٩١ وابن الاثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزوينى ١٢٧ (٤) ٤ : ٢١٩ و ٢٢٠ (٥) ابن جبير ٢٦٣ والشريشى ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧ (٦) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ ابن جبير

كان موضعه قبل الاسلام بِيْعةً للنصرانية تعرف بكنيسة مار يحنا ،[١] ومن قبل ذلك كان بيتَ عبـادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عَنْوةً تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجَرَّاح صلحاً فانتهى إلى نصفها الآخر ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى ، فبَقِيَ نصفُها فى أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذى يهدِم بيعتَهم يُجَنُّ ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يُجَنُّ فى سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده[٢] فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النصارى وعلا صياحهم ، فعوّضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بكنائس عدّة صالحهم عليها ،[٣] ثم وجّه إلى ملك الروم[٤] فى إشخاص اثنى عشر ألفاً من العملة والصُّنّاع والمرخِّمين ، وتقدّم إليه بالوعيد إنْ هو توقف ، ثم أكمل هدمها سوى حيطانها، وأنشأ فيها القناطر وحلّاها بالذهب وعلّق فيها الأستار من الوشى والإبْرِيسَم ، وبقى العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيهـا ألف مرخم يُجلَب اليهم الرُّخام[٥] والمَرْمَر من كنيسة أخرى لأمم النصرانيةِ بمدينةِ أنطاكية تعرف بمزور[٦] .

وقد غرِمَ الوليد فى هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنةَ مائة وأربعة وأربعين قنطاراً[٧] بالدِّمَشْقى ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار ،[٨] وقرأت فى بعض الكتب أن جملة المنفَق عليه كان أربعمائة صُندوق ، وفى كل

---

(١) ابن الاثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٢ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٩٨ (٢) ابن جبير ٢٦٤ (٣) الخميس ٢ : ٣١١ (٤) المقدمة ٢١٠
(٥) تقويم البلدان ٢٣٠ (٦) للمسعودى ١ : ٢٧١ (٧) الخميس ٢ : ٣١١
(٨) ابن جبير ٢٦٣

صُندوق ثمانية وعشرون ألفَ دينـار ، فنى القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين . وكان المتولى على النفقـة عمرَ بنَ عبد العزيز[١] قبل أن يَلِيَ الخلافة ، وقد اتخذ فى المسجد ستمائة سلسلة من الذهب[٢] للقنـــاديل والثريـات ، وزيّن جدرانه بفصوص من الذهب والفُسَيْفِساء ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثّل أشكالا من الرسوم لم يُرَ أبهج منها فى العيون ، ورفع عُمُـده من الرُّخام المجزّع طابَقاً فوق طابق ،[٣] واتخذ الأساطينَ الضخمة فيما يجاور الأرض ، والسوارىَ الدقاقَ فيما يعلو الحنايا والقباب ، وفى خلال ذلك صورُ المدن والأشجار بالألوان والذهب ، وكتب فى حائط المسجد بالذهب على اللازَوَرْد « ربُّنا اللهُ لا نعبـد إلاّ الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الـكنيسة التى كانت فيه عبدُ اللهِ الوليدُ أميرُ المؤمنين فى ذى الحِجّة سنة سبع وثمانين »[٤] .

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خُطْوة أو ثلثمائة ذراع ،[٥] وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خُطْوة . وأبوابه أربعة . أولها الباب الشرقى ويعرف بباب جَيْرون ، وعليه عمودان من الحجر فى غاية الافراط فى الطول والعرض ، يقال إنهما من بقـايا الـكنعانيين ،[٦] إذ ليس فى وُسْع أهل هذا الزمان قطعُهُما ولا نقلُهما . ثم البابُ الشمالى ويعرف بباب النـاطفيين ، وكان مدخَل الـكنيسة قديماً . ثم البابُ الغربىّ ويعرف بباب البريد ، ثم البابُ الجنوبى ويعرف بباب

(١) المسعودى ٢ : ١١٩ (٢) ياقوت ٢ : ٥٩٥ (٣) ١٢٧ وياقوت ٢ : ٥٩٣ (٤) القزوينى وياقوت والمسعودى . (٥) ابن بطوطه ١ : ١٩٩ (٦) القزوينى ١٢٧

الزيادة وهو يُفْضِي بالخارج منه إلى دار معاوية (١) المعروفة بالخضراء ، وكان قد نزلها مَرْوان بن الحكم بعد واقعة مَرْج راهط كما هو معروف . وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية (رضي الله عنه) عندما كان للمسلمين نصفُ الكنيسة ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، وهي أول مقصورة صنعت في الاسلام ، (٢) بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا علياً عليه السلام ، فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف ، (٣) والى جانب هذه المقصورة خزانة مغشّاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذى وجّهه عثمان بن عفان رضي الله عنه الى الشام ، (٤) وأخرج اليّ منها صاحبُ الوقوف خاتماً من الفضة للوليد بن عبد الملك ، قد نُقِش عليه « ياوليد إنك ميت ومحاسَب » ، وآخرَ لأخيه سليمانَ وكلماته « آمنت بالله مخلصاً ، (٥) فأخذتهما لأُطْرِف بهما المأمونَ عند عودتي الى بغداد ليضيفهما الى ما لديه من خواتم الخلفاء ، وعلى هذا الجامع قبة دَوْرها ثمانون خُطْوة ، عليها رَصاص يمتد منها الى أن يغطي سطوح الجامع كلَّها بألواح طولُها أربعةُ أشبار في عرض ثلاثة ، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج هيئة نَسْر قد نَشَر جَناحيه ، وكأنما القبة رأسُه ، وهي في سموّ الارتفاع بحيث تراها من أي موضع استقبلت دِمَشْق . أما صحن المسجد فانه من أجمل المناظر ، وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم ، ورسومٌ بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك

---

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١ : ١٩٩
(٣) الفخرى ١٢٩ (٤) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ (٥) المسعودى ٢ : ١١٩
والخميس ٢ : ٣١٤

مُجْتَمَع الدمشقيين ومتنزَّهم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرءون ويتحادثون .

ولهذا الجامع ثلاث صوامع [١] واحدة بالجانب الشمالىّ وهى مُذْهبَة من أسفلها إلى أعلاها ، [٢] وفيها مقاعد ومجالس ، واثنتان بالجانب الغربى وإحداهما أكبرُ الصوامع الثلاث . وقد وجدت فى أروقته ودهاليزه وصَحْنه وفى المساجد المتشعبة منه ماء يجرى بلا انقطاع ، وشاهدت فى البلاط القبلىّ قُبالةَ الركن الأيمن من المقصورة الصحابية تابوتاً معترضاً من الأسطوانة وفوقه قِنْديل موقَد أبداً فى الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ، [٣] ومن حوله عُمُد عجيبة قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تتخيلها العين منزَّلة فيها بأيدى الصناع ، إلى غير ذلك من المحاسن التى حواها هذا الجامع المبارك ، وعظُمت عن أن تحاط بوصف ، فانى لأحسَب الزائر لو تردد إليه زمانَه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبلُ [٤] من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسَب أنه لا يزوره أحد الا وهو يجدّد الدعاء لبانيه [٥] وإن لم يكن له ميلٌ فى السياسة مع الأمويين

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رَجْعٌ الى اقتصاص الرحلة : ركبت من دِمَشق فى غد اليوم الذى سافرتْ فيه الغلمانُ إلى بَيْرُوت ، فوصلت فى منتصَف الطريق إلى بلدة غنّاء ذات سور قديم يقال لها بعلبك «ومنها إلى الزَّبَدانى وهى مدينة على طَرَف وادى بَرَدَى ثمانية عشر ميلا [٦] » وهى ذات أشجار وأنهار وعيون

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣ (٢) الشريشى ١ : ٢٠٨ (٣) ابن جبير ٥٧٥ (٤) القزوينى ١٢٧ (٥) ابن جبير (٦) تقويم البلدان ٢٥٥

وخيرات كثيرة [١] وفيها الكَرْم الخصيب . ولقد لقيت فيها فيلسوفاً من النصارى يقال له قسطا بن لوقا ، صاحبنى فى زيارة الآثار التى فيها وأخبرنى عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها فى سياق الحديث .

وقد أخذتْ هذه الآثارُ العظيمة بمجامع قلبى حيرة وإعجاباً ، وأعظمُها هيكلان كبيران أحدهما أعتقُ من الآخر [٣] وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة فى الحجر ما لا يتأتى حَفْرُ مثلِه فى الخشب ، مع ارتفاع جدرانهما وضخامة حجارتهما وطول أساطينهما وعجيب بنيانهما [٤] مما يذهل العقول تعجباً من اقتدار الرجال على مثل هذه العظائم . وقد أخبرنى قسطا هذا الفيلسوفُ أنه لا يرى إلاّ أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة فى فن الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تُقِلُّهما إلا أعتق من الآثار الظاهرة ، وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبَد العتيق ، ورفعوا الهيا كل الماثلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بأيدى عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ، وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنَوْها لسليمان عليه السلام كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر [٥] من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين . وانما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية ، [٦] يدلنا على ذلك ما نجد فى أطرافها من النُّقَر التى تقضى بأنها كانت تُرْفَع جرًّا بالأمراس بأن يعهد

---

(١) ابن بطوطة ١ : ١٥٨ (٢) المقرى فى ترجمة يعقوب الكندى
(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٤) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٥) نجد فى كثير من كتب العرب نسبة المبانى العتيقة الى الجن (٦) المقدمة ٣٥٨

لها فى الأرض سطح من التراب يرتفع شيأ فشيأ مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هى مرفوعة ، ثم تُجَرُّ بالسلاسل على عجلات لها بَكَرات من الفولاذ عريضةُ الأطراف حتى لا تغوصَ فى التراب صغيرةُ الجِرْم حتى تحتمل الثِّقل ، وتكون أشدَّ من البكرات الكبيرة التى لابدّ أن تلتوى تحت هذه الحجارة الهائلة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التى يتغلبون عليها أن يأخذوا دينَها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويَبيتوا فى أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حِراستها بالجند ، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم ، فلو دعاهم حفظُ البُلْدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلافُ الألوف ، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكَفالته . فلما دانت لهم الشام وكان بَعْلٌ[1] معبوداً فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى « أتَدْعُون بعلا وتَذَرُون أحسن الخالقين » بَنَوْا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصِدون به الاعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظائم الأمور ، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المَنَعَة موضعٌ فى نظر العقلاء . فهذا أحد اللولبين اللذين يُفْضِيان بالراقى عليهما إلى سطح الهيكل قد أُتُّخِذ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فُصِلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته ، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد أُتخِذَتْ فى أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبلٌ للهيكل ، فلو أنه أريد بها المَنَعَة لا قتضى ذلك أن تكون فى أسفل الجدار لا فى أعلاه ، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان

---

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

النصف المتخذ من قطعة واحدة قائماً فيما يدانى الأرض أو يماسُّها ، حتى إذا وَهَى أعلاهُ بقى هو فى موضعه ، أو تداعى جذار السور بقيت الحجارة الثلاثة مردًّا لمهاجمة العدوّ

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا فى تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل مَحَجَّةً للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهى دونه فى البهاء والاشراق مضرٌّ بالنصرانية وحابس لها عن أن تعمَّ الشام ، فعَمَدوا إلى تخريبه ومحو الأثر الماثل منه . وكان فى القسطنطينية بطْرك ذو عقل ودَهاء يقال له فمُ الذهب يحنا ، فأشار على القيصر أن يتخذه كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل ، فاتخذه كذلك . وفى رواية أنه أشار عليه بأن يُعْمل فيها الفُئُوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر الى هذا الهيكل كيف تقلّبَت به أغراض الأمم فقد شاده الروم الأولى لغرضهم فى الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم فى دينهم ، ثم مَثَلَت آثاره لهذا الزمان ناطقةً بعزة الله شاهدةً أن لا باقىَ سواه .

ولما انفصلتُ عن بعلبك مررت بسهل أفيحَ يقال له البقاع وعرَّجت فيه على موضع يسمى بكَرْخ نوح(١) يزعم أهله أنّ فيه قبرَصاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقرَبة من كل قرية من قُراه ردوماً قد تراكمت أمثالَ التلال كأنها من بقايا أمّة قد خلت ، وصرفتُ من بعلبك الى بَيْروت يومين فى جبل لُبْنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميلُ الى عيون القُرَى لتنزيه النفس وإرواء الظمأ ، وإنها لكثيرة فى هذا الجبل المبارك وهى تمذَعُ فى

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

شغفاته . وأقمت فى بَيْروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، وهى مدينة جليلة ، (١) على ضَفّة البحر ، طيبةُ الاقليم ، عليها سور من حجارة (٢) تَحُفُّ بها عِمارة مشتبكة فى سفح لبنان كان يستجيدها الوليد ابن يزيد المقدَّمُ ذكرُه فيقول . (٣)

ربَّ بيت كأنّه مَتْنُ سهم سوف نأتيه من قُرَى بَيْروت

ثم يقول (٤) والنفسُ تائقه إليها والقلب مشغوف بحماها

ألا يا حبّذا شخصٌ حَمَى لُقياه بيروتُ

وهى فُرْضة دِمَشْقَ ومعظم الشام ، وفى مَرْساها مُجْتَمع كثير من سفن التجارة ، ويُجلب منها حديد (٥) لُبنان الى ديار مصر ، وفى شرقيّها نهر يغلُظ فى الشتاء قد بَنَى له قدماءُ أهلها قناة (٦) يُجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غربيّها مشهد الأوزاعىّ (رحمه الله) ، وميلاده ببعلبك (٧) وهو فخر المحدّثين من أهل الشام ، وله فى علم الحديث (٨) مدوّنات جمع فيها الصحيح المروىّ عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهلُ تلك البلاد

وقد كان لبيروتَ شأن عظيم فى غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم باعباء الدول الجِسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية فى الرواج ، حتى إنها دعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازلُ وهيا كل هجروها بعد الفتح وجلَوْا عنها جلاء لم يرجعوا بعده .

---

(١) تقويم البلدان ٢٤٧ (٢) الادريسى (٣) الأغانى ٦ : ١٢٢
(٤) الأغانى ٦ : ١١٧ (٥) الادريسى وابن بطوطة ١ : ١٣٣ (٦) تقويم البلدان ٢٤٧ (٧) أبو الفداء ٢ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠ (٨) ابن خلكان

إلى أن عاد إليها العمران فى الاسلام بقيام الخلافة فى دِمَشق ، إذ كانت المدن لا تصلُح إلاّ بقيامها بالملك أو قيام الملك فى جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنتُ قد شهِدت لهذه المدينة بطيب الهواء فانى لا أنكر ما فى ريحها الشمالية من الرطوبة التى تحدث فى الرأس ألماً لا يشعر به إلاّ الغريب الزائر ،(١) غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعدَّه من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بَيْروت ريح الصَّبا التى تنعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، فربما وجدتَ هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفى ظنى أنه إذا توافر العمران فسيُضْطرّ الناس أن يحدثوا بناءهم فى هذا الموضع إذ هو أقرب وجهاً إلى نسيم الصَّبا منه إلى ريح الشمال .

وركِبت البحر من هذا الثغر المحروس فى أول يوم من شعبان ، وجرَى مركَبنا بهواء شمالى لطيف ليس بالثقيل ولا بالخفيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ، واستمر سيرنا فى البحر نحو عشرين يوماً إلى أن أقبلنا على مالِطَةَ ، وهى جزيرة فى أول بلاد الفرَنْجة ، وبها كنائس معظَّمة لأمم النصرانية ، فلبِثنا يومين فى مَرْفَئها نتسوّق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية فى ساحل الديار الرومية إلى غرب اللنبردية (٢)

---

(١) القزوينى (٢) تقويم البلدان ٢١٩

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئاً من زخارف البنيان. ولا وجدنا في أهلها أثراً من محاسن العمران. لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأنبرذور أهلَ جاهلية وخشونة، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم، تُجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميراً فوّض اليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال، وجعله بمنزلة الوزير في الأسلام، وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولّوْن المناصب في ولايته، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره. وليس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصرٍ مبنى على عَلْياء تُشْرف على المدينة، يظهر أنه كان مسكناً لبعض أمراء الجاهلية، وكنيسةٍ عليها قبابٌ مرفوعةٌ نَصَبها هذا الأنبرذور الذى نصَّرَ أمته ونَصَرَ القِسّيسين والرهبان كما هو معروف، وقد نظر بعين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة الى رأيهم، اذ كان القوم من دونهم همجاً لا يعرفون القراءة ولا أُميطت عن بصائرهم غِشاوةُ الجهل، ومعظمهم عبيد للمتموِّل من التجار، يموتون جوعاً بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق نعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كِسْرة تُمسك رَمَقَهُم، فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعايش بين أيديهم واحتذائهم أشرفَ السُّنن العادلة؟ فكأن الله تعالى قد خصّ هذه الأمة من الفضل والنعم (١)

(١) المسعودى ١ : ٢٣٦

بما حرّمه منه أمم المغرب . فإن العرب أحلى منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأقوم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأشرى للفخار وأشرف ، وأنفى للعار وآنف . وحسبي بما نقلت اليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلاً على ما ركّب الله فى طبائعهم من الأنفة وعزة النفس ، وما آتاهم الأسلامُ من المحاسن التى تشرّفهم وتُعلى ذِكرهم :

وقد شاهدت فى ديار القوم كثيراً من الأمور التى أخاف إنْ أتيت على بيانها أن تجرّ الحديث إلى الخروج عما أنا بصدده من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتِهم غيرَ منطبقة على عادات الشرقيين ، بل كثيرُها مستهجن أو باقٍ على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين فى الأسواق بلا نقاب ، ويجلسن مع الرجال سافراتِ الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الاعراض صيانتَها فى المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بينى وبين الأمير الذى صحبنى فى مرسيلية مذاكرةٌ فى هذا الأمر ، وكان يظن أنّ المرأة ذليلة فى مِلّتنا وأنّ منعَ ظهورها إلى الرجال ناشىء من جهة استصغارها وتحقيرها ، فذكرتُ له أنّ الله تعالى قد وفّاهن حقوقهن (١) فى الدنيا والدين ، ووعد الصالحات منهن نعيما مقيما فى الآخرة ، وأمر بأن تجرِى عليهن الوراثة التى لم تكن لهن قبل الأسلام

وكان أمير مرسيلية عند ما اتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج إلىّ الجند ولم يترك شيئاً من مظاهر الاحتفاء إلاّ أجراه فى سبيل تعظيمها وإجلالها ، فلما سألته عن الأنبرذور أخبرنى أن له غيبة فى رومة لأمر

(١) قد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله ان لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن حقاً الى أن قال فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً .

بينه وبين الباب [1] الذى هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوماً ، فاستطلت هذه الغَيْبَة منه ، وخفت فواتَ الحج إن بقيت منتظراً رجوعه ، فرأيت أن أوافيَه برومة ، فركب معى من لدن الأمير رسولٌ إلى القيصر وجزنا عُباب هذا البحر الذى لم تَجُزْه بعدُ سفن المسلمين إلى أن مَنَّ الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يوالينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذورَ خبرَ قدومى من لدن الرشيد فسيّر الىّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته ، فساروا بى إلى حيث هو مقيم فى دار الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والاحكام ، وعُنِيَ البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين بتجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن . وكنت حين جاوز بى الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعبّاد قد طحنتهم رحى المنون ، فلما دخلت عليه وجدته جالساً على مِنصَّة من فوقها قبةٌ عليها كتابة بالروميّة ، وهى مجلّلة بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصّع باللؤلؤ والياقوت والزَّبَرْجد ، وفى يده قضيب الملك ، وعليه حلة من الوَشْى كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحراب والأعمدة ، وبينهم جماعه من العُلُوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالقة والرهبان المقدّمين قد لبسوا الوَشْى الذى يقيمون به الصلاة فى أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نر مثلَه على من يجاورنا

---

(١) كنية البابا بالباب مذكورة فى تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البائين وتشديدهما .

منهم فى المشرق حسناً يُغشِي الأبصارَ بريقُه ولمعانه .

فلما مَثَلت بين يديه قمت بما وجب عليَّ من الاجلال له وبلَّغته سلام الرشيد على لسان المترجم ، فكلَّمني بترفع الملوك الذين تُوقع جلالتُهم مهابة فى قلوب الوافدين عليهم ، ولكنْ من غير أن يكون فى نفسه جَبَروت ، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا ، وكان الأمراء والرهبان يَمُدُّون اليَّ أعناقهم ويحدِّقون فيّ بأبصارهم كأنهم لم يروا من قبلى مشرقياً على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى التَرْجُمان أن يذكر له هديّة الرشيد وانه يُطْرِف بها جلالته لارتباط المودة بينهما ، فشكرنى على ذلك مرة ثانية ، ثم استدنانى منه وأمرنى بالجلوس ، وأخذ يسألنى عن رحلتى إليه عَطْفاً مال اليه بعد الترفع الذى استقبلنى به ، فكنت أجيبه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة . ثم سألنى عن الدولة فى المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر للرشيد فى صفاء ، فأجبته بما فى الأشارة إليه تحفظ عن ذكْر بنى أميَّة ، والملأُ من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألته أن يأذن لى بالدخول عليه فى خَلْوة وانفراد فأجابنى إلى ذلك وهو يظهر ائتناسه بى وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التوادّ .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتى أميراً من عظماء دولته ملك قلبى برقة نفسه ، وأحسن مُنْقَلَبي بلطيف أنسه ، وأحلَّ كرامتى عنده بالمحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً فى رومة من قصر مُنيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء إلاّ سار بى اليه وأرانيه ليعظِّم فى عينى أمر الفَرَنْجَة ، فما كنت لأُكْبِرَ من مبانيهم إلاَّ الكنائسَ التى

يعظمونها ويتأنقون فى تنميقها بالرسوم التى تتناهى فى الحسن وجمال الزينة ، وهذا الرسم أثرٌ لهم من الصناعة ينفردون به دون المشارقة [١] الذين ينهاهم الدين عنه ، [٢] وإنما يكونون فى حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصراً مزخرفاً كما علمت ، إلاّ أنه لا يصح انفرادهم بالحِذق فيه دونهم لبطلان الموازنة فيما يتركه فريقٌ ويأخذ فيه الآخرون . وفى نفسى أن المسلمين لولا نَهْيُ الشرع عن التصوير ما بعُد أن يفوقوا فيه الروم ، فقد رأيت من عمل الرسّامين فى المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون فى جودة عمل الروم . ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة وهى تمثل رجالا ونساء وأولاداً بحيث إنّ الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى ، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة ، [٣] وهذه غاية فى المهارة لم يبلغها إلاّ كبراء أرباب المقول من صناع الروم . وأعظم ما شاهدت من كنائس رومة بِيْعة بطرس حوارىّ المسيح عيسى عليه السلام ، وهى من عجائب الدنيا ، [٤] وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب [٥] ما أذكرنى جامع دمشق فى بهائه وجماله ، وهى أبدع ما شاهدته من مبانى الروم ، وامتدادُها مع مقصوراتها نحوُ ستمائة ذراع [٦] فيما سمعت ، وامتدادُ

(١) لم يكن للمشارقة فى زخرفة مبانيهم الا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها أشكالا تقيد الابصار فى الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم فى الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التى اتخذوا فيها طريقة التزويق لتملأ العين بهجة وارتياحاً . (٢) المقدمه ٢٢٨

(٣) القرمانى ٥ : ٢٢٤ (٤) المقريزى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥

(٥) القزوينى (٦) تقويم البلدان ٩٩

الكنيسة يبلغ نصفَ ذلك ،[1] وهى مسقوفة بالرَّصاص مفروشة بأفخر أنواع الرُّخام . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للمعمودية يجرى فيه الماء دائماً من نهر يشقُّ هذه المدينة[2] كما تشق دِجْلَةُ مدينة الزَّوْراء . وفى صدرها كرسىٌّ مذهب يجلس فيه الباب فى أيام المواسم والأعياد . وتحته باب مصفّح بالفضة[3] يوصل إلى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ، ولكنى علِمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قُبِضَ فى أنطاكية لا فى رومة ، وأن كرسىَّ أنطاكية عندهم هو المقدَّم على كرسى رومة ، وفى هذه الأقوال نظر لا محل لذكره فى هذا الكتاب . وخارجَ الكنيسة عمودٌ من رُخام قائمٌ على قواعد أربع من النُّحاس ، وفى أعلاه عمود من الصفْر قد رفعت على رأسه كرة مُذهبة يراها كل من فى رومة كأنها عَلَم لموضع الكنيسة .

ولما كان الغد أذِن القيصر لى بالدخول عليه فلقيتُه فى ثياب من الديباج وعليه تاج من الجوهر أعظمُ مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أنْ يُظهِرَ لى عظمَ سلطانه[4] بما تحوى خزائنه من الجوهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس بلّغته ما أوصانى الرشيد بتبليغه من أمر أميّة بالأندلسَ وما يروم من موافقته عليهم ، ولكن بإيجاز أبعدتُ فيه التأكيدَ ليكون له إشارةٌ إلى المصلحة

---

(١) ابن خرداذبة ٩٣ (٢) تقويم البلدان ٢١١ (٣) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة فى أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية (٤) ذكر صاحب الأغانى ٢ : ٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله الى قيصر الروم حمله على البريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك

ليس غير، نخاطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزه الله)، فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه، اذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد. وتتلاقى ولو على بعد البلاد. ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكّر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لي إنّ من الناس من هم أقرب منهم ومن بني أمية اليه. ثم انبسط له مجال الحديث فقال إني لأرى الاسلام اليومَ أقلَّ اجتماع عصبةٍ منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب. على أني أرى دولة صاحبك أعظمَ هذه الدول وأوسعها رُقْعَةً مملكة. وأما أمر الأمويين فانه وعر المرام لا يناله الأعلى تمادى الأيام. اذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن رد العدوّ، فلو شدّ صاحبك عليهم لحوّطوه بأطرافهم وقاتلوه بغرض واحد تدعوهم اليه الحالة التي يقمون فيها جميعاً من الفَزَع والاشراف على الخطر، ولقد كنت أرى تغلُّبه قَسْراً على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون، وقد كانت قضاتها على أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الجيرة عليهم، أما اليوم وقد وافوْها بالأموال[1] فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزقة من الرجال «وهم الذين يُكْرون أنفسهم للحروب»،[2] وربما تعذر عليه مداهمتُهم من المغرب لما هو ناشب من الفُرْقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوّان من الأمويين وأهل البيت جميعاً، وقد قيل في الأمثال «إن الزِّئْبرَ إذا جمع منه حبل يوثق به الفيل المغتلم» ثم إنه ذكر لي عند ما استنهضته الى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يحب أن

(١) المقدمة ١٥٨ (٢) المسعودي ٢ : ٤٠٩

يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة ، وأنه يوجّه همته إلى مناصبة الملوك الذين هم فى ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ماوقع بينى و بينه من الحديث ، وقد قال لى فى خاتمة المفاوضة قل لأمير المؤمنين إنى عُنيتُ بحاجته وسأكون ظهيراً له فيما يروم واقرأ عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التوادّ الظاهر من السياسة كما رأيت ، ولبثت فى رومة ثلاثة أيام متواليات. وكان الانبرذور قد اتخذ لى وليمة دعا اليها عظماء دولته ، وتكرم علىّ بخاتم من الياقوت فى سبيل التعطف ، ثم طلب الىّ أن آخذ الطريق الى تونس لأوجّه اليه منها برمّة عظيم من عظماء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ، (١) فأجبته بالامتثال الى ذلك . فسيّر فى صحبتى مركباً من أسطوله ليحملها اليه وغادر مركبنا ساحلَ رومة فى يوم شديد الحر من شهر رمضان كأنّ الحرارةَ فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضاً وقد حَقّ تسميته برمضان من الرَّمَض وهو شدة الحرّ (٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على مَتْن السفينة و بينى و بين تونس مسيرةُ يوم وليلة . واللهَ أسأل أن يبلغنا المقصِدبالسلامة وهوالكفيل بالتيسير والتسهيل لاربَّ سواه .

---

(١) هو قبر يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية (٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كتبت اليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم أكتب اليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها الى الرشيد . فانى لما قفلتُ من ديار الروم عرّجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملُها من لدن ابن الأغلب وفادتى ، وأخرج الىّ زورقاً حملنى عليه الى المدينة ، لأن البحر يبعُد عنها نحوَ عشرة أميال ، [1] وبينهما بحيرة قريبة الغَوْر فسبق اهتمامى باخراج الرِّمّة التى أوصانى بها القيصر الى مركَب الروم لابعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامى بما سواه من الأمور . ثم إنى نظرت فى شأن ابن الأغلب ابراهيمَ وانقطاع أهل الشيعة الى حَوْزة ادريسَ بن ادريسَ (رضى الله عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، اذ كنت أوجبت على نفسى أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد فى هذه الرسالة التى حمّلنى مجاشمها واستودعنى فيها أمانته ، فاتصل بى من أخباره معهم جسيمٌ حملت خبره الى ملوكنا البرامكةِ (أعزهم الله) . وقد أذكرنى حال العلويين فى المغرب أيامَ علىّ وأبى بكر وعمرَ بن الخطاب (رضى الله تعالى عنهم) من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التى حفظوها عن النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبّهة الملك الاّ ما تدعوهم اليه حاجة الخلافة ، وكذلك أهلُ الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التى قرأها علىّ (عليه السلام) . إلاّ أن الأغلبى (دمّر الله ملكه)

---

(١) تقويم البلدان ٣٨ و ١٤٣

ينقم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلاّ أنهم يحرِصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التى ينقِمها الأغلبيّ من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم فى صدر الاسلام واسالت من دماء المسلمين بحاراً بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أُبىّ بن كعب ، وكان أهل الشام فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المِقْداد بنِ الأسود ، وكان عثمان فى خلافته قد عقد مجلساً من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة فى جميع الأقاليم والأطراف ، فجمع الرِّقاع والأدراج واللخاف والعُسُب التى كان مكتوباً فيها القرآن الكريم ، وأمر بأن تحرق كلُّها وأن يُنْسَخ من الصحف التى كتبت فى خلافة أبى بكر (رضى الله عنه) ، وكانت مودَعة عند حَفْصَةَ [١] زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) أربعُ نسخ [٢] يبعث بها إلى الديار الاسلامية ، فتولّى نَسْخها زيدُ ابنُ ثابت الأنصارى [٣] وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى . وقيل عبدُ الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر [٤] وقال لهم عثمان إنْ اختلفتم فى شىء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم . [٥] ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة فى مكة والشام والكوفة إلاّ المصحفَ الذى كان فى المدينة فانه فقد فى الحرب التى أثارها يزيد بن معاوية .

---

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦ (٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥ (٣) أبو الفداء ١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندى (٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر توًّا الى الاسكندرية وفى نفسى أن أبلغها فى عشرين يوماً ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصَت بنا السفينة على الأعقاب مسيرةَ بضعة أيام إلى أن هدأ ثائر النَّوْء وطابت لنا الريح ، فسرنا بعونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس . والقُطْر المأنوس . لليال خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا فى عِظَمِه وهَوْل مرآه[1] حتى كأنه عمود يَلْقَى القبة الزرقاء ، ويصل بين الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرعٌ لا يُنال طويلُ

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين ميلا ، وربما قدّر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعاً ، [2] وهم يقولون إنّ بانيه الاسكندرُ الرومىُّ الذى ملك معظم الدنيا أو ملكٌ من خُلَفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروباً صعاباً فى البر والبحر ، فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد ابن عبد الملك الأموى[3] أنه سوّل له جَهَلَةُ قومه أن يهدمه طمعاً فى الوصول إلى ما حوى جَوْفُه من الكنوز المخبّأة ، فشرع فى الهدم والدمار حتى قوّض جانباً من هذا المنار . ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعيض

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤ (٢) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علواً مما ذكراه يقول ابن الاثير فى حوادث سنة ١٨٠ انه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المنارة وربما ذكر المقريزى شيأ من ذلك فى كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى ٦ : ٦٤ أن طولها ألف ذراع الى غير ذلك (٣) المقريزى والمحاضرة ١ : ٤٣ والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

به عنها فكف عن عجز لحقه ولوم نراه يستحقه . وكان مُقامى فى الاسكندرية عندعاملها الليث بن الفضل الأبيوردى (١) ثلاثةَ أيام ، وكنت أحِبُّ مع ما لَقِيت من أنسه ووجدت فيها من سَعَة العمران واستبحاره أن أمُدَّ فيها بساط الاقامة لولا أنى خِفت فواتَ الحج ، فانصرفت عنها فى اليوم السابع من شوّال ، وكنت قد استقريت كثيراً من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجمّل الكتاب بذكره ليبقى فخراً للمسلمين فى استيلائهم على هذه المدينة التى ليس أعظم منها فى ديار الروم .

فى ذكر الاسكندرية

الاسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً وأحفلها بنياناً ، واليها المنتهى فى المنَعَة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض ، والبحرُ محيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب منالها على العدو وان لم يكن وراءها وعر ولا هضاب يتعزز به جانبها من البر ، (٢) ولقد كانت فى قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة (٣) فلما تبوّأها الاسكندر الرومى (٤) وصارت كرسىّ الملك بعده تجللت بجلال الحضارة . وتحلت بحلل النضارة . واتصلت عمائرها تحت الأرض (٥) آزاجا يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها فى نهاية من الابداع ، (٦)

(١) ذكر أبو المحاسن ١ : ٥٢٢ انه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة
(٢) يقول ابن خلدون فى المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وانه يسهل طروق العدو لها
(٣) المقريزى ١ : ١٤٧ (٤) القزوينى ٩٦ (٥) ابن جبير والمقريزى ١ : ١٥٠
(٦) ابن جبير ٣٦

وشوارعها فى غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهارَه أجمعَ فلا يضل (١) .

ولقد لقيت فى كثير من أماكنها وطرقاتهـا عُمُداً وألواحاً من رُخام تحمل العـامة على الظن بأنها هى إرَم ذاتُ العماد (٢) التى لم يخلق مثلُها فى البلاد ، وأعظم ما شاهدت فيهـا العمود المعروف بعمود السوارى (٣) وهو ماثل للعيان فى طَرَف المدينة تحُفُّ به غابة من النخيل ، وهو حجر صَلْد من الصوّان الأحمر ، يبتدىء من قاعدة غليظة وينتهى إلى تاج مكلل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان فى أعلاه قصر معلَّق فى الجوّ لأهل العلم والرياسة ، (٤) وإنه كانت فيه خزائنُ كتب أحرقهـا عمرو بن العاص (٥) بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليـه « الكتب التى ذكرتَها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غِنًى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجةَ إليها فتقدّمْ باعدامها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهـذا العمود أنه نصبه الروم معارضَةً للعُمُد التى اتخذها الفراعنة أمثـالِ المسلات ، وطمعاً فى تخليد آثارهم فى مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الاسكندرية إصحاء الذوق لِطاف الطباع والخُلُق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبًا عندهم واعتدال الحر والبرد فى إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وُهنُ البِنْية (٦) . ووجدت لهم تصرفا

---

(١) تقويم البلدان ١١٣ (٢) المقريزى والمسعودى وياقوت وابن جبير

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧ (٤) المقريزى ١ : ١٥٩

(٥) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقريزى (٦) المقريزى ١ : ٤٤

واسعاً فى التجارة،[١] لأن المال موفور عندهم، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون فى الليل بالبيع والشراء كتصرفهم فى النهار،[٢] وسمعت أنهم بلغوا من سَعَة العيش إلى أن بَنَوْا فى مدينتهم ألف حمام وأربعمائة مَلْهى واثنى عشَرَ ألفَ دكان[٣]، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله فى البُلْدان.

أما المسلمون فى هذه المدينة فانهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت، ويتعبّدون على مذهب الامام مالك،[٤] ولكنهم يجهَرون بالبسملة فى صلاتهم ويبتدءون بها عند الخطبة[٥] كأنى بهم قد اقتدوا فى ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمراً على غير انقطاع. وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على أربعمائة ألف[٦] بين نصارى ويهود، وهم يؤدون جزْيتهم إلى الرشيد ديناراً واحداً ميمونيّاً[٧] بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين، واستمرت على ذلك فى عهود الخلفاء السالفة، وهم فى الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلاّ أن معظم سوادهم[٨] رومٌ يرجعون فى أمورهم إلى بَطْركهم بالقسطنطينية، وقبْطٌ ينكرون على الباب خلافته للمسيح ويرجعون فى ملتهم إلى بطرك لهم يسمى مرقص[٩] كرجوع المشارقة إلى بطركهم فى أنطاكية[١٠] كما مر فى موضعه من الكتاب.

وهؤلاء القبطُ هم أهل مصر الأولون، وفى أيديهم الكنائس المعظَّمة

---

(١) المحاضرة (٢) ابن جبير ٣٩ (٣) المقريزى والمحاضرة ١ : ٥٩ والقرمانى ٥ : ١٣٧ (٤) المقريزى (٥) المقريزى ٣٣٤ (٦) ابن خرداذبه ١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقريزى ١ : ١٦٢ (٧) ذكر صاحب الأغانى ان هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة الى ميمون بن عامر١٧ : ٧٢ (٨) المقريزى ٢ : ٤٩٢ (٩) ذكره المقريزى ٢ : ٤٩٣ (١٠) المسعودى ١ : ٢٧١

التى لا يوجد مثلُها عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين لها تحت ظل الأسلام . وأعظمها بيعتان إحداهما كنيسة مرقص [١] وهى بجوار الدار التى بناها الزبير بن العوّام ، [٢] فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات فى ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان [٣] قد موّهَ سقفها بالذهب ، وصُوِّرت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفى جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث ، [٤] وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم فى البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضَوْن عن مجاهرتهم فى ملتهم بأشياء لو بدت منهم فى العراق أو الحرمين لجلبت عليهم الحَيْنَ فى أسرعَ من طَرْفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل واخراج آنيتهم إلى الأسواق وحمل صُلْبانهم على رءوس الرماح [٥] وغير ذلك مما لا ينقِمه منهم المسلمون ، [٦] وكأنهم إنما يتسامحون فى أمرهم تجنباً لاثارة السواكن أو طمعاً فى استمرار الخُلْطَة التى وقعت بينهم وأشبهت أن تكون أُلفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا فى الاسكندرية موسِم عظيم يسمونه عيدَ الميلاد ، يتخذونه فى اليوم الذى ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ، [٧] وعادتهم فى هذا الموسم أن يُحيُوا ليلَهم كلَّه بالسرور ، ويُخرجوا آنيتهم إلى الأسواق ، وينوِّروا كنائسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيراً

---

(١) المقريزى ٢ : ٤٩٢ (٢) ذكرها ابن خلدون فى المقدمة ١٧٨
(٣) المقريزى ٢ : ٥١٩ (٤) القرمانى والمقريزى ١ : ١٦٢ . (٥) المقريزى
(٦) المقريزى ١ : ٤٩٤ (٧) المسعودى ١ : ٢٧٢

من المسلمين يبتاعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها فى أزقة المدينـة ، كأنهم يشاركون النصارى فى أفراحهم ، ويظهرون الأنس بهم إلى انقضاء العِشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبْط وسائر ملل النصرانيـة يتأنقون فى صنوف الملابس من الخزّ والديباج والوَشْى الذى يصنعونه فى مدينتهم ، ويضرب به المثل فى جميع البـلاد ، (١) ونوع من الـكتّان يتنافسون فى لُبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضة (٢) وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة فى لِباس المسلمين (٣) مثل ظهورها فى أهل الذمة، فقد حدّث الرواة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير ، (٤) ولبس ثياباً بأربعة آلاف درهم وصلَّى فيها ، (٥) وكذلك حدّثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوباً من الخز ، (٦) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهدّبة ، (٧) فلا أرى موضعاً بعد هذا لأن يكون لُبْسُ الحَلل الفاخرة محظوراً فى الشرع (٨)

الديار المصرية والنيل

توسّع بى الـكلام إلى ماخرجت به عن اقتصـاص الرحلة ، ولـكنى أعود إلى ذكر الأمور التى شاهدتها فى ديار مصر ، فانى ركبت من الاسكندرية أريد الفُسْطاط ثم أُسْوان ثم عَيْذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فمررت بدمنهور وصا وبِرْما وطنتِدَة وقليوب فى أسرع

---

(١) الأغانى : ٥ ٧٦ (٢) المقريزى ١ : ١٦٣ (٣) تزيين الأسواق ٢ : ٥١
(٤) مجمع الأنهر ٩٤ (٥) مجمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيبانى عن ابن جريج أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣
(٦) الزرقانى ٤ : ١٠٤ (٧) البخارى وغيره (٨) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

مدة من الزمان . اذ ليس فى مصر جبل ولا مسلك وعر يعترض الركبان. وكانت العِمارة متصلة فى طريقنا إلى الفُسْطاط ، ومن حولها اخضرار فى السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرنى من كان يصحَبنى من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعاً فى كل سنة ، فتكون ثلاثةَ أشهر لؤلؤةً بيضاء ،[١] أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشارقة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضِياعُها فى بحر من الماء لا سبيل إليها إلاّ فى الزوارق . وثلاثةَ أشهر مِسْكةً سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر ،[٢] ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طيناً عَلِكا أسود فيه دُسومة صالحة للزراعة يقال له الإبْليز[٣] وثلاثةَ أشهر زمردةً خضراء أولُها شهرُ طوبة الذى يمر بنا اليوم ينجُم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثةَ أشهر سبيكةً حمراء تبتدئ من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم فيتورّد الزرع ببلوغ الحَصاد . ويكون كسبيكة الذهب فى المنظَر .

وإنما يَجلِب الخيراتِ إلى مصر ويُخرج الزرع اليانع من أرضها الجُرُزِ ما يحمل إليها النيلُ من الطين ويفيض عليها من الماء فى أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن الشتاء الذى يحبسه الله عنها رفقاً بمصالحها أن تختل ومساكِنِها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه[٤] « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرُزِ فنخرِجُ به زرعاً تأكل منه أنعامُهم وأنفسُهم أفلا يبصرون» فجعل الله عز وجل النيل

(١) المنوفى (٢) فى المسعودى ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلما هى اليوم عندنا
(٣) عبد اللطيف ٣ (٤) المنوفى

من الغُمورة والاستبحار بحيث يكفى البلاد كلّها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مَسيل ماء غيرُه ، والناس يجمعون محاسنه فى ثلاثة [١] : الأول غُمُورته إلى أن يكون بحراً تسير فيه السفن . والثانى بُعد منفجَره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طِيبُ مسلَكه على رمال تروّقه وتأخذ المزوجات الغريبة منه . وإنّى وجدتُ له خَلّةً من الخير والبركة أفضلَ من هذه المحاسن هى أنه يُزْدَرَع عليه ما لا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم [٢] فكأيّن من نهر تجتمع فيه محاسن الغُمُورة و بعدُ المنفجَر وطيبُ المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثلَ ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك فى الفيضان أنه يبتدئ بالزيادة فى شهر أبيب ، والقبط يقولون إذا دخل أبيب . كان للماء دبيب . [٣] ثم يغلُظ فى مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادةً عظيمة إلى أن يقف حدُّها فى منتصَف توت ، وهو شهر أيلول المعروف بسبطمبر عند الروم ، ثم لا يلبَث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سِقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم [٤]

كأنّ النيل ذو فهم ولبّ … لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم إليه … ويمضى حين يستغنون عنه

وصفوةُ القول فى هذا الفيضان أن منشأه السحبُ الماطرة [٥] إلى ما وراء خط الاستواء من تلك البِطاح ، وللقِبْط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها فى هذا الكتاب ، [٦] وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه «قبل حدوثه»

(١) المقريزى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥ (٢) ابن بطوطة ١ : ٧٧
(٣) المقريزى (٤) المقريزى (٥) تقويم البلدان ٤٥ (٦) راجع المجلد الأول من خطط المقريزى

من هبوب الريح فى أول يوم من بؤنة وهو شهر حزيران عند المشارقة ،
وقد قرأت فى بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل فى الجنة ،[١] وأن
حائداً اليهودى الذى تاه فى الأرض دهراً لم يستقر فيه بموضع وصل إلى
الجنة مما وراء السودان[٢] فوجد أرضاً ذهباً وتُرَعاً ذهباً وتلاعاً ذهباً ،[٣]
ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا
تصور لطيف كنت أقرأ مثله فى دواوين الشعراء فأحببت أن أذكره لك
حتى إذا كنت بعيداً عن أن تعجَب منه من حيث الحقيقة فلا أقلّ من
كونك تُعْجِب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى الفُسْطاط نزلت على قاضيها عبدِ الرحمن بن عبد الله
من وَلَد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،[٤] فلما أصبحت وكان يومُ الجمعة
جَمَّعتُ فى جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الاسلامية إلى هذه البلاد
وانتزعها من يد المقوْقِس كما هو معروف . وهو من المساجد المشهورة فى
الاسلام حسناً وترويقاً وإحكامَ صناعة ، وجدت على حائطه القرآن الكريم
مكتوباً على ألواح بيض من الرُّخام يقرأه الانسان وهو قاعد ،[٥] ثم زرت
مشاهدَ كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريفات
العلويات . ولما مالت الشمس ركِبت الى موضع غربىّ المدينة يقال له
الجزيرة وهو مجتمَع اللهو والنزهة لاحاطة الماء به ، وهناك المقياس الذى
يعتبر به قدر زيادة النيل ،[٦] بناه سليمان بن عبد الملك الأَموىّ فى آخر

(١) المقريزى ١ : ٥١ والزرقانى ١ : ٣٧٥ (٢) الاسحاق ٢٦١ (٣) المنوفى
(٤) المحاضرة ٢ : ٨٩ (٥) القزوينى ١٥٧ (٦) المقريزى وابن جبير ٥١
والمسعودى ١ : ١٦٤

المائة للهجرة النبوية المشرّفة ، وهو عمود رُخام أبيضَ مفصّل على اثنتين وعشرين ذراعاً من الأذرع القديمة التى كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التى تزيد عنها بأصبع وثلثى أصبع ، [1] وهو مبنىّ فى موضع ينحصر الماء فيه فاذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشْرةَ ذراعاً منغمرة فيه كان ذلك الغايةَ فى طيب العام [2] .

وقد أخبرنى عبدُ الرحمن هذا القاضى النبيلُ أن ما يغمُره النيل بمصر يبلغ مئة ألف ألف فدان ، [3] والفدان عندهم أربعمائة قصبة ، والقصبة عشر أذرع ، «وهو القدر الذى وجده هشام بن عبد الملك عند ما مسح البلاد» ، وكلُّها ذاتُ خيراتٍ كثيرة . وغَلاّتٍ وفيرة . مما يحمل الأنسان على أن يظن فى أهلها اتساعاً فى النعمة واسترسالا فى الطيبات من بسطة العمران ، غيرَ أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامّتهم الخمول [5] وتولاهم الشقاء ، ولم ينفقوا المالَ الذى أعطاهم الله فى مطالب السّعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقّوا القلوب رفقاً فى جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئاً من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقيل عليهم فى الخَراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتداراً فى تكثير الجباية ما عرفنا مثلَه لغيرهم من ملوك الأمم .

---

(١) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودى ١ : ٤٠ والمقريزى ١ : ٥٩ (٢) ابن بطوطة ١ : ٧٨ (٣) المقريزى ١ : ٨٠ (٤) المحاضرة ٢ : ١٩١
(٥) المقريزى ١ : ٥١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدبر بأن ما يزرع فى مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان .

فى وصف الأهرام

وفى غد اليوم الذى وصلت فيه إلى الفُسْطاط ركِبت الى أهرام الجيزة ، [1] وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم [2] غربىّ النيل ، وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطراً . وأبقاه على الايام أثراً . والعهد بجميع الأشياء يُخشَى عليها من الأيام إلاّ هذه الأهرام ، فانها صَبَرت على طوارىء الحدْثان حتى راح يُخشَى منها على الزمان . اثنان منْها عظيمان وواحد دونهما فى العظم ، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان فى السموّ ، يُخيَّل للرأى أنهما نَهْدان قد نَهَدا فى صدر الديار المصرية ، [3] وهما مبنيان بحجارة بيض صَلْدة قد اقتُلِعت من مغاورَ تحت الأرض بعيدةٍ يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . ولقد تقدمت إلى بعض من كان يصحبنى من لدن السلطان أن يطلق سهما إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظةٍ وساعدٍ قوى فسقط السهم دون ثلثى المسافة ، [4] أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلَّع مثلث الزوايا مربَّعها ، يبتدىء من قاعدة عريضة ويضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهى إلى سطح صغير يكون مبرَك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرَك ثمانية فى الهرمين الكبيرين . وهذا نَمَط فى البناء يزيده متانة يقوى بها على ممرّ الليال .

أما السبب الذى دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا

---

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ٢ : ١٠١ والمقريزى (٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب (٣) تقويم البلدان ١٠٨

(٤) ابن بطوطه ١ : ٨٢

تحت ظل الابهام، فمن قائل إنها بنيت مستودعًا للعِلْم، ومن قائل إنها اتخذت لتحجزُ الرمال الثائرة من القفر على الفسْطاط، وفى وجه من التاريخ أنها بُنيت لدفن الكنوز[1] واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام،[2] إلاّ أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للاشياء، فانّ العِلْم لا تحفظه الحجارة ان لم يُستَوْدع صدورَ الرجال، وا ملَ لا يحجزُه سدّ غيرُ متصِل العِمارة، وبين الهرم والآخر فرجةٌ واسعة المجال، والحبّ لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفى موضع لا يقدِر منه أن يتناوله.

ولست أظن إلاّ أن هذه الأهرام قد بنيت لُحُودا[3] للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة الى هذه الدار، ويُعنَوْن بتحصين مدافنهم من عبَث الأدهار ليحفظوا فيها حُلِيّهم وأموالهم إلى يوم النشر كما كان يصنع فى جاهليتهم أهلُ مصر إذ يحملون مع الأموات مالَهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رَجْعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون[4]

وقد قرأت فى بعض الكتب أن بانىَ الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد، وجّه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة فى اعتقادهم وزَبرَ عليه «أنا سوريد الملكُ أكملت بناء الهرم فى ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له مُلكا مثلى فليهدمْه فى ستين سنة (وفى رواية ستمائة سنة)، والهدم أيسر من البنيان، وقد كسوته بالديباج الصّرف فليكسُهُ هو بالحُصُر والحُصُرُ أهونُ من الديباج»،[5] أما توجيه

(١) المقريزى ٢ : ٢٢ (٢) المحاضرة ١ : ٣٤ (٣) المقريزى وتقويم البلدان ١٠٨ (٤) عبد اللطيف والمحاضرة (٥) ابن بطوطه ١ : ٨٢ والمقريزى والمحاضرة

زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع مانعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التي يعزونها إلى فرعون فاني لم أجد لها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحداً من الناس يقرؤها . حتى لوجاز أنها كتبت وقرأت كذا على الهرَم ما صحّ أن تكون كسْوته بالحصُرُ مما يُعجز عظماء الملوك ، وسَعَته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خُطوة ، إنما المعجز فى هذه الآثار هو إحكام بنائها [1] بهذا الشكل البالغ النهاية فى الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء تتلاصق به من الكِلْس وغيره من المواد ، ولو أن نجاراً اتخذ صُندوقاً من الخشب ما أحكم عمله [2] ووَصَل قِطَعَهُ مثلَ وَصْل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لاتنفذ فيه الابرة الصغيرة

ورُبَّ زائر يقف بهذه الأهرام فتشغَلُهُ الدهشةُ بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضِخام السلطة عِظام الصَّوْل والحَول . غير أنى تمثلتهم فى نفسى ملوكاً عُتاةً قد ظلموا الرَعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد فى مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أنى أتمثلهم جبابرةً قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه فى البر والأحسان . ولا انتفعوا به فى غرض من العمران . بل رفعوا به حبالا شاهقة من الصوّان . وليس فى أحد الأمرين منصَرف عن لُؤْم ـهم أو لَوْم أوقِعُه عليهم ، فلئن أنفقوا المال فى غير سبيله لقد

---

(١) عبد اللطيف ٥٣ (٢) الابشيهى ٢ : ١٧٧

أسرفوا فى الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعَنَت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .

ورأيت على مقرُبة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قامت كالصومعة (١) ومثّلت رأس آدمى وعنقاً بارزةً من الأرض فى غاية العظم يسميها الناس بأبى الهول ، ويزعمون أنها طِلّسْم الرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة ، (٢) وهى تشهد لصنّاع ذلك الوقت من القِبْط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره ، وجعلوا عليه حمرة لايزال دِهانها محفوظا مع الحجر ، (٣) وكأن الزمان يُعيره رونقا وجِدّة ، حتى إنه ليُخَيَّل للناظر إليه أنه ذو مَسْحة من جمال وأنّ شفتيه تنفتحان للابتسام ، وقد أخبرنى حاجب الليث أنه كانت له لحية تكسّرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا ، (٤) الى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد (٥) إنّ بمصر ثمانين كُورة فى كل كورة مدينةٌ عظيمة وفى كل مدينة آثارٌ حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان (٦) .

---

(١) المقريزى ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠ (٢) القرمانى ٦ : ٥٥
(٣) عبد اللطيف ٥٩ (٤) عبد اللطيف ٥٩ (٥) المقريزى وكتاب المحاضرة للسيوطى (٦) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر منها فى سائر البلاد وباقيها فى مصر المقريزى والمحاضرة والقرمانى ٦ : ٥٥

الى عَيْذاب فجُدّة فالبلد الحرام

كان انفصالنا عن الفسطاط فى بُكْرَة يوم قارسٍ بردُه ، وكانت العمارة متصلة فى طريقنا على شاطىء النيل ، فاجتزنا ببلد يعرف بمُنْيَـةِ ابن خصيب (١) فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجتزنا ببلدة يقال لها أنْصنا وهى تبعد عنه بمرحلة طويلة (٢) فيها شجر اللبَخ (٣) الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العُمُد والصخر المجمّل بالنقوش والرسوم ، وفى بعض الـكتب أنهـا كانت مسكنا لسَحَرة فرعون ، (٤) ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز (٥) وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات اسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته مَلِـكة يقال لها دلوكة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه فى مزاولة القنْص ، (٦) مع أنّ الأقرب إلى العقـل أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزَواتهم لا من الوحوش التى يصح أن تـكون فى هذا الجانب منه كما هى فى الجانب الآخر. ثم مررنا بمنفلوط فى البر الغربى (٧) وفيها قمح مشهور برزانة حبه (٨) ثم بأسيوط وهى من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصرىّ الذى يُحمَل إلى سائر البلاد (٩) وهو عُصارة الخَشْخاش الذى يزرع فيها (١٠) وفيما جاورها من البـلاد ، ثم

---

(١) ابن جبير ٥٤ (٢) تقويم البلدان ١١٥ (٣) المقريزى ١ : ٢٠٤
(٤) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الاسرائيليات من الاخبار بمعنى الحكايات التى لاطائل تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقا بها (٥) المسعودى ١ : ١٧٢ والقرمانى ٥٧٦
(٦) المقريزى ١ : ٣٨ (٧) المسعودى ١ : ٢٧٢ (٨) تقويم البلدان ١١٣ وابن جبير ٥٧ (٩) القزوينى ٩٩ (١٠) تقويم البلدان ١١٥

ركبنا مرحلتين الى إخميم وهو بلد مشهور فيه البَرْبا العظيمة التى صُوِّرَ فيها ملوك مصر [١] وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النَّسْر الطائر فى بُرْج العقرب ، [٢] وهى مرفوعة من صخور منحوتة ، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش ، [٣] وعليها سقف من الحجر مُغَشّى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مَغْرِزُ إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المُسْنَد لا يُعْلَم ما هو ، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظائم الأمور ، لا إله إلاّ هو رب العرش العظيم .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة الى دَنْدَرَة وهى مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها بَرْبا عظيمة من آثار الفراعنة يَحُفُّ بها نخل كثير ، [٤] وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القِبْط صحةَ مَا تقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحَضارة فى زمن كان به ظلام وجاهلية للناس ، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلاّ باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم ، وكذلك قومُ موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلاّ بعد مُقامهم فى مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أنّ للقبط فى فلسفة التاريخ نكتةً شغلت عقول الحكماء من كل عصرٍ وأمّة ، حتى ذهب أفلاطون فى بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التى بلغوها من الأدب والصناعة ودلّت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم

---

(١) القرمانى ٦ : ٦٠ (٢) ابن بطوطه ١ : ١٠٤ (٣) القزوينى ٩٤ وابن جبير
(٤) المقريزى ١ : ٢٣٣

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا لوم نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الاهمال لأنهم لم يغفلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا بأن يستبقوه على الأيام صلة دائمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان «الحجر» ليأمنوا اتصاله بنا وافادتنا به الغرض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وانما أفسد هذه الصلة علينا العفاء من سنه التغلب فى الناس ، إذ يتعاقبون فى الأرض دولاً بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال . وتحتاج لحفظ نوعها أن تبيد الجيل الذى كان من قبلها وتسبل على آثاره ستر المحو والعفاء ، وهذا هو السبب الذى قطع الآخرين عن الأولين ، وعمى علينا قراءة رموز لهم إن تبد لنا غوامضها تفدنا علماً واسعاً من حكمتهم ، ونبأ صادقاً من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت لهؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعة هذا العلم تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم يصمتها الوجم . كأنى بها تنتظر أن نخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت فى آثارهم من الصور (غير الأوثان التى كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل فى ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعياذ بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم هيئات مختلفة لملوك وسوقة منهم تمثلهم فى معايشهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم ، وليس بينها صور تمثل أناساً غيرهم من الأمم مثلما نرى فى آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنبط والكنعانيين

والقِبْط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خُلْطةٌ مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح فى دولتهم اتساعَها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خَلَدوا إلى السكون والدَّعَة بما كثُر لديهم من الخيرات وأغناهم مصرُهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بُلْدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تثمره باديتُهم الجدباء من نعمة العمران .

عَوْد إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقىّ ، وهى من أعظم مدائن مصر ،[١] فيها قبائل من عرب عَدَن وغيرهم ،[٢] وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلاّ قوص وأُسْوان وجهات بُلْبَيْس ،[٣] وربما كانوا فى أسوان أكثرَ منهم فى بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقَحْطان ونِزار بن مَعَدّ من ربيعة ومضر ،[٤] وليس هذا أولَ عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبارُ السالفة[٥] أنهم غَزَوْها فى عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها زمناً فيما لا كِفَاءَ له من عز الدولة ونفوذ السلطان . وقوصٌ هذه المدينة فُرْضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه ،[٦] (وهى المعروفة بالجنادل والصخور) فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات

(١) المقريزى ١ : ٢٣٦ وابن بطوطة ١ : ١٠ (٢) تقويم البلدان ١١١
(٣) المقريزى ١ : ٨٠ (٤) المسعودى ١ : ١٩١ (٥) المسعودى
(٦) المسعودى ١ : ٤٧ وابن جبير ٦١

الحبشة إلى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحُجّاج إليها فى ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل ،

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهى مفازة قاحلة لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جَنَّ الليل علينا (١) ثم نفوّز إلى ورود الماء من آبار أو مناهلَ لا نكاد نترك فيها جُرْعة ماء بعد سِقاية دوابّنا ، وكنت إذا أصابنا رَقْدة من حرٍ أجلس فى هَوْدج على ظهور الجمال وأُرخى عليه الأستار محركا للهواء فيهون علىّ احتمال عَنتها الشديد . إلاّ أن صَحْبى من لدن السلطان كان يبرّح بهم العطش ويُجْهد دوابّهم فى الأيام الآتية ، لأن السَّموم كانت تنشّف المياه فى الأسقية ، فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الأحمال ويُعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نَهَلا وعَلَلا حتى تمتلىء أجوافها ثم يشُدّوا أفواهها كيلا تجتر فتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبعرة من هذه الجمال وسقَوْا خيلنا مما فى بطونها ، (٢) وفى هذا من المشقة ما لم ينزل بنا أشدُّ منه فى جميع ما طرقناه من البلاد ، ولم نزل فى مكابدة عنائه الشديد وقد أضرّ بنا الحرّ وأخذ منا مأخذَه حتى سهّل الله وصولنا بالسلامة إلى عَيْذاب ، والحمد لله على جميل ما أولاه . حمداً يبلغ رضاه . ويستفيض النعمة من علياه .

وهذه المدينة هى آخر بلاد مصر ، (٣) وعاملها مفوّض من لَدُن الليث ابن الفضل الأَبيوَرْدى ، وهى موسّعة بأسباب الكسب من الحُجاج إلاّ

---

(١) ابن جبير ٦٣ (٢) القزوينى ١٢ (٣) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٠٩

أن مبانيها اشبه ببيوت القُرى منها ببيوت المدن ، (١) وكل ما فيها مجلوب اليهـا حتى الماء ، (٢) وليس لأهلها حرفة للتعيش إلاّ تعميرَ سفن للحُجاج يسمونها الجُلُبات واحدها جُلْبة وهى ملفقّة الانشاء ، ولا يستعملون فيها المساميروانما يخيطون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسُراً من عيدان النخل ثم يَطلونها بالشحوم والنُورة ، (٣) فتستمر عرضةً للخطر وآفةً لحجاج البيت ، يغرَق الكثيرمنهم بسببها فى بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة (٤)

ولما أخذت فيها نصيباً من الراحة ركبت البحر ثلاثةَ أيام إلى جُدّة ، وهى قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحُجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت فى ولاية الفرس . وفيها قبة مشيّدة يقال إن موضعها كان منزلا لحوّاء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين ، (٥) وهى أحفل بناية فى المدينة ، فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القـرِين وهو محطُّ رحال الحُجاج (اسراعا فى موآفاة الرشيد بالمدينة المنوّرة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمتُ بركوبه إليها من مكة فى صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدّة ، فبلغته فى جوف الليـل ثم سريت منه إلى مكة المكرّمة مهوَى الأفئدة الصالحة ، فقضيْتَ الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت إلى الله تعالى فى موضع استجابة الدعاء (٦)

---

(١) تقويم البلدان ١٢١ (٢) المقريزى ١ : ٢٠٣ (٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ١ : ٧٨ (٤) المقريزى ١ : ٢٠٣ وابن جبير ٧١ (٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣ (٦) ابن بطوطه ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠

من البيت العتيق ، والحمد لله عزّ وجل على أن شرّفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم

فى ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرّفها الله فانها بطن واد [1] بين الجبال تسع من الخلق مالا يعلمه إلاّ اللهُ سبحانه ، [2] لأن الحُجاج الوافدين اليها قد يزيدون على مئتى ألف فى الموسم ، إذ كان الحج مفروضا على المسلم المستطيع فى العُمُر مرة لقوله تعالى « ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا » ، [3] فلو قدّرنا عدد الرجال بثلاثين ألفَ الف ، وقدّرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبُها منهم فى كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة فى عمره ، ويقال فى اجتماع الناس اليها من جميع الأطراف إنه لو جُمِع ما يباع ويشترى بها من السِلَع والمآكل والبضاعات فى ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق [4] فى العراق كلّه ونال كلُّ واحد من أهله نصيبَه من حاجته .

ولها كرّمها الله تعالى ثلاثةُ أبواب ، أولهُا باب المعلى [5] وهو إلى الشرق الشمالىّ ، ومنه يذهب الذاهب إلى الحَجون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر فى الأشعار وفيه صَلَب الحَجّاج بنُ يُوسف جُثّة عبد الله بن الزبير لـمّا غلبه على الخلافة التى كان يناصب عليها الأمويين . ثم بابُ المسفل وهو

---

(١) ابن بطوطه ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧ (٢) ابن جبير ١٠٨
(٣) سورة آل عمران (٤) ابن جبير ١١٩ (٥) ابن بطوطه ١ : ٣٠٤ وابن خلكان ١ : ٣٩٨

إلى الجنوب ومنه دخل خالد بنُ الوليد يوم الفتح ، ثم بابُ العُمْرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبالُ مكة قد مَثَلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرُها جبل حِراء وهو الذي اهتز حين كان فوقه النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال له « أثبُت حِراءُ فما عليك إلاّ نبيّ وصِدّيق وشهيد »[1] وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهى قوله تعالى إقرأ باسم ربّك الذى خلَق [2]

وكفى هذه البلدة شرفا أنْ بناها آدم (عليه السلام)[3] وهبط اليها جبريل المَلَك الكريم ونزل فيها الوحى على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التى هى معدن الطهارة ومظهرَ نور الملائكة مما ليس مثلُه فى جميع العالم . فما تبرّكت بزيارته من مواضعها الميمونة محلُ مولدّ النبى (صلى الله عليه وسلم) وقبّةُ الوحى [4] التى فيها بَنَى النبى (صلى الله عليه سلم) بخديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) والموضعُ الذى كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) ، تبركت بلمسه وتقبيله ، وزرت دار أبى بكر ودارَ جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ودارَ الخيزُران التى قدّمتُ لك ذكرها فى الرسائل السالفة ، وهى على باب زُقاق الخيزران بقرُبة من القصر المعروف بمنزل الأبجر ،[5] وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التى فى الجبال والغارَ الذى أوَى إليه النبى (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار

---

(١) ابن جبير ١١٢ (٢) المسعودى ١ : ٣٠٧ وابو الفداء ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خبراً صحيحاً كما فى المقدمة ٣٠٦ (٤) ابن جبير والازرقى (٥) الاغانى ٣ : ١١٦

ثوْر [1] الوارد ذكرُه فى القرآن ، ولكن لم يتيسر لى ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لى مزارُ بعض المواضع الميمونة التى هى فى نفس البلدة .

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حضينُ الملائكة لقوله تعالى (وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ » [2] ، وقد أخذ الناس فى تعظيمه والحجّ إليه من الجاهلية والفرس والعماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت الوِلاية عليه بعد وَلَد اسماعيل إلى جُرْهُم وكانت سِدانة البيت ومفاتيحهُ معهم ، وإلى ذلك يشيرُ مُضاض بن عمرو بن الحارث الجُرْهمى بقوله [3] .

وكنا وُلاةَ البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والأمرُ ظاهر
كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمرْ بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خُزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صورة إبراهيم واسماعيل ماثلة [4] فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك زُهَيْر بن أبى سُلْمى فى قوله :

فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حوله رجالٌ بَنَوْهُ من قريش وجُرْهُم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله

(١) ابن جبير والانس الجليل (٢) المقدمة ٣٠٦ والمسعودى:
(٣) الاغانى ١٣ : ١٠٨ وابو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ : ٢٧ وفى مروج الذهب ١ : ٢٠٣ انه ثابت بن اسماعيل ولعل فى احدى الروايتين أو كلتيهما تحريفا وفى هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

وفى العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم . (٤) المسعودى ١ : ٣٠٥

ابن الزبير (رضىَ الله عنهما) فنزع عن كُسْوته المسوحَ والأنطاع وكساه الديباج الملوّن واتخذ له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيِّبه حتى يوجد ريح المسك من خارج الحرم ، [١] فلما رماه يزيد بن معاوية بالمَنْجَنيق بعث إلى صَنعاء فى الفضة والكِلْس فحملهما ، ثم شرع فى البناء على أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ، فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحَجّاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والترامى ، وأحرق مكة ورماها بالمَنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل اللهَ السلامةَ من شرور الأنفس وسيئاتِ الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بنُ مَرْوان أن يعيد بناءها على الصفة التى بنتها عليها قريش [٢] فى أيام النبى (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوة ، [٣] فبناها على ذلك الرسم وهى باقيه عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرّم مبنى بالحجارة الصمّاء السوداء مفروش بالرُّخام المجزَّع ، وفيه عُمُد ضخمة من الساج ، وسقفه مُغشًّى بالحرير الملون ، وهو قريب من التربيع ، ونصفه الأعلى من الفضة المُذْهَبَة [٤] وله أركان أربعة أولُها الركن الشرقىُّ الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا يُدرى قدرُ ما استتر من الحجر فى الركن ، [٥] وسَعَته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبى صلى الله عليه وسلم بيده [٦] على ما هو معروف عند الكل ، ثم الركنُ العراقىُّ وهو شمالىّ . ثم الركنُ الشامىُّ وهو غربىّ . ثم الركنُ اليمانىُّ وهو جنوبى . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون

---

(١) الابشيهى ١ : ١٥   (٢) المقدمه ٣٠٧   (٣) ابو الفداء ١ : ٢٠٨
(٤) ابن جبير ٨١   (٥) ابن بطوطه ١ : ٣١٣   (٦) المسعودى ١ : ٥٠٥

اما الآنّ الركنَ الشرقىّ فانه يزيد عليها ذراعا فى الأرتفاع [١] لانصباب السطح إلى الميزاب ، [٢] وطولُ الكعبة سبع وعشرون ذراعا ، [٣] وبابُها فى الصَّفْح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الأرض ، وهو من الساج الملبّس بالفضة والذهب المنقوش ، [٤] وطولُه ست أذرع وزيادة ، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الاسود ويسمى ما بينهما المُلْتَزَمَ وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعةٌ من نهار أو ليل ، وقد أخبرنى أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خِلواً من طائف به أو مصلّ ، وأخبرنى وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة أنّ فى مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها ، [٥] إذ كانت أول بيت وُضِع للناس فيه آياتٌ بيناتٌ « مَقامُ ابراهيم » ومن دخله كان آمنا .

وفى الركن العراقى المذكور باب يسمى بابَ الرحمة ينتهى بالراقى عليه إلى سطح البيت ، وتحته قبوٌ فيه حجر مُغَشّى بالفضة [٦] تبرّكتُ بزيارته ولمسه وهو مقام ابراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذْهب فى صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموضعه رُخامة بل رُخامتان خضراوان فيهما نُكتٌ يميل لونهما إلى الاصفرار [٧] حتى يُخَيَّلَ للناظر أن ذلك تجزيع بأيدى الصناع ، وإلى جانبه مما يلى الركن العراقىّ قبرُ هاجرَ

(١) ابن بطوطه ١ : ٣٠٧ (٢) ابن جبير ٨٠ (٣) الكنز ١٢١
(٤) العقد الفريد ٣ : ٣٥٩ (٥) القزوينى ٧٧ (٦) الماوردى ٢٧٨
(٧) ابن جبير ٨٦

أم اسماعيل عليه السلام وموضعه رُخامة خضراء أيضاً ، وفى مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم ، (١) وهى البئر التى شرِب منها الخليل عليه السلام (٢) وداخلها مفروش بالرُّخام ، وعمقها فيما يقال إحدى عَشْرة قامةً ، أربعٌ فَضاء وسبعٌ ماء ، وماؤها لمن شربه كما وردعنه «طعام طُعْمٍ وشفاء سُقم » .

أما الحرم فانه يُحدق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عُمُد من الرُّخام ، (٣) وله صوامع سبع ، أكبرها فى دار النَّدْوة (٤) وأصغرها على باب الصفا ، وهو أكبر أبواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السُّدْرة وباب النَّدوة (٥) ، وشاهدت فى بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصارىّ ، (٦) نسخَه بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمان عَشْرَةَ للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدرى فى أى موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم فى تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دوراً (٧) لم تتم زيادتها فيه إلا فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلاّ فى خلافة المهدىّ (رحمه الله) ، وهو الذى زينه بالرسوم ، (٨) وكتب اسمه فى مواضع كثيرة منه تبركاً بالخير الذى صنَع . ومما كُتِب على سارية منه خارجَ باب الصفاء (أمر عبد الله

---

(١) تقويم البلدان ٨٧ والشريشى ٢ : ١١٤ (٢) فى العقد الفريد ٣ : ٣٦٠ أن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان (٣) فى العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو عشر أذرع (٤) ذكرها الاتليدى ٧٦ (٥) ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣ (٦) الكندى وابن جبير ١٠٢ (٧) المقدمة ١٠٨ (٨) ابن الاثير والخميس ٢ : ٣٣٠ وابن جبير ١٠٧

محمد المهدى (أصلحه الله) بتوسِعَة المسجد الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد فى سنة سبع وستين ومائة »

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالى عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت فى طريقى إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم [1] يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التى تأخذ بثأر المقتول وغيرِ ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغنى أن بجوارهم أعرابا لم يدخلوا فى دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجيم كافا مخففة فينادون الرجل يا ركل ،[2] فوصلت من مكة إلى بطن مرّ [3] وهو واد خصيب ذو عين فوّارة ، ثم عطفت منه الى عُسْفان وهى مدينة تَحُفُ بها الجبال وفيها كثير من شجر المُقْل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان [4] (رضى الله عنه) ، ثم ركبت الى الخُلَيْص وهو موضع فى بسيط من الأرض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخُزاعة وهم متقاربون فى المنزل وبينهم نسب لم تُرْمِ فيه العصا ، [5] ثم امتد بنا السير من خليص الى بَدْر وهى قرية كثيرة الخيرات كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القليب وقعة النبى (صلى الله عليه وسلم) المباركة التى أعز الله تعالى بها الدين وقهر

---

(١) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الاسواق (٢) الأغانى ٩ : ١٣٩

(٣) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٠ (٤) ابن جبير ١٨٦ والأزرقى

(٥) تزيين الأسواق ١١٤

المشركين ، (١) ثم اتجهت إلى الصفراء فى صدر النهار، وهى تبعُد عن بدر بَريدا ثم الى الرَّوْحاء وهى موضع بئر يقال فى الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان ، (٢) ثم رحت أفوِّز فى الهضاب والبطاح حتى أقبلت على المدينة المنوَّرة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرَّم وصليت فى الروضة التى بين القبر المقدَّس والمنبر الذى كان موطىء الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت الى قصر الامارة حيث حلَّت ركاب الرشيد ، فأصبته فى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له فى بغداد يقال له قصر الفُرْجة ، وهو مزخرف بالصدف (٣) الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوتٌ وزَبَرْجد ، (٤) فلما وقفتُ بين يديه بادرني بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمنى به الأنبر ذور ، فأخبرته بما توسّم فى غايتها من الخير وما وجدت فى البلاد من عدل العمال ودعائهم له فى مساجد مصر والغرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرنى على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إلىّ ذلك الصفاء الذى كان يشرِّفنى به من قبل . ولما أذِن لى بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدتُ فى نفوسهم ما وجدت فى نفس الرشيد ، ليس من تجافيهم إلىّ عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم فى أمرٍ ظننتُ أنه وقع بينهم وبينه فى المشاعر المباركة بحيلة المُدالسين . التى تصادف محلا فى قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتى إليك عن رسالتى إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق

---

(١) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزوينى ٥١

(٢) ابن جبير ١٩١ (٣) المقدمة ٣٥٧ (٤) ابن خلكان ١ : ٣٨٣

هذه المواطنَ المقدّسة أن أذكر لك شيئاً عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول . إنى وجدت المسجد المكرم قائماً على أعمدة من الحجارة اللامعة، وسقفَه من الساج المزيَّن بالرسوم، [١] وجدرانَه منزَّلة بفصوص من الفُسَيفِساء[٢] تمثّل أشجاراً وثماراً وأزهاراً بأبدع ما يكون من الصناعة، وهى من عمل الروم والقِبْط[٣] فيما رسم لهم عمرُ بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك، [٤] ووجدت الروضة التى تجاور القبر المقدّس مؤزرة إلى ثُلُثها برُخام بديع النحت غريب النعت، وأعلاها مضمخ بالمسك والطيب، [٥] ورأيت القبر المقدس مبنياً برُخام يقال إنه من عمل وَرْدان [٦] ، وعلى رأسه صُندوق من الآبنوس مختّم بالصَّندل مُصَفَّح بالفضة طوله خمسة أشبار فى ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلى أقدام النبى صلى الله عليه وسلم رأسُ أبى بكر، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجلى أبى بكر رضى الله عنهما، وعليهما قناديل من فضة وذهب، [٧] وبين الركن الجوفى والركن الغربى من المسجد موضع عليه سِتْر مُسْبَل يقال إنه مهبط جبريل [٨] عليه السلام .

أما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيَثْرِبَ بن وائل من ولد سام [٩] بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة

---

(١) ابن جبير والسيوطى (٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢ (٣) القزوينى ٧١ (٤) ابن الاثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧١ (٥) ابن جبير ١٩٢ (٦) الأغانى ١٧ : ٨٤ (٧) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧ (٨) ابن جبير ١٩٣ (٩) الاتفاق فى تفسير القرآن ٢ : ١٦٧ .

على قدم اختطاطها وعلوّ شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد ،[١] ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة ،[٢] وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السفْر المخبرون ماهوأعظمُ منها فى ديار العرب ، وأعظمها قصرٌ للمِقْدادبن الأسود فى الموضع المعروف بالجرف ،[٣] وهو مجصَّص الظاهر والباطن ،[٤] وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكِلس وأبوابه من الساج والعَرْعَر[٥] وفيها مشاهد كثيرمن الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)[٦] وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة ابراهيمَ ابنِ النبى (صلى الله عليه وسلم) وقبورَ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأولادِهِ ومشاهدَ أولاد علىّ (عليه السلام) وفى موضع هذه القبور رُخامةٌ مكتوب عليها[٧]

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله مبيدِ الأمم . ومُحيى الرمم . هذا قبر فاطمةَ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدةِ نساء العالمين . وقبرالحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما وعلىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم أجمعين» . فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها.

وإلى مقرُبة من المدينة المنورة موضع يقال له قُباء[٨] وفيه كان مبرَك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم وموضعُه المسجد المبارك الذى أسس على

(١) ابن جبير ٢٠٠ (٢) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨ (٣) المسعودى ١ : ٣٣٣
(٤) المقدمة ١٧٨ (٥) المسعودى ١ : ٣٣٥ (٦) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودى ٢ : ١٨٢ (٧) ابن جبير ١٩٨ (٨) ياقوت وتقويم البلدان

التقوى والرضوان ، [١] وفى صَحْنه شِبْهُ محراب على مصطبة يقال إنه أولُ موضع ركع فيه[٢] النبى (صلى الله عليه وسلم) وفى قبلتــه بئر معروفة بيئر أريس يقال إن النبى (صلى الله عليه وسلم) تفَل فيها فعاد ماؤها عذباً صافياً بعد أن كان آجناً أُجاجاً ، وفيها سقط خاتَمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان ابن عفان (رضى الله عنه) . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدّسة والقليلُ دليلٌ على الكثير . وقد خصّ الله تعالى تلك البقاعَ المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخصّ به غيرَها من البلاد . وهو مالك الملك لا ربَّ غيرُه ولا معبودَ سواه .

الرشيد والبرامكة فى مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه اليـك من ظاهر الحِيرة وأنا منفصل عن البرامكة فى كتاب أحمله إلى الرّقة من لدن الرشيد لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم .كان انفصالنا عن المدينـة المنورة فى غد اليــوم الذى كتبت فيـه هذه الرسالة ، وعلِمت فيما نقــل إلىّ أبو زَنْج الهَمَذانى صاحبُ جعفر[٣] (أيده الله) أنّ الرشيد انما تحول عن البرامكة خوفاً من ميل الناس إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكرم ، فانه كان إذا جلس فى مكة للعطاء جلس معه يحى فأعطى مثـلَ عطائه ، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضلُ فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس المـأمون جلس معه جعفر فأعطى مثـلَ عطائه ، ثم استرسلوا هم وأولادُهم من بعدُ فى سَعَـة

---

(١) أبو الفداء ١ : ١٣٢   (٢) ابن جبير ١٩٩   (٣) الأغانى ١٧ : ٣٣

الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مَثَلا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر فى مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات (١) وينشدون .

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت … بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خُلِقت إلاّ لجودٍ أكفهم … وأقدامُهم إلاّ لأعواد مِنْبَرَ

فأحدث ذلك فى نفس الرشيد غيظاً من تمام النعمة عليهم ، وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتهويل أمرهم على الرشيد فخوّفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برُقعة رفعوها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات (٢) .

قل لأمين الله فى أرضه … ومن إليه الحلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا … مثلك ما بينكما حَدُّ
أمرُك مردودٌ إلى أمره … وأمرُه ليس له ردُّ
وقد بنى الدارَ التى ما بنى الـ … ـفُرْس لها مِثْلا ولا الهِنْدُ
الدرُّ والياقوت حَصْباؤها … وتُرْبُها العنبرُ والندُّ
ونحن نخشى أنه وارثٌ … ملكك إنْ غيّبك اللحدُ

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى مَنْ كان بمكة من بنى هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدِم أهل الحل والعقد ، وجدّد البيْعة بحضَرهم للمأمون بعد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقّبه بالمؤتَمَن فصيّر ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء فى مديحهم له (٣) .

---

(١) الفخرى (٢) ابن خلكان ١ : ١٥٢ (٣) السيوطى

أبو أمين ومأمون ومؤتمن أكرم به والداً برّاً وما ولدا

ثم إنه ولّى المأمونَ خُراسان وهَمَذان إلى آخر المشرق، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أنّ جميع ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكُراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شىء،[١] وضمّ إلى القاسم الجزيرةَ والثغور والعواصم، وفرّق فى الناس نحو ألف ألف دينار[٢] ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحطّ من قدر البرامكة وما وقع فى نفوس الناس من انفرادهم بسَعَة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان. وهو يظن أنه يفعل هذا أمناً لمكروه من ناحيتهم وردّاً لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يمارضونه من قبل فى قِسْمة الملك بين المأمون والمؤتمن، مع أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلاّ حباً فيه ومنعاً لوقوع الشقاق بين أولاده.

وكان مع ما فى قلبه من الموجدة يصانعهم ويظهر استرسال نفسه إليهم حتى لا يفطُنوا إلى ما يريد بهم من المكروه، فاذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل بالعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء. فكان يغرّهم ذلك منه الا جعفراً (حفظه الله)، لأنه كان أعلم الناس بما فى نفسه من حب الأَثَرَة حتى إذا أهداه مسروقاً غلامَه[٣] قال لى والله إن فى إهدائه إلىّ هذا الغلامَ لحيلةً لم يخفَ علىّ أمرُها. فانه يوهمنا برضاه حتى لا نظن به سوءاً فيما داخله من الحسد. وقد أخبرنى جبريل بن بَخْتَيْشوع أن الرشيد إنما تحوّل عنهم بتمحّل الفضل بن الربيع الذى كان يذكر له ما على

(١) ابن الأثير ٦ : ٦٨ (٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٣) الأغانى ٣ : ١٤٠ والاتليدى ١٦٨

بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوّفه استقواءهم فى فارس وخُراسان وتعميرَهم خِطط الدولة بمن يعرفون فيه حباً لأهل البيت ، ويشكيهم لديه باحتياز مال الجباية[١] وتصرّفهم فى الأمور بما يشاءون ، والملوكُ لاتصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفاً منهم بعد أن ملأ قلبه عداوةً لهم[٢].

هذا ما اتصل بى فى مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ،[٣] وقد تحوّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة فى أحدهما . فأما استفحال ملكهم فى الاسلام وتزلّفُ الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائله فانه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخرٌ فى الملة الا أن يكون ضعيف البصيرة فاتر الهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن سيفهم خادمٌ لنصرهِ . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولّوْا المراتب خمسين سنةً فى الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه فىء من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرمَ لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصَّوْلة بهم لا أن يدِبّ فيه الطمع ويمُدَّ عينهُ إلى ما أدّخروا لولدهم بعد أن دبّروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفسِ الزكية علمـ - مقدار النُفْرة التى وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لى جعفر انظر كيف أنه يركب هذا المركَب الوعر . ما كفاه أننا أقمنا ملكه ومهّدنا أمرهُ حتى صـ ر يحسُدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئنْ لم يرجع عن غيّه ليكونن

---

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢ (٣) فى الأغانى ٥ : ١١٣ ان الناس كانوا يتحدثون بتحول الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام

ذلك وبالاً سريعاً عليه (١) فقلت يا سيدى ليس للرشيد عنكم مرغَب ولا أظنه يحرِم دولته عنايتكم ، فقال تمهّل على نفسك ، إنّ لنا فارس وخُراسان ، فان يجاهرنا بالعُدوان يقم فى وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت فى تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ ثائر صدره ، وانما أدمن الفكرةَ فيما يشغله من القلق ، وأمرنى بألاّ أفارق بابه فى ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتر عن السِعاية به إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار ويخوّفه منه التحمُّلَ فى مؤامرة جارية بينهُ وبين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل اليه بتصنع العطف ليوهمه زوالَ ما بنفسه من الموجِدة ، وكان جلوسى إليه فى ذلك الوقت قد أقلقه كلّ القلق ، فرأى أن يفصِلنى عن البرامكة بوجه لا يُرَدُّ على الملوك بأن يوجهنى إلى الرَّقة فى كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إنّ بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى أنفاذك برسائلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلىّ البرامكة ألاّ أخالف أمره حتى نطمع فى حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خُراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالحيرة فى اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى العُمْر الذى بناحية الأنبار (٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف فى ذلك الوقت حتى كان إذا تناول الطعام يَخشَى أن يكون فيه سم (٣) فاستبقى

---

(١) الاتليدى (٢) ابن خلكان ١ : ١٥١ (٣) المسعودى ٢ : ٢١١

الأطباء على مائدته ممن كان مخالفاً للبرامكة إلاّ جبريلَ بن بختيشوع ،[1] وقد طوَى عنه سرَّ ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلاّ كلمةً حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم ،[2] وأنا اليومَ أسير حثيثاً حتى لا يفوتَنى الرجوعُ إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحُجاج .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم نُسْقَى إذا انقطع الغمامُ »

أ كتب هذه الرسالة إليك والدمعُ جارٍ فى الآماق ليس على البرامكة وهم أحياء فى الناس ، ولكن على الدنيا التى ذهب خيرُها وعفَّت البليةُ رسومَ محاسنها ، حتى كأنها طَلَلٌ من هذه الاطلال التى يهجُرها الأنس ولا يقف عندها إلاّ الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرَّقة قد وافانى من قبل البرامكة رسول يستقدمنى إليهم ويعلمنى أن الكتاب الذى أحمله الى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقينى عنده ويمنعنى من الرجوع الى الحضرة لما داخله فىَّ من الرِّيبة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الاشارة ، فأصابنى من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحَيْن ، لأنى ما كنت أرانى ناجياً من وقوع الغدر بى ووصول المكروه الىَّ . ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظَنّة بى بعد أن أديت رسالته حقَّها من الاخلاص ،

---

(١) ذكر ابن خلدون فى المقدمة ١٦ أنه كان ينظر فى طعام الرشيد

(٢) الاتليدى والفخرى

وخدمته خدمةَ الناصح الأمين ، فلم أجد فى نفسى علةً إلا المودةَ التى بينى و بين البرامكة ؛ [1] فأتانى أن أنضمّ اليهم ، فقمت لساعتى وتبدّلت بزِيِّ زِيَّ الحِجازِ الجاف ثم ركبت إلى بغداد متنكراً كيلا يعرفنى أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت فى أهلها ذلك الخمولَ الذى يقع فى الجماعة من هول عظيم ، فاستدللت بذلك على وقوع الأمر بينهم و بين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلَقة وعلى أبوابها حرسُ الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودّت الدنيا فى عينى وامتلأ قلبى من الوحشة وكدت أفقد إحساس رجلىّ من الجهْد، إلاّ أنه لم يكن لى وأنا طَلَبَةُ الخليفة أن أطيل الوقوف تِلقَاء دورهم ، فرجعت أمشى على غير دراية لعلى أصادف صديقاً أتوجع إليه وأستطلع أخبارهم من قِبَله، حتى وصلت إلى دار إسحق النديم [2] فدخلت الدار وحسَرت اللثام عن وجهى ، فلما عَرفنى ترقرقت عيناه دموعاً ، وقال بم أندُب البرامكة ؟ أأعزيك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام بفقدهم ؟ وبكى حتى خنقته العَبْرة ، وكنت فى ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ، ولم يكن إسحق يكلمنى عن أمرهم مع الرشيد إلاّ كلاماً متقطعاً ممزوجاً بالزفرات . . .

قد علِمتَ مما مضى إليك فى الرسالة السالفة موقِف البرامكة مع الرشيد ، هو يحاول الايقاع بهم حسداً على ما صار إليهم من النعمة ، وهم

(١) ذكره الأغانى ١ : ٢٥ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومن هو مشهور بمخالطتهم مذكور فى كتب التاريخ (٢) فى الأغانى ٥ أن اسحق بقى ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر

يسلُكون معه مسلكَ المودة ليرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلاّ أثاروا الخُراسانيين خروجاً عليه فى دعوة أهل البيت . وعلمتَ أنّ الفضل بن الربيع كان موقناً بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة ، وأنه كان يخوّف الرشيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة فى موقف بعيدٍ عن التخلص من دَهائهم ، إذ كانت الملوك طوعَ أمرهم وأموالُ الدولة كلُّها بأيديهم ، حتى ملأ صدره من عداوتهم . ثم علمتَ أنّ الرشيد كان قد أهداهم مسروقاً غلامَه ليوهمهم رضاه ، ولكنك تعلم أنه كان بينه وبين هذا الغلام مواطأةٌ على نقل أحاديثهم إليه وعدٌ أنفاسهم عليهم ومراقبتهم فى جميع حركاتهم خديعةً منه ، حتى إذا نقل إليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر المباركة عمَد إلى هدر دمه الزكىّ ، ووجهنى إلى الرَّقَّة مثلَ المجرمين الذين فى نفوسهم تَبِعة من شرّ نعوذ بالله من سُخْطِه .

وقد حدثنى إسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكَبهم فيه قد ركِب إلى أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحي الهاشمىُّ وجماعة من أقاربه ، وبينما هو يسير إذ نظر إلى موكِب عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لاسماعيل يا أسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يميناً وشمالا وإلى من معه فاذا هم شِرْذِمَةٌ قليلون ، ثم نظروا إلى الموكِب الذى فيه جعفر فلم يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبُه ؟ فقال يا سيدى قد مضى أخوك فى طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ماراآنا أهلا لأن يَزيننا بموكبه ويجمِّلَنا بجيشه ، فقال عفواً يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ما تعدّاك ولا سار إلاّ بين يديك . ثم سار حتى انتهى إلى ضَيْعة عامرة ومواش كثيرة وعِمارة حسنة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيْعة ؟ فقال لأخيك جعفر ،

فسكت الرشيد وتنفّس في كَمَد ثم سار وما زال يمر بضياع بعضُها أعمرُ من بعض وكلما مرّ بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هي لجعفر ولأخوته ، حتى وصل إلى الحضرة ، فلما خلا مجلسُه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فاني لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعةً من ضِياع البرامكة [1] على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البُلْدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالُهم وجميعُ ما يملكون هو لك ، فنظر اليه نظرةَ جبّار وقال والله يا اسماعيل ما عدّ البرامكةُ بني هاشم الاّ عبيدَهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعمة لبني العباس الاّ وهم المنعمون بها عليهم ، فقال أميرُ المؤمنين أبصرُ من غيره بخدمه ومواليه ، فقال والله يا اسماعيل إنك لتعلم أني قلت هذا وكأني بك تخبرُهم به فتتخذ به يداً عندهم ، وإني آمرُك أن تكتُم هذا الأمرَ فانه لم يعلم به أحد غيرُك ، ومتى بلغهم شيء مما جرى بيني وبينَك علمت أنه ما أفشاه الاّ أنت ، فقال يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أنّ مثلي يُفشي سرّك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو في محل من قصره يُشرف على دِجلة وبإزائه منازلُ البرامكة التي كانت محفوفةً باليمن والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب داري أحد ، فقال يا أمير المؤمنين ناشدتك اللهَ ألاّ يعلقَ بنفسك شيء من هذا ، فانما جعفر خادمُك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه بابٌ من أبوابك فاذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقال والله إن

---

(١) الدميري : ١٥٤ والعقد الفريد ٣ : ١٠٣

البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتى الى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك[1] .

وكان جعفر فى ذلك الوقت قد عزم على الركوب الى خُراسان[2] وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من السوء ، فما أحبّ أن يتركهم بغير حِراسة ، وانما أبقى فى يد الفضل رجالا يعرف فيهم الأمانة ليقيهم مكايدَ الرشيد حتى اذا قدِم الحرمين فى دعوة أهل البيت وجد فى العراق من يستعين به على العباسيين . غير أن الرشيد قد فطَن لما كان يباشره من تعبئة الجند فأيقن بالاشراف على الخطر ، إلاّ أن يتمحّل فى أمر يغلبه به قبل ركوبه الى خُراسان ، فأرسل إلى بنى هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوِّط دورَ الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مَزْيَد الشَّيْبانى[3] أنه إذا ركِب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوِّط البرامكة ويقبض عليهم ،[4] واستبقى الأمر سراً لم يستخدم فى قضائه إلاّ جماعة من أقاربه[5] دون الغلمان الذين كان يغمُرهم جودُهم وكرمهم ، ثم أرسل فى تلك الليلة إلى جعفر من يقول له إنه يمكّنه من بيوت المال أن يتناول منها مايشاء، ويأخذ من الجند الى خراسان من ينتخبه ويريده ، وأن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة ، حتى لا يفطُنوا لما أخذ فى تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما فى تمحُّل الرشيد من المصانعة والرِياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به

(١) أبو الفداء ٢ : ١٧ (٢) ذكر الاتليدى أن جعفرا كان عازماً على الركوب الى خراسان فى ذلك الوقت (٣) وقد تقدم أنه كان منحرفاً عن البرامكة (٤) ابن الأثير وأبو الفداء والعقد الفريد (٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

لا أنه يريد نكبتهم فى صباح تلك الليلة .

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسروراً [١] وقال له قد انتخبتك لأمر لم أره محمداً ولا عبد الله ولا القاسم [٢] فحقق ظنى فيك واحذر أن تخالف فتهلك . فقال مسرور لك على إمرة مطاعة ، فرنى بقتل نفسى أفعل . فقال له امض الساعة إلى الحديقة وحوطها بالحرس وضم إلى جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى جعفر وجئنى به وقل له إنه وردت كتب من خراسان ، فاذا دخل الباب فلا تدع من معه يدخل بعده ، فاذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعنى فى ذلك ، وإياك إياك أن يفوتك الأمر . فسار مسرور إلى جعفر فأصابه فى داره قد طرح نفسه ليستريح ، فقال له يا سيدى أميرُ المؤمنين يدعوك لرسائلَ وردت الساعةَ فى خريطة البَريد من خُراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلّد سيفه ثم ركِب فى جماعة من الحرس والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل الباب طلع عليه من فى الحديقة من الحرس وحاولوا ردّ غلمانه وهم غير مأمورين بالقتال ، فانفرد به مسرور و بضعةَ عشرَ رجلا دخلوا معه الباب فجرد عليه السيف وصاح بمن معه من العبيد فأهدروا دمه . وإنى لست أنسُب الشر الى مسرور هذا الخادم اللئيم ، فما هو الا ذنب من استرعاه وهو الرشيدُ ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم ، ومع ذلك إنى لا أبرّئه من تبِعة ذلك الأثم الفظيع ، ولا أرى بينه و بين شديد العقاب الا الموتَ الذى يساق بعده الى دار العذاب .

---

(١) الاتليدى والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣

(٢) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الامين والمأمون والمؤتمن أولاده

هذا ما بلغنى من إسحق ثم سمعت فى أحاديث الناس أنّ جعفراً لما صار فى وسْط الحديقة ولم يرَ معــهُ الجند ارتاعَ وندم على ركوبه فى تلك الساعة ، فقال لمسرور ياأخى ماالقضيةُ ، فقال ياسيدى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك، فيقولون إنّ جعفراً بكى حينئذ وجعل يقبل مسروراً ويقول له أنت تعلم إكرامى لك دون خَدَم الرشيد وأن حاجاتِك عندى مقضية فى جميع الأوقات ، وأنت تعرف مكانتى عند الرشيد وما يوجّه إلىّ من الأسرار ، ولعلَّ أن يكونوا بلّغوه عنى باطلا ، وهذه ألفُ ألفِ دينار ، وفى رواية عشرةُ آلاف ألفِ دينــار أدفعُها إليك الساعةَ وخلّنى أهيمُ على وجهى ، فقال لا سبيلَ إلى ذلك ، فقال احملنى إليه وقِفْنى بين يديه ولعله إذا وقع نظرُه علىّ تُدركه الرحمة فيصفحَ عنى ، فقال وهذا أيضاً لا سبيل إليه ، [1] ولا يمكننى مراجعتُه ، فقال توقف عنى ساعةً وامض إليه وقل له إنك فرَغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ماتريد ، وإنى أُشْهِدالله وملائكته على أنى أشاطرك نِعمتى وأوليك من الأمور جسيما إن فعلتَ ذلك وسَلِمتْ لى نفسى ، ولم يزل به وهو يبكى فيما يقولون طمعاً فى الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ، ثم إنه وكّل به غلماناً من السودان يحفظونه ومضى الى الرشيد وهو جالس يقطر غضباً ، فلما رآه قال له ثـكِلتك أمُّك ما ذا فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرَك ، قال فأين رأسُه ؟ قال فى قبة الحديقة ، قال فأتنى بها الســاعةَ ، [2] فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانيةَ بل سلّ سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشيد يشخُب دماً ، فيقولون إن الرشــيد تنفّس الصُّعَداء وبكى بكاء

(١) الأغانى ١١ : ٥٤ والاتليدى ١٣٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ٣٦

شديداً ، وجعل يقول كالمعاتِب يا جعفر ألم أحِلَّك محلّ نفسى ؟ يا جعفر ما كافأتنى ولا عرفت حقى ولا حفظت عهدى ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى ، يا جعفر قد غرّتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول هذا وهو يقرَع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سَلْخ المحرم[١] وأول صفر[٢] .

وقوع التوانى فى الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بى هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفسِ الزكية بقضاء لا حيلةَ بعده الاّ اللوعة والندم . فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هوْلا ينزل به وهو لا يدرك سرَّه . ولا يجد لنفسه مَرَداً يتقى به شره . وإن كان يسوءنى من الرشيد احتيالُه فى مصانعة البرامكة[٣] قبل ركوب جعفر الى خُراسان ليذهَلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظناً بزوال ماعنده من الموجدة ، مع أنه كان يضمر قتلهم[٤] (والعياذ بالله من شرور النيات) . فإنى ليَسوءنى أكثرَ من ذلك تتبعُه النقمةَ فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقتاه) جُهْد شديد يقاسيانه فى الحبوس ، فانهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصُلان عليه ، ويشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان من يطبُخه لهُما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القِدْر[٥] مع جلالة

(١) ابن خلكان ٢ : ١٥٢ (٢) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦ (٣) فى الأغانى ١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة (٤) فى العقد ٣ : ٣١ انه كان يريد قتلهم (٥) الاتليدى ١٧٨

قدرهما فيارحمتا لهؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدراً [١] تنعاه عليه الأبا
ويُسأل عنه في يوم القيام . وإني لأحسب جعفراً مع ما أصابه من الأ
الفظيع أكبرَ حظاً من أبيه واخوته ، إذ قدِم على ربّه شهيداً في دعوة أهل
البيت ولم يصِر إلى هذا الهوان [٢] الذى صاروا إليه وهم الذين عرفتهم
عظماء الملة . والرؤساء من أهل النِّحلة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منَعَة لم
يكن مثلُها لدولة من دول الاسلام .

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو استنبط حيلة
لانقاذهم مما يعانون من الشدة ، غيرَ أنى رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذى
أرومه إلاّ بالقوة التى تغالب الحَرَس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد
فئةً قليلة من الرجال وأكثرُهم داخلٌ فى جيش الخليفة وتحت إمرة
العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعُدْوان قبلَ العودة إلى فارس ليست
من الرأى الصواب ، ولم يكن إحجامى عن ذلك خوفاً على نفسى من القتل
لأن النفوس لا يعظُم بذلُها فى سبيل البرامكة ، ولكن رحمةً بهم من جور
الرشيد الذى يضيّقُ عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس الى الوصول اليهم
أو الثأر بدمهم ، فقد بلغنى أنه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر بجعفر ؟ وهو يقول
والسيف صَلْتٌ فى يده . ياضُلَّ ما تجرى به العصا ، وا جعفراه . وا سيّداه .
والله لأقتلن قاتلك ولأثأرنّ بدمك [٣] عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرِّز
سيفَهُ الكريمةِ نفسُهُ على التضييق عليهم وتفريقهم فى الحبوس المنقطعة

(١) الفخرى (٢) ذكر هوان البرامكة فى محبسهم ابن الأثير وابن عبد ربه
والابشيهى والاتليدى وأبو الفرج وغيرهم (٣) ابن الأثير ٦ : ٦٦

وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم[1] حتى يقتلهم بالشدة التى هى أمرّ من القتل

وقد مضى علىّ اليومَ فى بغداد وأنا متقطع النَفْس سبعة وأربعون يوماً لم آلُ فيها جُهداً للوصول اليهم فلم أحصُل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال ، وكنت أحب أن ألقَى أحداً من خَدَمهم وحُجابهم فلم أظفر بواحد منهم فى بغداد ، وكأنى بهم قد تصدّعوا فى الآفاق[2] فى جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم[3] ومَن هو معروف بمخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب ، غيرَ أنى رأيت فيمن بقى من الطامعين فيهم دموعاً يسترونها عن العيون ، وما وجدت منهم الا منقبض النفس ومن يُذيبه الأسفُ عليهم حتى كأنهم صدْع واحد فى لوم الرشيد على قتلهم[4] فما أذكر أنى نزلت مرة الى السوق الاّ نظرت رقاع الأشعار مُعلّقة على الحيطان رثاء لجعفر وندباً للدنيا لما لحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما بقى فى ذهنى من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشى أو أبا نواس[5]

ألانَ استرحنا واستراحت ركابنا	وأمسك من يُجدى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا قد أمِنت من السُّرى	وطىّ الفيافى فدفداً بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر	ولن تظفرى من بعده بمسوّد
وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطّلى	وقل للرزايا كلّ يوم تجدّدى

(١) أبو الفداء ٢ : ٨ والأغانى ٨ : ٧٩ والاتليدى ١٧٤ وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٢) الاتليدى ١٧٤ (٣) الأغانى ٣ : ١٨٣ (٤) أبو المحاسن ١ ٥٢٧ والفخرى وابن الأثير ٦ : ٧ والعقد الفريد والاتليدى (٥) ابن الأثير ٦ : ٦٤ وأبو الفداء ٢ : ١٨ والمسعودى ٢ : ٢٧٩

ودونكِ سيفاً برمكياً مهنّداً   أصيب بسيف هاشميّ مهنّد

وقولهم[(١)]

يامنزلاً لعِب الزمانُ بأهله   فأبادهم بتفرق لا يُجْمـع

إن الذين عهِدتهم فيما مضى   كان الزمان بهم يَضُرّ وينفع

أصبحت تُفْزِع من رآك وطالما   كنا إليك من المخاوف نفزع

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقِى الذين حياتُهم لا تنفع

وقرأت رُقعة مكتوباً عليها هذه الأبياتُ وأظنها من نظم أنَس بن أبى شَيْخ النصرى[(٢)] صاحبِ جعفر برّد الله مضجَعه وسقى ضريحه صيِّب الرحمة والرضوان

لَعمرُكَ ما فى الموت عار على الفتى   إذا لم تُصبه فى الحيـاة المعاير

ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعاً   فلا بدّ يوماً أن يُرَى وهو صابر

فلا يُبْعِدَنْكَ الله عنى جعفـراً   بروحى ولو دارت علىّ الدوائر

فآليت لا أنفكّ أبكيك مادعت   على فَنَنٍ ورقاء أو طار طائر[(٣)]

وقال علىّ بن أبى معاذ[(٤)]

يا أيهـا المغـترّ بالدهر   والدهرُ ذوصَرْف وذو غدر

لا تأمَنِ الدهرَ وصولاتِه   وكن من الدهر على حِذْر

إن كنت ذا جهل بتصريفه   فانظر إلى المصلوب بالجِسْر

وخذ من الدنيا صفا عيشِها   واجرِ مع الدهر كما يجرى

(١) الاتليدى ١٨٠   (٢) ذكره صاحب الأغانى ١٧ : ٣٣ وقال صاحب العقد الفريد ان الرشيد قتله بعد نكبة البرامكة ١ : ١٨٨   (٣) الأغانى ١٥ : ٣٦
(٤) المسعودى ٢ : ٢٢٩

كان وزيرَ القائم المرتضَى ... وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيـا بأقطارها ... إليـهِ فى البر وفى البحر
يُشَـيِّدُ الملك بآرائه ... وكان فيـه نافذَ الأمر
فبينما جعفر فى ملكه ... عشـيةَ الجمعـة بالقصر
يطير فى الدنيا بأجناحه ... يأمُل طول الخُلْد والعمر
إذ عثر الدهر به عَثْرةً ... ياويلنـا من عثرة الدهر
فغودر البائس فى ليلة السـ ... ـبتِ قتيلا مطلعَ الفجر
وجىء بالشيخ وأولادِه ... يحيى معاً فى الغُلِّ والأسر
والبرمكيين وأتباعِهم ... من كان فى الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد ... كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أُحْدوثة ... سبحانَ ذى السلطانِ والأمر

وقال سَلْم الخاسر

خوت أنجم الجدوى وشُلَّت يد النوى ... وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبنـاء برمك ... بها يعرِف الهادى طويلَ المناسك

وقال أشجع السُّلَمى

ولّى عن الدنيا بنو برمك ... فلو توالى الناس ما زادوا
كأنمـا أيامُهم كلُّهـا ... وهى لأهل الأرضِ أعياد

وقال فيهم أيضاً

قد ساد دهرٌ بنى برمك ... ولم يدَع فيهم لنا لُقْيا
كانوا أولى الخير وهم أهلُه ... فارتفع الخير عن الدنيـا

وقال فيهم صالح الأعرابى

لقد خان هذا الدهرُ أبناءَ برمك وأيُّ ملوكٍ لم تخنها دهورُها
ألم يك يحيى والىَ الأرض كلِّها فأضحى كمن وارته منها قبورُها

وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد

أُصِبْتُ بسادة كانوا عيوناً بهم نُسْقَى إذا انقطع الغمام
فقلت وفى الفؤاد ضريم نارٍ وللعَبَرات من عينى انسجام
على اللذات والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام
جزِعت عليك يافضلُ بن يحيى ومن يجزع عليك فلا يلام
هوت بك أنجم المعروف فينا وعزّ بفقدك القوم اللئام
وما أبصرت قبلك ياابن يحيى حُساماً قدّه السيف الحسام

إلى أن يقول

أألهو بعدكم وأقَرُّ عيناً علىّ اللهوُ بعدكُمُ حرام
وكيف يطيب لى عيش وفضلٌ أسير دونه البلد الشآم
وجعفرُ ثاوياً بالجسر أبلت محاسنَه السمائم والقَتام
أمرُّ به فيغلبنى بكائى ولكنّ البكاء له اكتتام
أقول وقمت منتحباً لديه الى أن كاد يفضحنى القيام
أما والله لولا خوفُ واشٍ وعين للخليفة لاتنام
لطفنا حول قبرك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام (١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم ووقوعَ الفتن فى الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم (٢) وجعل عقابَ من يُقدم على ذلك القتل، (٣)

---

(١) الأغانى ١٥ : ٣٦ (٢) الفخرى والنواجى والأتليدى (٣) الاسحاقى ٩٨

وأمر الحرّاس أن ينزعوا الرقاع التى علقت فى الأسواق لئلا يثور ثائر الشّغْب من الشغْب، (١) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغايةَ التى كان يرومها من محو ذكرهم (٢) وطمس معالمهم بعد أن زيّنوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت فى قلوب الناس محبتهم (٣) بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء. ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عندما كان يراه من وقوع الفتن فى الدولة فربما وصل اليه أن فارس قد قامت فيها القيامةُ، وأنّ خُراسان (٤) قد عصفت فيها ريح الفتنـــة، والمغربَ قد تضعضع حكمه فى يد ابن الأغلب، والرومَ قد جاشوا فى بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعفِ آل الربيع الذين تولَوْا الوزارة بعدهم، ولا أرى لهم بهـا استمتاعا طويلا كما يشير أبو نواس الى ذلك بقوله (٥)

ما رعَى الدهرُ آل برمك لمّا ... أن رمى ملكَهم بأمر فظيع
ان دهراً لم يرْعَ عهداً ليحيي ... غير راعٍ زمامَ آل الربيع (٦)

حتى اذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبهم العزمُ ولا الحزم على ابلاغ الرشيد بأنفسهم (٧) بل اتخذوا طريقـة البلاغ على ألسنة الندماء، وفى ذلك يقول الشاعر استخفافاً بالأمر، وهذا بعيد عن سياسات

---

(١) أعلام الناس ١٧٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقـد الفريد ٣ : ٢٦ وابن خلكان (٣) الأتليدى وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء (٤) الأتليدى ١٧٤
(٥) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول.

أيها الراكب المجد الى الفضـــل ترفق فدون فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت الى الفضـــل فهل فى يديك الا التراب

(٦) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٧) الأغانى ١٧ : ٤٦

الدول [١].

نقَض الذى أعطاكه نَقْفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه ... غُنْم أتاك بهَ الأله كثير

فتأمل (رعاك الله) هذه الدولةَ التى كانت زينةَ الدنيا فى أيام البرامكة[٢] كيف صارت الى رجال لا رأىَ عندهم ولا عزيمة، فان يبلغْك عن وهْنها خبر فيما بعد فاعلم أنّ صدور هذا الفتور ناشىء عن فتور الصدور. وهذه الجنود التى تراها فى قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل يدير به سياسته، فكم رأينا من دولة كانت فى العالم عظيمة فأعمى ساستَها الجهلُ فانحطت لفقْدان الحكمة. ودولةٍ كان أمرها فى توانٍ فتولاها رجال كُبرَاء أصلحوا ما فيها من الاختلال، وصعِدوا بها من العزة المقامَ الذى لا ينال. وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطلِ السياسة والتدبير اذ ضمّ الاسلام الى مصلحة واحدة من طرف المشرق الى أقصى المغرب، [٣] ثم أقام دولته على هذا الأساس المتين، ثم تأمل ما صنع الحجّاج بنُ يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقربَ الى طاعة الأمويين من الشأم ومصر ثم انظر الى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبى مسلم (رحمه الله) وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتلَه عن رد الفرس والأكراد الا بسياسة خالد البرمكى الذى ضمِن له الكفاية عليهم بالرأى [٤] دون الجنود. وانظر

---

(١) السيوطى وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغانى ١٧ : ٤٥ والمسعودى ١ : ١٥٨ (٢) الاتليدى (٣) نذكر هنا أنه ما توطد للاسلام ملك فى أفريقية الا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤) ابن خلكان ١ : ١٤٩

الى دولة الرشيد كيف زهت فى وزارة البرامكة بما لم تزه به دولة (١) الهادى، ووزراؤه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق الى وهم الناس ، لأنه لم يكن لأبى مسلم من الرجال ما كان لملوك بنى أمية ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبله . وانما كان المعزز لها رجالاً يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفى ضوئها يسيرون، ولاسيما هؤلاء البرامكة الأمجاد الذين حرم الرشيد دولته مساهمتهم له فيها وتدبير شئونها ، واستأثر أعلم ما يكون من أمره مع صهب السبال (٢) ولقد قام به اليوم من الندم والأسف (٣) على جعفر والتلهف على ما سبق به القضاء ما يشغله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرنى من هو مقرب اليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه الا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط منه فى أمره ، (٤) واذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يجدونه من الندماء (٥) ليستأنس بهم ويتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة فى دولته وكثرة الأراجيف .

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائراً على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد اليها ، وان كانت خواطرهم متوافقة فى لومه

(١) الزمخشرى فى ربيع الابرار (٢) هى لقب للروم (٣) الأغانى ١٧ : ٧٤ (٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨ (٥) ابن خلكان ١ : ٣٢ وذكر غيره أن الرشيد كثيراً ما كان يوجه خادمه فى طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم حينما يطلبهم

والبكاء على جعفر. فمن قائل إنه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية، حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه، ومن قائل إنه حنق على جعفر لتطاوله عليه في الكلام اذ كان يقول لي لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكونن ذلك وبالا سريعاً عليه، (١) ومن قائل انه تنغص من الفضل أن يكون أكرم من أولاده، ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لساناً وأحكم سياسة، ومن محمد أن يفضلهم في المروءة، ومن موسى أن يغلبهم في الشجاعة فنكبهم لذلك.

ولست أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء. ولو أني كتبت اليك غير ما ذكرت ما بقي لدي الا البكاء والنحيب، على أني أحب أن أختم رسالتي اليك عنهم بذكر مأثرة من بعض ما صنعوا الى الورى من الجميل. وهي أن الرشيد (٢) مع تشديده في النهي عن رثائهم بلغه أن رجلا يحضر ليلاً الى دورهم وينشد أشعاراً ويذكر محاسنهم ومآثرهم ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف، فدعا مسروراً هذا الخادم اللئيم وساره بالأمر وأمره بأن يمضي تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التي كانت مظهر الأنس بما آتى الله أهلها من سعة الملك. وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سمّاهما له وأظنهما ياسراً ومروان، (٢) حتى اذا جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين

---

(١) الاتليدي ١٦٨ (٢) هذه القصة قد وقعت للمأمون لا للرشيد، وانما ذكرناها هاهنا تنميماً لمحاسن البرامكة.

ومضى بهما آخرَ الليل إلى تلك المنازل ، فاذا هم بغلام قد أقبل ومعه بساط وكرسيّ حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة ، فجلس على الكرسيّ وجعل يبكى وينتحب ويقول .

ولما رأيت السيف جَدَّل جعفرا ونادى منادٍ للخليفة فى يحى
بكيت على الدنيا وزاد تأسّفى عليهم وقلتُ الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففزِع فزعاً شديداً ، وقال دعونى حتى أوصى بوصية ، فانى لا أوقن بعد اليوم بحياة ، ثم تقدَّم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلّمها لغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مثَل بين يديه زجره وقال له من أنت ؛ وبمَ استوجب البرامكة منك ما تفعل فى خربات دورهم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ للبرامكة أيادىَ خطيرة ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ؟ قال قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذِر بن المُغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى الدين واحتجتُ الى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه : أشاروا علىّ بالخروج الى البرامكة فخرجتُ من دِمَشْق ومعى نيِّف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية ، وليس معنا ما يباع أو يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لأستتر بها فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شىء عندهم ، ودخلتُ شوارع بغداد فاذا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ مترىٍ بأحسن زىّ وزينة ، وعلى الباب خادمان ، وفى الجامع جماعة جاوسٌ فطمِعت فى القوم ، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وكنت أقدِّم رجلا وأؤخر أخرى ، والعرق

يسيل منى ، لأنها لم تكن صِناعتى وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقاموا وقمتُ معهم حتى دخلنا جميعاً دار يحيى بن خالد ، وإذا هو جالس على دكان فى وسْط بستان فيه أطيبُ الرياحين ، فسلّمنا عليه فردّ علينا السلام وهو يعدُّنا مائة وواحداً ، وبين يديه عشرة من وَلَده وإذا بغلام أمردَ قد عذّر خدّاه قد أقبل من بعض المقاصير وَ بين يديه مائة خادم متمنطقون فى أوساطهم بمنْطَقَة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل وَاحد مجْمَرة من الذهب ، فى كل مجْمَرة قطعة من العوُد كهيئة الفِهْر قد قرن بها مثلُها من العنبر ، فجلس الغلام بجانب يحيى ووُضِعَتْ تلك المجامر بين يدى الغلام ، ثم قال يحيى للقاضى زوّج بنتى عائشةَ من ابن عمى هذا فخطب القاضى خطبة الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنِّثار من بنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت فاذا الحاضرون بالمجلس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنا عشر رجلا ، وإذا بمائة واثنى عشر خادماً قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صِينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدَىْ كل واحد منا صِينية ، فرأيت القاضى والمشايخَ يصبون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ، ويقومون واحداً بعد واحد حتى بَقِيت وحدى لا أجسُر على أخذ الصِينية فغمزنى خادم فجسُرت على أخذها ، وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية بيدى ، ثم قمتُ وجعلت ألتفت خلفى مخافةَ أن أُمْنَع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك فى صَحْن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم ايتنى بهذا الرجل ، فَرُدِدْتُ إليه ، فأمرنى بصب الدنانير والصِينية وما فى كمى ، ثم قال اجلس فجلست ، فقال لى ممن الرجل ، ولم تلتفت خلفك ؟

فقصصتُ عليه قصتى ، فقال للخادم ايتنى بولدى موسى ، فأتى به ، فقال يابنىّ هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك و نعمتك ، فقبض موسى علىّ وأدخلنى إلى دار من دوره وأكرمنى غايةَ الاكرام وأقمتُ عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له إنّ الأمير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغيرُ خاف عليك اشتغالى اليومَ فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوّطه بنعمتكَ ففعل ذلك وأكرمنى غاية الأكرام ، فلما كان من الغد تسلّمنى أخوه العباس فبتُّ ليلتى عنده بين غِناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد ،[1] ولم أزل فى أيدى البرامكة يتداولوننى مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالى وأهلى أفى الأموات هم أم فى الأحياء ، فلما كان اليومُ الحادىَ عشَرَ جاءنى خادم ومعه جماعة من الحَشَم والغِلمان فقالوا لى قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت ويلاه سُلِبْتُ الدنانيرَ والصينية وأخرجُ الى عيالى على هذه الحالة ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، فرفع السِّتر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، ولما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فارفعها إلىّ فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، ثم بدت لى حُجْرة كالشمس بهاء وإشراقا ، واستقبلتنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وأهلى يتقلّبون فى الحرير والديباج ، وحُمِل إلىّ ألفُ ألفِ درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضَيْعتين من عمل السواد وتلك الصينيةُ التى كنت أخذتها بما معها من الدنانير وا بنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أأنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه ،

---

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد

فلما نزلت بهم الفاجعات أجحفنى عاملك على العراق وألزمنى فى هاتين الضيعتين ما لا يفى دَخْلُهما به . ولما تحامل علىّ الدهرُ كنت فى آخر الليل أقصِد منازلهم فأندُبهم وأذكرُ حسن صنيعهم إلىّ وأشكر عطفهم علىّ . فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك فى أيام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شِدّة بكائه ، قال له يا هذا قد أحسنّا إليك برد ما قد سُلِبَ منك فما يُبكيك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آتِ منازلهم فأبكيَهم وأندبَهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين وفعل بى ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدَمعت عينا الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابكِ ، وإياهم فاشكر ،(١) ولله درّ أبى نواس حيث يقول فى وداع الدنيا التى أوحشت لفقدهم

سلام على الدنيا إذا ما فُقِدْتُمُ بنى برمك من رائحين وغاد (٢)

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء وخوف من الرشيد أن يُعْلِمه بموضعى الرقباء فيقطعَ ما ينالنى منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم فى خُراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليمن ، لأنى علمت من بعض المقرّبين إليه أنه يطلبنى طلباً حثيثاً ، وقد جعل لمن يأتيه بى مالا جزيلا ، وربما كان هذا الكتاب آخرَ

---

(١) الفخرى والأتليدى ١٩٩ والأبشيهى ١ : ٢٤٣ (٢) الوطواط ٦١٣

عهدى بمراسلتك بعد اليوم . . . . وإنْ كنتَ قد رأيبَ فيما تقدم إليك من الكتب السالفة أنّ العرب قد حصلّوا فى زمامنا هذا مالم يختلج فى صدورهم زمنَ الخلائف ، ونبغوا النَّبْغَةَ التامةَ فى جميع الفنون والصناعات والمعارف، وتبحرّوا فى حكمة الروم والفرس على اجتهاد ، ودونوا أصول الشريعة فى مذاهب صحيحة المبدإ جميلةِ المعاد ، فانما الفضلُ فى ذلك كلّه عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منَار العلم وقرّبوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعْطيتهم بالمال الكثير ، وكان عصرهم تاجاً [1] على هامَةِ الدهر ونوراً أضاء به المشرق حتى انقلب من الضَّعَة إلى سمو الارتفاع ، ومن عَمايَة الجهل إلى نور الاطلاع . فما هو عندى إلاّ الزمنُ الذى يبقى موسوماً عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك [2] الذين كانوا جمالَ المشرق وحِصْنَ الاسلام وزينة العالم [3] ومَنَعَةَ هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم إلاّ بالحيل والمكايد ، فانك لتَعلم أنّ الدعوة التى قام باعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذريّة النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ، ولم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم إليها إلاّ مقارَعة بنى أمية فى جملة من انضم اليها من أهل البيوتات ، حتى إذا خدمهم السيف رأوْا أنْ ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالحيلة التى كان عزِجها أبو جعفر باشتداده على العمّال وإرهاق الرعية فى الخَراج ، حتى يوقع فيهم الفشل ويُقْعِدهم عن الخروج عليه فى دعوتهم ، فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يرَوْا أن يحمِلوا

---

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان (٢) الزمخشرى فى ربيع الأبرار (٣) يقول الحصرى ٢ : ١٠٣ ان أيامهم كانت روض الأزمنة

الأمة على الخلاف ضنًّا بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها فى قتال المسلمين بالمسلمين ، فثبت له الملك من هذا الوجه ، لم ينازعه فيه إلاّ جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمُّهم الغرض الى جامعة واحدة فى جميع الأنحاء ، فلم يستطيعوا مقاومتـه ولا بلغوا من غرضهم الاّ أنْ جعـلوا له سبيلا الى غلَب جماعة منهم بعـد جماعة ، فلما تغلّب عليه حب الولد فخلع ابن عمه عن ولاية العهـد وصيّرها للمهدىّ من بعده لم يكن فى الناس الاّ من ينغّص ذلك عليه ، فخاف الربيعُ أن تذهب الخلافة من وَلَده وله فى مصيرها الى المهدىّ مصلحة لا تكون فى دولة غيره من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم ، ففتَق له عقلُه تلك الحيلةَ التى تسارع أهل الحل والعقد الى تنفيذها خوفاً من أبى جعفر لظنهم أنهُ حىٌّ لم يمت، فلما استوثق له الأمر استهلّ خلافته باستمالة الناس بالاحسان والمعروف حتى لا تنفِر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعةً لسيرة أبيه ، وأقام لهم ديوان المظالم و رفع عنهم ضرائب الخَراج ووسّع لهم أسبـاب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم حتى استمالهم لغرضه وضاروا واطوعَ يمينه، فلم يبق عليه بعد ذلك الاّ أنْ يأمَن خروج أهل الدعوة فى جمع غير متفرقٍ ، فرأى أن يستميل اليه الحرَم الآمن وهو الموضع الذى يُنادى فيـه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق فى أهله الأموال الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الانعام ، وجدّد لهم بناء البيت الحرام وعهد الى عظمائهم بالولايات والامارات ، وأجرى الأرزاق الواسعة على من استخدم فى الجند من أولادهم كما علمت . فلما آلت الخلافة إلى الهادى وصارت إرثاً فى بيت أبى جعفر رأى البرامكةُ برأيهم الصائب أنْ ليس للعلويين بعـد ذلك كلّه مطمَعٌ فى المشرق بازاء العباسيين

الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم ، فانصرفوا عن تدبير أمر الحرمين لهم إلى تمهيد الطريق لخلافتهم فى المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله الى جَناحه حتى ينصرفَ عن مقارعة أهل البيت فى إفريقيةَ ويقنعَ بما دبّروا له من السلطان العظيم الذى لم يكن مثلُه لأحد من الخلفاء قبلَه ، فكان بعضُ ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعية باللين والعطف بعد أنْ أمنوه خروجَهم فى دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرِهم ، فجرَى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم بُرْهة من الزمان ثم غلب عليه حبّ الأَثَرَة فرجَع الى الشدة ونكّل بمن كان أحبّ الناس اليه .

هذه هى دولة العباسيين التى أشرقت شروقَ الشمس فى البهاء والعظمة ، وإنها لتحتاج الى رجال عقلاء يُديرون سياستَها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخِبْرة بأمور الملك ماقامت لها قائمة بعد ذلك ، فاليوم أترك الاسلام بين رايات خضر وسود وبيض ، فأما العَلَويون فانهم حائزون أمر المشرق وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فانهم يرتقبون الخلافةَ من وراء البحار ، ويرومون إعادة الملك الذى ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم فى دِمَشْق ، والمسلمون فى عُرْض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فاذا كان هذا حالَ الدولة من العظمَة وهى متفرقة على أغراض لا تضمها الى الوَحْدة فما الظن لو جمعتها عَصبية الدين إلى جامعة الأسلام فى المسلمين ملوك عِظام أحسَبهم ينتبهون الى ما بهم من الانقسام . ويقيمون على أساس الجامعة دولة تهتزُّ لها دول الروم والله يؤْتى الملك من يشاء وينزِع ُالملك ممن يشاء ، لا الهَ إلا هو ربُّ العرش العظيم .

الأسفار التي وجدت بين يديّ وأسندت اليها رواية الرحّالة

« علوم الدين والشرع »

		سنة
الاتقان فى تفسير القران للسيوطى	طبع بولاق	١٢٨٧
الأحكام السلطانية للماوردى	« بن	١٨٥٣
رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين	« بولاق	١٢٨٦
مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده	« القسطنطينية	١٢٧٦
شرح الزرقانى على موطأ الامام مالك	« بولاق	١٢٧٩
كليات أبى البقاء	« مصر	١٢٨٧

ومطالعات فى صحيح البخارى وتفسيرى الزمخشرى والبيضاوى

« علم اللغــــة »

صحاح الجوهرى . المحيط للفيروزابادى فقه اللغة للثعالبى

« الممالك والبـــلدان »

أحسن التقاسيم فى معرفة البلدان والأقاليم للمقدسى	طبع ليدن	١٨٧٧
المسالك والممالك لابن حوقل	« «	١٨٧٢
الرحلة (إلى المشرق) لابن جبير	« «	١٨٥٢
معجم البلدان لياقوت	« ليبسيك	١٨٦٦
تقويم البلدان لأبى الفداء	« باريس	١٨٤٠
المسالك والممالك لابن خرداذبه	« «	١٨٦٥
الفيض المديد فى النيل السعيد لأحمد المنوفى	« «	١٨٣٧
مسالك الممالك للاصطخرى	« ليدن	١٨٧٠
الخطط والآثار للمقريزى	« بولاق	١٢٧٠
آثار مصر لعبد اللطيف	« توبنك	١٧٨٩
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للأدريسى	« ررمية	
تحفة النظار فى عجائب الأسفار لابن بطوطة	طبع باريس	١٨٥٣
أخبار العباد وآثار البلاد للقزوينى	« غوتنغين	١٨٤٨
جواهر البحور.ووقائع الدهور لابراهيم بن وصيف شاه	(خط)	
نشق الآثار . فى عجائب الأقطار لمحمد بن اياس	(«)	

السير والأخبار وأيام الناس

الكامل لابن الأثير	« بولاق	١٢٩٠

		سنة
تاريخ الملوك والأمم للطبرى	طبع ليدن	١٨٨٠
ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون	» بولاق	١٢٨٤
تاريخ أبى الفداء	» القسطنطينية	١٢٨٦
الآداب السلطانية والدول الاسلامية للفخرى	» غريفزولد	١٨٥٨
مروج الذهب للمسعودى	» بولاق	١٢٨٣
نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب للمقرى	» »	١٢٧٩
وفيات الأعيان لابن خلكان	» »	١٢٧٥
تاريخ الدول لأبى الفرج الملطى	» اكسفور	١٦٦٣
أخبار الدول والاسلام (الخميس)	» بولاق	
تاريخ الخلفاء للسيوطى	(خط)	
الأنس الجليل فى تاريخ المقدس والخليل للسيوطى	» مصر	١٢٨٣
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى	مصر طبع حجر	
النجوم الزاهرة . فى أخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن	» ليدن	١٨٥١
أعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس للأتليدى	» بولاق	١٢٨٠
فتوح الشام للواقدى	(خط)	
آثار الأول للقرمانى	» بولاق	١٢٩٠
فوات الوفيات لمحمد بن شاكر	» »	١٧٨٢
العقد الفريد لابن عبد ربه	» »	١٢٨٣
المونس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار	طبع تونس	١٢٨٦
قضاة الشام لشرف الدين الانصارى	(خط)	
لطائف الأخبار الأول . فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . للاسحاقى	مصر	١٣٠٠
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين للشرقاوى		
مطالعات فى ابن الوردى والازرق	مصر	١٣٠٠

العلوم الأدبيــــة

الفهرست لابى يعقوب الوراق		
حاجى خليفة . كشف الظنون . عن العلوم والفنون	» لندن	١٨٦٣
الاغانى لابى الفرج الإصبهانى	» بولاق	١٢٨٥
المقدمة لابن خلدون	» بيروت	١٨٧٩

		سنة
المثل السائر لابن الاثير	طبع بولاق	
أدب الدين والدنيا للماوردى	» قسطنطينية	١٢٩٩
حياة الحيوان للدميرى	» بولاق	١٢٧٥
عجائب المخلوقات للقزوينى	» كوتنكن	١٨٤٩
خزانة الأدب لابن حجه	» بولاق	١٢٩١
مقامات الحريرى	» بيروت	
مجمع الأمثال للميدانى	» بولاق	١٢٨٤ *
قلائد العقيان . للفتح بن خاقان	» باريس	١٢٧٧
المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى	» بولاق	١٢٧٩
نهج البلاغة للامام على كرم الله وجهه	» حجر	
طبقات الشعراء لأبى عبيدة	خط	
شرح لامية ابن الوردى للقناوى	» مصر	١٢٧٨
سراج الملوك للطرطوشى	» بولاق	١٢٧٩
الطبقات الكبرى للشعرانى	» »	١٢٨٦
مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر	طبع باريس	١٢٦٢
الكنز المدفون . والفلك المشحون للسيوطى	» بولاق	١٢٨٨
شرح مقامات الحريرى للشريشى	» »	١٢٨٤
الكشكول لبهاء الدين العاملى	(خط)	
يتيمة الدهر . فى شعراء اهل العصر للثعالبى	» دمشق	
زهر الآداب وثمر الالباب بهامش العقد الفريد للحصرى		
غرر النصائح الواضحة لأبى الوطواط	» بولاق	١٢٨٤
سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى	خط	
تزيين الاسواق . فى أحوال العشاق لداود بن عمر	» بولاق	١٢٩١
فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه	» الموصل	١٢٦٩
كتاب ألف ليلة وليلة	» بولاق	١٢٥١
نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشبلنجى	» »	١٢٩٠
كليله ودمنه لابن المقفع	» باريس	
حلبة الكميت لشمس الدين النواجى	» بولاق	
الموازنة بين أبى تمام والبحترى	» القسطنطينية	١٢٨٧
مطالعات فى لطائف العرب وربيع الابرار للزمخشرى وغير ذلك		